المنهل

AL MANHAL

مجلة للآداب والعلوم والثقافة

العدد (٦٠٥) المجلد (٦٩) العام [٧٣] المحرم وصفر ١٤٢٨ هـ - فبراير ومارس ٢٠٠٧م

المنهل (٧٣ عاماً) حاضر يحفل بالريادة

مسابقة المنهل الثقافية
قسيمة المسابقة داخل العدد

الكون والنظام الثلاثي

- علاقة الأدب الفارسي بالعربية.
- الاستغراب الفكري واللغوي
- عذاب المستضعفين

مسيرة العلم الحديث من جمال الكون إلى الايمان بالخالق سبحانه

الاستخلاف الإلهي للإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهل

مجلة للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة

عن دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أسسها المغفور له

عبدالقدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

مالكها ورأس تحريرها

المغفور له

نبيه عبدالقدوس الأنصاري

من العام ١٤٠٣ هـ/ حتى ١٤٢٤ هـ

غلاف العدد



المركز الرئيسي

جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥

رمز بريدي ٢١٤٦١

برقيا: المنهل

فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣

تليفون: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٢٩٧٦٥

٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧

الرياض: ص.ب ٢٩٠

تليفون: ٤٥٤٢٤٣٢





بحر لا ساحل له

□ حقاً إن هذه الصحافة كالخضم المتلاطم الذي لا ساحل له، فما يتقدم إنسان فيها - مهما يتقدم - إلا واعتراه شعور صادق عميق بأنه ما يزال يدرج في الساحل أو قريباً من الساحل..

وقد ارتاد بحر الصحافة العظيم - قبلنا - شعوب ناهضة، وارتاده معها، أو قبلها، أو بعدها شعوب أخرى، فمن سابق ومن لاحق، ومن متقدم ومن متأخر، ولكن الشعور الشامل الذي يسود الجميع أنهم مايزالون يدرجون قريباً من الساحل، وأن هذا المحيط الطامي ليس له ساحل!

واستيقظنا اخيراً، وشاقنا جمال البحر الساحر البديع، فاندفعنا إلى اقتحامه وقد أنشأنا (زوارق) محدودة الطاقة والأدوات، وألقينا بما أنشأنا في اليم الزاخر، ونشرنا الشراع بعد الشراع، ثم ألقينا بمواهبنا وبمقدراتنا في زوارقنا وقلنا لها تقدمي بنا بين خمائل الروض الأنيق، لنقتطف من ثماره كل يانع وكل طريف وسرنا .. وسرنا.. ثم نظرنا إلى الأمام، ونظرنا إلى الوراء.. فهالنا - في نظرنا إلى الأمام - بُعد الشقة بيننا وبين أدنى القوافل السارية في عرض المحيط إلينا.. وهالنا - في نظرنا إلى الوراء - أننا لم نتقدم، بعد عن الساحل بما يقدر أو يذكر .. فهل ياترى - نستحث زوارقنا لتغذ بنا السير حتى نحقق الأمل الجميل؟؟ أم إننا نستسلم لعوامل الوهن والتواكل؟ إن منطق الحياة ليهيب بنا صارخاً: أن لا حياة مع اليأس، وأن لا يأس مع الحياة ■

«عبدالقدوس الأنصاري»

المحرم ١٣٦٨هـ/ نوفمبر ١٩٤٨م

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريالات - الإمارات ٨ دراهم - البحرين دينار واحد - سلطنة عُمان ٦٠٠ بيسة - قطر ٨ ريالات - الكويت ٦٠٠ فلس - الأردن ٧٥٠ فلس تونس ٨٠٠ مليم - الجزائر ٨٠ ديناراً - سوريا ٤٥ ليرة - السودان ١٥٠ ديناراً لبنان ١٠٠ ليرة - المغرب ٩ دراهم - مصر ٣٠٠ قرش - اليمن ١٠٠ ريال بريطانيا جنيه استرليني - فرنسا ١٠ فرنكات - امريكا ٣ دولارات

إلى الأمام على الدوام

□ (٧٢) شمعة، أضاءتها المنهل، في دروب وطرقات العلوم والآداب والمعارف.. غير هيَّابة ولا وجلة ولا متتاعبة.. عطاء علمي وأدبي وفكري، غير مجذوذ.

تواصل علمي ومعرفي في الزمان والمكان تساقطت دونه كبريات أندادها..

وهذا من فضل الله سبحانه وتوفيقه.. ثم من بَعْدُ: أحباء المنهل: من كتاب وقراء ومتابعين..

أما دعم ورعاية قادة هذا الكيان الكبير، فهذا يبقى ويظل بين أحداقنا..

وبهذا العدد لشهر المحرم ١٤٢٨هـ، فإن مجلتكم المنهل تضيء به شعلة عامها الـ (٧٣)..

وتبقى المنهل على العهد سائرة.. تواكب الأزمنة موضوعاً وطرحاً.. متغيرات متتالية متلاحقة.. وللمنهل القياد.. من غير افراط ولا تفريط.. كلمة هادئة تبلغ المدى. (إلى الأمام على الدوام)..

ذلك شعار مؤسس المنهل المحبَّب إلى نفسه..

وهو شعارنا ودثارنا..

ونظل على العهد بتوفيق الله سبحانه..■

التحرير

المشرف العام
أ.د/ عبدالرحمن الطيب الأنصاري

رئيس التحرير
المدير العام

زهير نبيه
عبدالقدوس الأنصاري

عزيزي القارئ
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.

إشارة

تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الإسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الإشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

عنوان الموقع :
WWW. al-manhalmagazine.com
البريد الإلكتروني :
E-mail : info@al-manhalmagazine.com

الشركة السعودية للتوزيع

جدة : ٦٥٣٠٩٠٩ ـ ٠٢
الرياض : ٤٧٢٨٨٠٥ ـ ٠١
الدمام : ٨٤١٠٨٤٠ ـ ٠٣
مكة المكرمة : ٥٥٨٥٠٧٨ ـ ٠٢
المدينة المنورة : ٨٤٧٠١٢٥ ـ ٠٤
الباحة : ٧٢٧١١٧٥ ـ ٠٧
الدوادمي : ٦٤٢١٢٧٤ ـ ٠١
الجوف : ٦٢٥١٨٨٢ ـ ٠٤
الخفجي : ٧٦٧١٩٤٧ ـ ٠٣
الطائف : ٧٤٥٤٢٢٢ ـ ٠٢
تبوك : ٤٢٣١٨١٢ ـ ٠٤
حفر الباطن : ٧٢١٠٠٣٦ ـ ٠٣
الجبيل : ٣٦٢٠١٥٨ ـ ٠٣
جازان : ٣٢٢٠١٠٤ ـ ٠٧
نجران : ٥٢٢٠٩٠١ ـ ٠٧
الاحساء : ٥٩٢٧٧٠٧ ـ ٠٣
عسير : ٢٢١٨٦٩٣ ـ ٠٧
المجمعة : ٤٣٢٣١٦٣ ـ ٠٦
حائل : ٥٣٢١٥٥٥ ـ ٠٦
ينبع : ٣٢٢٥٨٣٤ ـ ٠٤
القريات : ٦٤٢١٢٩٦ ـ ٠٤
القصيم : ٣٢٤٣٠٧٠ ـ ٠٦
الرقم المجاني : ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦

فقرات مستلة

□ □ في الحضارة الإسلامية الإنسان هو خليفة سيد الكون - الله سبحانه - وفي الحضارة الأوروبية الإنسان هو ذاته سيد الكون..

ص ٨

□ □ المعجم اللغوي في الحديث عن المرأة مفعم بالمعاني والدلالات..

ص ٣٤

□ □ القيمة الجمالية لأي نص أدبي تعبير عن رؤية إنسانية نبيلة تناصر (الحرية والعدل والمساواة)..

ص ٤٢

□ □ الفتوحات الإسلامية، أخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة..

ص ٥٨

□ □ الصورة في إطار الشعر تمثل تشكيلاً لغوياً خاصاً تحقق الانسجام والتآلف بين الواقع والمثال

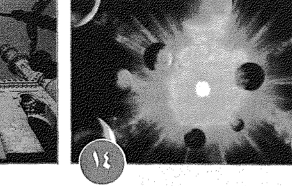
ص ٩٢

□ □ الشعوب الأعجمية الذين دخلوا الإسلام جاءوا ومعهم لغاتهم وعاداتهم..

ص ١١٦

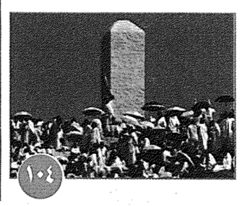
□ □ إحياء اللهجات والقوميات في المجتمعات العربية محاولات جادة للتفتيت والتفرقة..

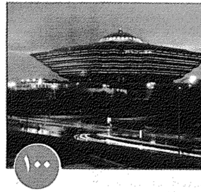
ص ١٢٢





THE LIBRARY
DR KHALED AZAB





الاشتراكات

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤
قيمة الاشتراك السنوي
للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال،
قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال

وكلاء التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ – الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ – شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة ٤١٤١٨٢ – وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ – دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ – مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الاعلانات:
يراجع بشأنها
الادارة ت: ٦٤٣٢١٢٤



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ـ جدة تليفون: ٦٣٩٦٠٦٠ ـ فاكس: ٦٣٩٤٠٩٥





أيـادي الخـيـر تتـرى



زهير نبيه عبدالقدوس الأنصاري
رئيس التحرير

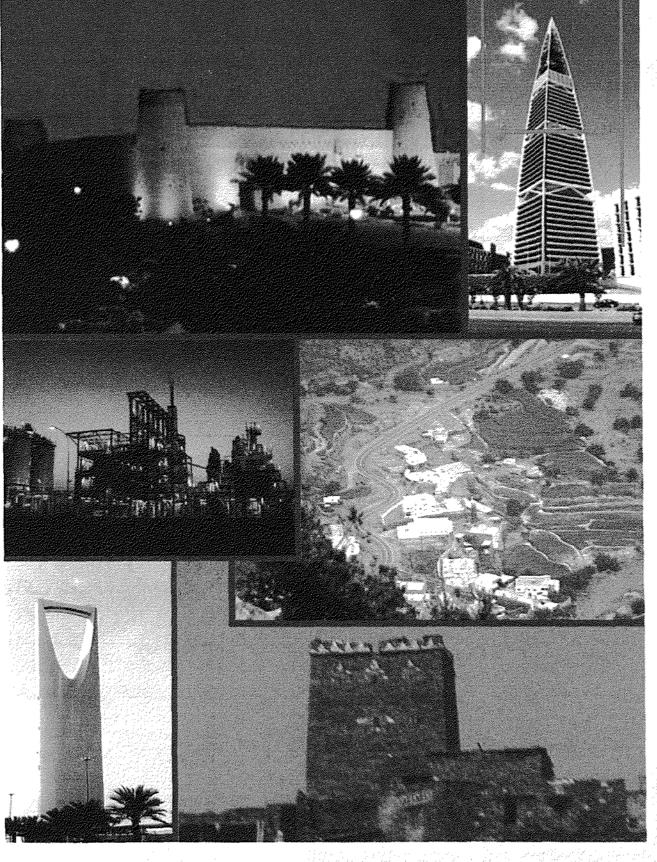
□ اسدل الستار عن عام منصرم مفعم بالخير والعطاء في عهد ملك الإنسانية خادم الحرمين الشريفين، كانت إنجازات ذلك العام بداية الانطلاق الفعلي لمسيرة النماء والعطاء في مملكة الإنسانية.. كان العطاء موجها للمواطن السعودي في مناحي حياته العامة والخاصة حيث لمسنا حرص خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده وحكومته الرشيدة على تفعيل أمور تمس السعوديين خاصة والمسلمين عامة في شتى المجالات.. لمسنا العطاء الكبير المتمثل في التوجية السامي بأن تكون موارد الميزانية للعام ١٤٢٧هـ - ١٤٢٨هـ ملبية لمتطلبات التعليم والصحة والشؤون الاجتماعية والمرأة والشباب والمشاريع التنموية حيث كانت الاعتمادات المالية الضخمة والملموسة مثار اعجاب وتطلع كل فئات الشعب السعودي.

وتعددت العطاءات وتنوعت ولا مجال في هذه العجالة من تكرار ذكرها فقد أشبعت بحثاً وإبرازا في معظم الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة في المملكة واشاد بها القاصي والداني.. ولكن بودي أن اشير هنا إلى أن مسك ختام هذه العطاءات في العام المنصرم كان

افتتاح خادم الحرمين الشريفين لجسر الجمرات في (منى) في مرحلته الأولى.. هذا المشروع الضخم الذي (عند اكتماله) سيكون منبع فخر يجسد مفهوم خدمة ضيوف الرحمن القاصدين أداء فريضتهم (الحج) في يسر وسهولة وأمان.. ومن واقع ردود الفعل التي عاشها الحاج ثبت أن هذا المشروع (في مرحلته الأولى) أنهى المشاكل التي كانت تواكب شعيرة رمي الجمرات في السنوات الماضية وأنه أنهى بالفعل التكدس والحوادث التي كانت موجودة فيما مضى.. ويعي الجميع حرص القيادة السعودية على استحداث المشاريع الخاصة بالحج والعمرة.. ولا أنسى وقفة خادم الحرمين الشريفين - يحفظه الله - وهو في شرفته العامرة في (منى) يتابع حجاج بيت الله الحرام.. ويوجه المسؤولين جميعاً للعمل على خدمة وراحة الحجيج.. هذا هو ديدن القيادة الحكيمة المسؤولة وواقعها المتمثل في خدمة الإسلام والمسلمين وستتوالى المشاريع المباركة في الحرمين الشريفين وفي المشاعر عاماً بعد عام محملة بالخير والعطاء.

●● وفي مستهل هذا العام الجديد، وفي إطار هذه الانجازات العظيمة الموفقة، وتناغماً وتساوقاً معها . فإن مجلتكم المنهل ستتابع مسيرتها الصحفية والفكرية المتميزة وستوالي عجلة التطوير والإبداع دون كلل أو ملل وسيلمس قارئ (المنهل) التجربة والتحديث مع صفحات المجلة متخذين شعار المنهل (إلى الأمام على الدوام) نبراساً وتوجيهاً ومنهجاً.

والله ولي التوفيق.. ■



ونسطع فوق هام الشمس

سعد بن سعيد الرفاعي

- السعودية -

سطعت على هام الشمـوس تألقـا

فجرى لها حبر الفخار تدفقاً

أرضي التي مامس حرفي رملها

إلا وغرد في الفخار محلقا

وطني سموت على الدنى قدسية

حرماً له تهفو القلوب تشوقا

وطني الطهارة حلقت بدياره

عطراً بخفقات القلوب معبقا

مهد النبوة فيه قام محمد

بالدعوة السمحاء حتى تشرقا

من هاهنا شع الهدى بضيائه

فأضاء غرب الكون حتى المشرقا

من هاهنا صهلت براية ديننا

خيل الدعاة عزيمة كي تخفقا

من هاهنا عزف السلام نشيده

حباً يسافر للأنام لتسمقا

من هاهنا بدء الحضارة شادها

دينٌ تسامق في السمو وحلقا

ومضت قرونٌ والجزيرة تزدهي

بالدين والنهج القويم تأنقا

حتى اعترتها فرقة وتشتتٌ

جهلٌ يطل سواده كي يطبقا

العدل ضل مساره واستيقظت

نار العداء تناحراً وتفرقا

حتى أتى صقر الجزيرة وانبرى

يسعى لتوحيد البلاد موفقا

سيف يفل عن الديانة بدعةً

قلب يتوق إلى الإخاء تحرقا

شاد البناء بدولةٍ منهاجها

دين به تسمو النفوس ترفقا

ومضى بنوه على خطاه توثباً

فالصقر صمم للمسار الزورقا

فبنوا لنهضته صروح حضارةٍ

نشدو لروعتها الطموح مموسقا

ياموطنا نهض الرجال بأمره

عزماً يذل به المحال محققاً

مئةٌ بعمرك أينعت بثمارها

وطناً على كل الورى متألقاً

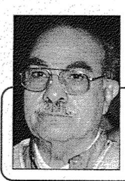


◻ اسْتَخْلَفَ. يَسْتَخْلِفُ. اسْتِخْلافاً فالاستخلاف: مصدر، معناه: اتخاذ الخليفة، ليخلف وينوب فيما فُوِّض إليه الاستخلاف فيه.

وعندما أراد الله، سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام، أنبأ ملائكته أنه سيتخذه، في الأرض، خليفة، يحمل أمانة العلم والاختيار والتكليف، نهوضا برسالة عمرانها. فقال، عز وجل، لملائكته ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون﴾ " البقرة:٣٠ " .

وهذا الاستخلاف الذي أراده الله، سبحانه وتعالى، للإنسان في الأرض، هو التعبير الأدق والأصدق عن مكانة الإنسان في هذا الوجود.. وعن رسالة الإنسان في هذه الحياة.. وعن الإطار الإلهي الحاكم لمسيرة هذا الإنسان في حياته الدنيا.

فالذي يستخلف إنسانا في أمر من الأمور، لابد وأن يحدد له هذا الأمر، ونطاق استخلافه فيه، والمعالم الأساسية التي يوصيه بالتزامها كي تكون إطاراً لحريته وهو ينهض بمهام هذا الاستخلاف.. فتكون مكانة الخليفة عندئذ وسطاً –لا تبلغ مكانة من استخلفه، علوا.. كما لا تهبط إلى درجة الذي لم



د. محمد عمارة

- مصـــر -

يحظ بالتـوكـيل والإنابة والاسـتـخـلاف -في الانخفاض-.

وبمعنى الاستخلاف هذا، تتحدد مكانة الإنسان -في الرؤية الإسـلامـيـة- في هذا الوجـود.. مكانة الخليفـة، ذي التـفـويض في عـمـارة الأرض، الحـر المختار المكلف المسؤول -لأن هذه شروط لتمكنه من النهـوض بمهام عـمـران الأرض- وأيضـاً المحكومـة حريته ببنود عقد وعهد الاستخلاف- أي الشريعة الإسـلامـيـة- التي تمثل مـعـالم وضـوابط وآفـاق هذا الاستخلاف.

وهذا المعنى للاستخلاف، وهذه المكانة للخليفة - الإنسان- التي مثلت فلسفة الرؤية الإسلامية لمكانة الإنسـان في الكون -مكانة الخليفـة عن خـالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان- هي التي انحرفت عنها الفلسفات والحضارات المادية، عندما ألهت الإنسان، فجعلت أبطاله آلهة، أو أنْسَنَت الإله، فزعمت حلوله وتجسده في الإنسان.. فعند الإغريق -في الحضارة اليـونانيـة القـديمة- جـعلوا أبطالهم- وهـم أناس- آلهـة- وهذا هـو تأليه الإنسـان- فلمـا تدين الرومـان بالنصـرانيـة، أحلوا هـذا المضـمـون الوثني مـحـل توحيدها للخالق وتنزيهها له، فألهوا المسيح عيسى بن مـريم، عليـه السـلام، بادعـاء حلول اللاهوت في ناسـوته!.. وكلا وجـهي العملة- تأليـه الإنسـان، أو أنْسَنَة الإله- ينحرف عن فلسفة الاستخلاف، ويجعل الإنسان سيد الكون، لا خليفة عن سيد الكون؟!..

وهذا الانحراف عن فلسفة الخلافة والاستخلاف هو الذي جـعل إنسـان هذه الحـضـارة المادية، سـواء في طورها اليـوناني الوثني، أو في طورها الغـربي العلماني، جعلها تطلق العنان لحرية إنسانها، دونما قيـود أو حدود أو آفـاق من شـريعة السمـاء.. فـإذا انتفت فكرة الخلافة، انتفت ضوابط وحدود ومعالم عـقـد الاسـتـخـلاف.. وهذا هـو الذي جـعل الحـرية الإنسـانيـة، بالمفـهـوم الغـربي، ومن ثم الديمقـراطيـة الغربيـة، لا تلتزم بحدود الحرام والحلال الدينى في تنظيم حرية الإنسان!..

وعلى النقيض من انحراف هذه النظرة المادية - في رؤية مكانة الإنسـان في الوجـود- جـاءت بعض فلسـفـات الديانات الوضـعـيـة- مـثل "النرفـانا -Nir vana" الـهندية- وبعض مـذاهب "التـصـوف- الفلسفى- الباطنى"- جاءت هذه الفلسفات لتنفي عن الإنسـان أية حـرية أو قـدرة أو اسـتطاعـة.. فـرأته "حـقـيـراً- فـانيـاً"، لا سـبيل إلى خـلاصـه وتقدمـه وارتقائه، إلا "الجبرية" والفناء في المطلق أو في ذات "الحق- اللّه"!.. فكان هذا الغلو في تكبيل الإنسـان و"تهميشـه" ونفي الحرية عنه، هو الآخر، انحرافاً عن النظرة الوسطية الإسلامية.. التي رأته خليفة عن اللّه سبحانه في هذه الأرض، استخلفه لعمرانها، ووهبه مقومات الحرية والقدرة والاستطاعة، التي لا تخرج به عن دائرة الخليفـة والنائب والوكيل -فـهـو ليس بسيد الكون- وأيضاً التي ترتفع بمكانته عن مستوى "الحقير- الفاني في الغير"، الذي لا حرية له ولا قدرة ولا اختيار!..

وبين هاتين الرؤيتين- المادية.. والباطنية- تقف فلسفة الاستخلاف الإسلامية، فتجعل الإنسان -في هذا الكون- أفضل خلق الله، وعبدالله -خليفة عنه، سبحانه، محكومة حرياته وقدراته ببنود عقد وعهد الاستخلاف-شريعة اللّه- وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥- ١٣٢٣هـ ١٨٤٩- ١٩٠٥م] التي تحدد معنى الاستخلاف ومكانة الإنسان، كخليفة عن اللّه، في هذا الوجود- فإن هذا الإنسان "عبدالله وحده، وسيد لكل شيء بعده"!..

هذا عن معنى الاستخلاف في مكانة الإنسان في هذا الوجود.

وتفريعا على هذا المعنى الكلى للاستخلاف، تتميز الرؤية الإسلامية لنطاق حرية الإنسان - الخليفة- في الثروات والأموال.. فهو فيها، أيضاً، خليفة ومُسْتَخْلَف، تحكم حرياته في التصرف بنود عقد وعهد الاستخلاف..

فالمالك الحقيقي، مالك الرقبة، في الأموال والثروات هو خالقها ومفيضها في الطبيعة، اللّه سبحانه وتعالى.. وهو الذي سخرها، كغيرها من قوى الطبيعة وكنوزها، ليرتفق بها الإنسان- ارتفاق تسخير -بمعنى الأخوة- لا ارتفاق سُخْرَة- بمعنى القهر- استعانة بها على أداء مهام الاستخلاف - عمارة هذه الأرض وتزيينها..

وللإنسان في هذه الثروات والأموال ملكية المنفعة، الملكية المجازية، ملكية الوظيفة الاجتماعية، التي تتيح له حرية الاختصاص، والاستثمار والتنمية والانتفاع، المحكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف في الأموال والثروات.. الاستخلاف من المالك الحقيقي، سبحانه وتعالى..

وهذا المعنى للاستخلاف، في الأموال والثروات- كما هو شأن الوسطية الإسلامية- لا يجرد الإنسان من حق الملكية للثروات والأموال.. وأيضاً لا يرفع الضوابط عن حريته في التملك والتصرف.. وإنما يقف بهذه الحرية عند "حرية- الخليفة"، المحكومة

بإرادة وأوامر ونواهي المالك الحقيقي للأموال والثروات..

ولمعنى الاستخلاف هذا جاء التعبير بمصطلح "الحق" عن ما للآخرين في مال الإنسان {والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم} (المعارج:٢٤، ٢٥) وجاء التصريح بأن مكانة الإنسان في الأموال والثروات هي مكانة "الخليفة- المُسْتَخْلَف" {آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير} (الحديد:٧). وجاءت إضافة مصطلح "المال"، في القرآن الكريم، إلى ضمير "الجمع" في سبع وأربعين آية -فالجمع- الإنسان- هو المُسْتَخْلَف- بينما جاءت إضافته إلى ضمير "المفرد" في سبع آيات، كي لا يستأثر وينفرد ويستغني.. وأيضاً، كي لا يحرم من حق الاختصاص والحيازة والملكية المحكومة بفلسفة وضوابط الاستخلاف!..

فللإنسان مال.. لكنه في نفس الوقت مال الأمة.. وبعبارة الشيخ محمد عبده: إن تكافل الأمة يعني "أن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم"!.. وبعبارة الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ ١٠٧٥-١١٤٤م) في (الكشاف)- وهو يفسر قوله، سبحانه وتعالى: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه}: "إن مراد الله من هذه الآية هو أن يقول للناس: إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله، بخلقه وإنشائه لها، وإنما مَوَّلكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب"!..

هذا هو معنى الاستخلاف في ميدان الثروات والأموال..

وعن هذا المعنى.. وعن هذه الفلسفة حدث ويحدث انحراف الحضارات المادية، تلك التي جعلت الإنسان سيد الكون ذا الحرية المطلقة.. فأطلقت العنان لحرية تملكه في الثروات والأموال- فردا في الليبرالية الرأسمالية.. وطبقة بروليتاريا- أو حزبها- في الشمولية الشيوعية-.. وكذلك يأتي الانحراف النقيض في الفلسفات الباطنية، التي تدعو الإنسان -بالجبر وزهد الدراويش - إلى أن يدير ظهره لعالم الثروات والأموال؟!.

وبين هذين الانحرافين، تقف فلسفة الإسلام ووسطيته، كما تمثلت في نظرية الاستخلاف.

وهناك ميدان آخر،

□ خلافة الإنسان في الأرض ليعمرها بشرع الله من غير طغيان ولا تجبر..

□ في الحضارة الإسلامية الإنسان هو خليفة سيد الكون - الله سبحانه - وفي الحضارة الأوروبية الإنسان هو ذاته سيد الكون..

□ في الفلسفة المادية حرية الإنسان فوق كل المحرمات.. وفي الفلسفة الباطنية لا حرية للإنسان..

- الحضارة المادية تستشير هدايتي العقل وتجارب الحواس..

- الحضارة الإسلامية تهتدي بالوحي الإلهي والعقل والوجدان

يتجلى فيه تميز فلسفة الاستخلاف الإسلامية، عن غيرها من الفلسفات ألا وهو علاقة "الدين" بـ"الدولة"..

فلأن الإنسان خليفة عن الله، سبحانه وتعالى، وهو حر، الحرية المحكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف.. كانت "الدولة"، التي هي إنجاز بشري، ومؤسسات مدنية، محكومة- في الرؤية الإسلامية بالمرجعية الإلهية، أي بالشريعة، التي هي وضع إلهي.. فالشورى البشرية تقيم "الدولة" المحكومة. بالشريعة "الدينية".. فتتوافق فيها وتتآخى: سلطة الأمة المحكومة بسيادة الحاكمية الإلهية. في التشريع.. ويبدع فيها الفقهاء فقه المعاملات -"الفروع"- المحكوم اجتهادهم فيه بثوابت "الأصول" والأحكام الإلهية... وبهذا كان نموذج الدولة الإسلامية -دولة الخلافة- متميزا عن "دولة الكهانة" -دولة الحكم بالحق الإلهي.. والتفويض الإلهي- التي جعلت "الدولة" "دينا خالصاً"، فقدستها قداسة الدين، وثبتتها ثبات الوضع الإلهي.. كما تميز نموذج الدولة الإسلامية، كذلك، عن النموذج العلماني للدولة- والذي هو نقيض دولة الكهانة والتفويض الإلهي- فهو يفصل "الدولة" عن "الدين"، ويقطع صلات الشريعة بكل شؤون العمران..

وفي ضوء هذه الحقيقة.. حقيقة قيام دولة الإسلام على قواعد فلسفة الاستخلاف.. كانت تسميتها بـ"دولة الخلافة".. فرأسها -الخليفة- ليس -كالبابوية- نائباً عن الله.. لأن الاستخلاف هو للأمة -للإنسان- ورأس الدولة الإسلامية خليفة عن الأمة- ونائب لها- ووكيل عنها- وهي- أي الأمة- الخليفة عن الله.. ومن هنا كانت الأمة هي التي تختار خليفتها، وتبايعه، وتفوضه، وتراقبه وتحاسبه.. بينما هو- في دولة الكهانة- معصوم عصمة النائب عن السماء؟!

ولهذا المعنى -معنى الاستخلاف- في فلسفة الحكم بالدولة الإسلامية- جاء حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي يعلمنا تميز فلسفة دولة الخلافة عن فلسفات الدول التي سبقتها فيما تقدمها من شرائع وحضارات.. ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبى. وإنه لا نبي بعدي،

إنه سيكون خلفاء" رواه البخاري، وابن ماجه، والإمام أحمد- ففلسفة الخلافة الإسلامية هي فلسفة الاستخلاف!

وإذا كانت الفلسفات والحضارات المادية- ومنها الحضارة الغربية- قد حصرت سبل المعرفة للإنسان في هدايتي: العقل.. والتجارب التي يدركها الإنسان بالحواس.. فلقد كان ذلك بسبب غيبة فلسفة الاستخلاف عن هذه الفلسفات والحضارات المادية.. فلم تجعل للإنسان هدايات من خارج ذاته وخارج عالمه المحسوس، عالم الشهادة.. لأنها رأته سيد وجوده، وليس خليفة عن إله مفارق لهذا الوجود، ومنزه عن التلبس والحلول والاتحاد بهذا الوجود..

أما في الرؤية الإسلامية -المؤسسة على فلسفة الاستخلاف- لسبل المعرفة الإنسانية، فإنها- على حين لا تنتقص من قدر ومكانة هدايتي "العقل" و"الحواس" فإنها تضيف إليهما.. وأيضاً تضبطهما.. تضيف إليهما هداية "الوحي الإلهي" الذي يتجلى في "البلاغ القرآني" وفي "البيان النبوي لهذا البلاغ"- السنة النبوية- باعتبار هذا "الوحي" هداية إلهية للإنسان، من قبل صاحب العلم الكلي والمحيط، سبحانه وتعالى، يحمل إلى الإنسان أنباء عالم الغيب والأحكام التي لا يستقل العقل الإنساني بإدراكها، ولا تدخل تحت إدراك الحواس الإنسانية وتجاربها.. فهذا العقل وهذه الحواس نسبية القدرات والإدراك، تبعاً لنسبية قدرات الإنسان.

كما تضيف، أيضاً، إلى سبل المعرفة الإنسانية: هداية الوجدان.. ونور القلب، ذلك الفقه الذي لا يأتي ثمرة لا للعقل ولا للحواس، وإنما هو لطائف إلهية وأنوار ربانية تشرق في القلوب!..

وهكذا تتأسس على فلسفة الاستخلاف الإسلامية نظرية متميزة في المعرفة، ترى الإنسان خليفة عن الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فمعارفه ليست واقفة فقط عند نطاق ما يدركه بذاته، وبتجارب حواسه في عالم شهادته.. وإنما لمعارفه هذه سبلاً أخرى قد وهبها له خالقه، الذي سواه، واستخلفه لعمران الوجود الذي يعيش فيه.

إذن.. ففي الدولة.. كما في الأموال والثروات.. كما في سبل المعرفة الإنسانية ومصادرها سبل وفي كل الميادين- تتجلى فلسفة الاستخلاف الإسلامية.. تلك التي تبدأ بتميز النظرة الإسلامية لمكانة الإنسان في الكون، ودرجته في سلم الموجودات..

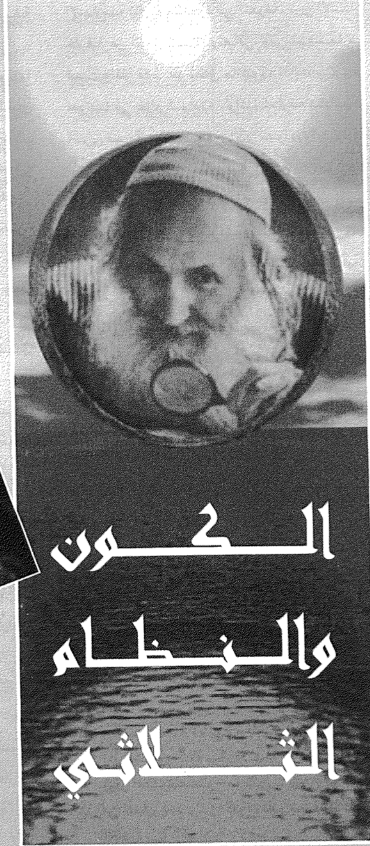
فالإنسان الخليفة، المالك لمؤهلات الاستخلاف.. وأيضاً المحكومة حرياته وقدراته وملكاته ببنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهي له- أي الشريعة الإلهية- هذا الإنسان الخليفة، هو الذي يجعل "الاستخلاف" فلسفة إسلامية تميز النسق الفكري الإسلامي عن غيره من الأنساق الفكرية في كل ميادين الحياة، كما تميز الحضارة الإسلامية، المصطبغة بصبغة الإسلام، عن غيرها من الحضارات المادية، التي انحرفت عن صبغة الله، وفطرته التي فطر الناس عليها ■

مراجع

دكتور محمد عمارة (معالم المنهج الإسلامي) طبعة دار الشروق- القاهرة- سنة ١٤١١هـ-١٩٩١م.

(فكر المسلم المعاصر- ما الذي يشغله؟)- لمجموعة من المفكرين- مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

الكون والنظام الثلاثي



□ إذا كان العالم اليوم لا يتحدث إلا بلغة الأرقام، فإن هذه الأخيرة كثيرة ولا تقتصر على نوع معين، وإنما على أنواع متعددة من بينها العدد ٣ (الذي هو موضوع بحثنا).

وللتعرف على النظام الثلاثي ودوره في بناء هذا الكون، سواء كان كونا ماديا أو روحيا، قمنا بتقسيم بحثنا إلى مجالات سميناها بالرحلات الكونية.

د. إدريس الخرشاف

- المغرب -

أولا: الرحلة الكونية الأولى
النظام الثلاثي ونشأة الكون
(١) بداية الكون

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق الكون، جعل من نقطة مادية صغيرة- ذات كثافة عالية وطاقة حرارية كبيرة- معجزته، فتفتقت وخرج منها هذا الكون المشاهد، وهو ما يعرف علمياً بنظرية الانفجار الأعظم (*BIG BANG*) مصداقا لقوله تعالى: {أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما} (الأنبياء- ٣٠).

فمن جراء هذا الانفتاق تولدت أو خلقت ثلاثة أشياء:

- السماوات - الأرض- ما بينهما.

مصداقاً لقوله تعالى:

{الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام} (الفرقان- ٥٠).

وهناك آيات أخرى تتحدث عن الثلاثية: السماوات والأرض وما بينهما..

- ثم إن الخلق ثلاثي النظام، إذ أن لفظته مشكلة من الأحرف: خ- ل-ق.

عدد أيام خلق الكون

إن عدد أيام خلق السماوات والأرض ومابينهما هو ستة أيام: (٢×٣=٦) (مضاعفات العدد ٣) مصداقاً لقوله سبحانه:

{إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام} (يونس-٣).

عدد السماوات والأرض وما بينهما

عبارة عن ٧ سماوات و٧ أرضين وما بينهما ٧، فتكون تمثل العدد ٣×٧=٢١ مصداقا لقوله تعالى في الآية:

{الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن} (الطلاق-١٢).



عدد الشهور

ثم إن عدد الشهور عند الله اثنا عشر شهراً. وهو يمثل مضاعفات العدد ٣ (٣×٤=١٢). مصداقاً لرب العالمين:

{إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً} (التوبة-٣٦).

(٢) مراحل الكون

يمر الخلق من بدايته إلى نهايته بثلاث مراحل، وهي:

- **الفتق** (الانفجار الأعظم) الآية الكريمة (الأنبياء-٣٠).
- **التمدد** (تمدد الكون) مصداقاً لقوله سبحانه: {والسماء بنيناها بأيد وإنَّا لموسعون} (الذاريات-٤٧).
- **الانكماش**: (نظرية الطي: ***BIG CRUNCH***).

حيث يقول سبحانه:

{يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب} (الأنبياء-١٠٤).

وهكذا نجد أن مراحل الكون ثلاثة.

(٣) طبيعة المخلوقات الكيميائية

- طبيعة المادة: يوضح لنا رب العالمين طبيعة المخلوقات الكونية التي ستوجد على وجه البسيطة (والتي أثبتت تجريبيا)، أن أصلها من ماء، مصداقاً لقوله تعالى:

{وجعلنا من الماء كل شيء حي} (الأنبياء-٣٠).

وهنا تساءل الإنسان وبدأ يبحث عن تكوين المخلوقات، وبعد بحث وجهد متواصل، توصل إلى حقيقة مذهلة ألا وهي أن الماء يعتبر عنصر الحياة في كافة المخلوقات، وعندما بحث في تركيب الماء وجده عبارة عن اتحاد ذرتين من الهيدروجين (*H2*) وذرة

أوكسجين (*O2*) أو بمعنى آخر كما هو معروف (*H2O*) فهذا العنصر الذي يعتبر مادة الحياة لكل المخلوقات الحية، له تركيب كيميائي ثلاثي الذرة.

نتيجة: مادة الحياة لها نظام ثلاثي.

- أشكال المخلوقات (الدابة): إن الدابة المخلوقة تكون على ثلاثة أشكال، حسب ورودها في القرآن الكريم، فهي إما:

- تمشي على بطنها؛
- أو تمشي على رجلين؛
- أو تمشي على أربع.

استناداً لقوله تعالى:

{فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع} (النور- ٤٥).

وهذا النظام الثلاثي يظل ثابتاً مهما كانت المنطقة المدروسة، سواء كان ذلك على أرضنا أو في عوالم أخرى.

نوعية المادة: إن وجود المادة في الطبيعة تكون على إحدى الأشكال الثلاثة الآتية:

- إما جامدة؛
- أو سائلة؛
- أو غازية؛

وهو نظام ثلاثي كذلك.

ثانياً: الرحلة الكونية الثانية

النظام الثلاثي في خلق البشرية

خلال هذه الرحلة، نستعرض الأطوار التي مررنا بها في بطون أمهاتنا، ثم في الحياة الدنيوية والأخروية.

(١) مراحل الإنسان

إن مراحل الإنسان الرئيسية تتكون من ثلاثة أطوار:

- من العدم إلى الحياة: مصداقاً لرب العالمين حينما يقول: {أَوَلاَ يذكر الإنسان أنَّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً} (مريم- ٦٧).

- من الحياة إلى الموت: {كل من عليها فان} (الرحمن- ٢٦).

- من الموت إلى الحياة الأخرى الخالدة: {يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً} (النبأ- ١٨).

والمراحل الثلاث تقدم في إبداع تام من خلال الآية الكريمة:

{كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم} (البقرة-٢٨).

إنها تسلسل الحياة الزمني، من الدنيا إلى البرزخ (حياة القبر، ومن البرزخ إلى الآخرة).

كما أن الحياة الدنيوية تمثل محصلة نظام ثلاثي المراحل، وكل مرحلة تعطي مرحلة لاحقة في يسر وسهولة، إذ نجد الإنسان يبتدئ من الأصل الترابي إلى يوم بعثه مروراً بالقبر استناداً لقوله تعالى:

* {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين}.
* {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين}.
* {ثم خلقنا النطفة علقة}.

* {فخلقنا العلقة مضغة}.
* {فخلقنا المضغة عظاماً}.
* {فكسونا العظام لحماً}.
* {ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين}.
* {ثم إنكم بعد ذلك لميتون}.
* {ثم إنكم يوم القيامة تبعثون}. (المؤمنون-١٦).

وهذا يطابق مسيرة الإنسان المذكورة سابقاً، وهي نظام ثلاثي كذلك.

ثم إن الحياة الدنيوية الأولى (البيولوجية): النطفة - العلقة - المضغة - العظام - اللحم - الخلق الآخر، تمثل نظاما ثلاثياً كذلك.

(٢) أطوار الخلق الإنساني.

فضاء الجنين البيولوجي

من خلال إطلالة سريعة على مكان الجنين، نجد أن المخلوق يترعرع في بطن أمه داخل ثلاثة أغشية، مصداقا لقوله سبحانه:

{يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث} (الزمر-٦).

إنه لمذهل أن البشرية لم تعلم شيئاً عن هذا الجدار إلا في العشرين سنة الأخيرة.

ملحوظة: إن وجود الظلمة مهم جداً في نمو الجنين، حيث وجد أن الضوء يعيق مراحل النمو المختلفة.

نتيجة: فضاء الجنين ثلاثي.

- مراحل الجنين: مرحلة النطفة: وقد وردت لفظة النطفة في كتاب الله اثني عشر مرة: ٣×٤=١٢.

نتيجة: نظام ثلاثي.

- أشكال النطفة ثلاثة:

نطفة الذكر ـ نطفة الأنثى- نطفة الأمشاج، فهو نظام ثلاثي كذلك.

ولقد وردت بدورها ست مرات في القرآن الكريم: ٢×٣=٦.

معنى ذلك أن لها نظاماً عددياً ثلاثياً.

- المضغة: وردت كذلك ثلاث مرات، فلها نظام عددي ثلاثي أيضاً.

- العظام: وقد وردت في القرآن الكريم خمس عشرة مرة ٣×٥=١٥. فإذن النظام العددي، نظام ثلاثي.

- اللحم: وردت اللفظة ١٢ مرة؛ ٣×٤=١٢ وهو نظام عددي ثلاثي.

أما لفظة اللحم المتعلقة بالإنسان فقد وردت ثلاث مرات.

(٣) المدة الزمنية لخلق الإنسان.

إن المدة الزمنية لخلق الإنسان تخضع بدورها لنظام ثلاثي، استناداً للتعاليم السماوية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها، وهي كالآتي:

- {حمله وفصاله ثلاثون شهراً} فهو نظام ثلاثي: ٣×١٠ يوماً.

- {حملته أمه وهناً على وهن وحمله وفصاله في عامين} (لقمان-١٤) ٣×٨=٢٤ شهراً.

(٤) وضعية الإنسان في الحياة الدنيوية

- "لا يعلم شيئاً".
- "يسعى في الأرض".
- "لا يعلم شيئاً" (أرذل العمر).

وهي وضعية ثلاثية النظام.

هذه المراحل الثلاث، تجد تقابلاً لها في الآيات الأخرى التي هي بدورها تستند على نظام ثلاثي من خلال الآية (الحج-٥١٤):

١- {من نطفة}.

٢- {من علقة}.

٣- {من مضغة مُخَلَّقة وغير مُخَلَّقة}.

٤- {يخرج الإنسان طفلاً}.

٥- {يبلغ أشده}.

٦- {منهم من يُتَوفَّى ومنهم من يُرَدّ إلى أرذل العمر}.

وهو نظام ثلاثي ٣×٢=٦.

(٥) الحياة البرزخية

عندما يموت الإنسان ويُسأل، فإنه يعيش بأعماله في الحياة الدنيا وهو في قبره، حسب الحديث النبوي الشريف: "إذا مات امرئ انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

فهذا بدوره يمثل نظاماً ثلاثياً.

(٦) الحياة الأخروية

حينما نتكلم عن الحياة فإنه يجب فهمها بوضعين:

- **الوضع الأول**: الحياة المادية التي تسري في البدن، وتولد له الحركة والإحساس والفكر والتدبر.
- **الوضع الثاني**: الحياة الأخروية وهي أعظم من الحياة الدنيوية، معنى ذلك أنها الحياة الحقة التي لا تنتهي الأبدية.

وبما أن الحياة الدنيوية تقاس بأعمال الإنسان، ولا تقاس بعمر الناس جميعاً، فهي حياة فانية من جهة، ولها نظام ثلاثي كما مر معنا سابقاً.

أما الحياة الأخروية، فهي بدورها لها نظام ثلاثي، لأن الإنسان سيخضع لإحدى المسالك الآتية. إما سيكون:

١- من "أصحاب الميمنة".

٢- أو من "أصحاب المشئمة".

٣- أو من "السابقون (المقربون في جنات النعيم)"

وهو نظام ثلاثي كذلك.

ثالثا الرحلة الكونية الثالثة

وتتعلق بالرسالة المحمدية، وحتى تجري سنة الله في الكون فإن الله سبحانه كلف الإنسان بالعبادة

وهي أمر مضاف إلى سطور هذا الكون، تخدم الإنسان لتمديد آياته من الحياة الفانية إلى الحياة الحقة الخالدة السعيدة إن شاء الله.

لذلك أنزل الله كتابه على البشرية ليكون هداية وسعادة في الدارين الدنيوية والأخروية. فما هي تركيبة نظام القرآن الكريم؟ وما هي أنظمة التعاليم الإسلامية السمحاء؟

(1) تركيبة القرآن الكريم

إذا كانت معجزة الأنبياء السابقين الدالة على الدعوة للإيمان بالله تحدث في زمنهم، وكانت أمراً خارقاً للقوانين، فإن المعجزة التي أتى بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، معجزة لها صفة الاستمرار ما بقيت الحياة، مخاطبة كل عالم، وفي كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

بناء على ما تقدم، ألا يحق لنا معرفة كتاب الله ودراسته دراسة علمية وافية بالأدوات الثلاث السمع والبصر والفؤاد (نظام ثلاثي)، مصداقاً لقوله تعالى:

{ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا} (الإسراء-٣٦).

فلمعرفة محاور القرآن الكريم، كان لابد لنا من استخدام الحاسوب والعلاقات الرياضية، فكانت النتيجة مدهشة. إذ أننا توصلنا من طرف الحاسوب لتركيبة القرآن الكريم، وكانت مُشكَّلةً من ثلاثة أقسام رئيسية:

- **القرآن المكي**: يحتوي على الأرباع التي تتحدث عن آيات الله الواضحة في الكون.

- **القرآن المدني**: وهو قسم يتعلق بالآيات التي ترشد الإنسان وتوجهه لطاعة الله، وحث الناس على المعاملات وتطبيق الفرائض (صلاة- زكاة- صيام- حج- شهادة).

- **القرآن التاريخي (التربوي)**: وهو القسم المتعلق بسيرة الأنبياء وقصصهم، حيث تكون وضعيتهم الهندسية هي المنطقة الوسطى بين القرآن المكي والقرآن المدني.

إذن تركيبة القرآن الكريم لها نظام ثلاثي.

الرسالة المحمدية: نجد كذلك في الرسالة المحمدية، عندما جاء سيدنا جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وبدأ يسأله، كانت الأسئلة ترتكز على ثلاث قضايا جوهرية: **الإسلام- الإيمان- الإحسان**.

فهي تشكل نظاماً ثلاثياً.

من هنا نستنتج حقيقة أساسية، ألا وهي أن هذا التجانس في الكون، سواء كان في العالم اللامتناهي في الكبر أو اللامتناهي في الصغر وعلى مر الأحقاب، ليدل دلالة قاطعة على أن لهذا الكون خالقاً، وأن هذا الخالق وحيد، لأنه لو وجد أكثر من خالق واحد لما حصلنا على هذا التجانس العظيم، وصدق رب العالمين حينما قال:

{لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} (الأنبياء- ٢٢).

ولاريب إذن، أن الكلمة المؤمنة إذا صادفت قلوباً طاهرة كانت عليها برداً وغيثاً نافعاً.

رابعاً الرحلة الكونية الرابعة
المسيرة الإسلامية

(١) **التنزيل**: نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للقرآن ثلاثة تنزيلات:

- **التنزيل الأول**: كان من عند الله تعالى إلى اللوح المحفوظ، مصداقاً لقوله تعالى:

{بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ} (البروج- ٢٢).

- **التنزيل الثاني**: من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى:

{إنا أنزلناه في ليلة مباركة} (الدخان- ٣).

- **التنزيل الثالث**: نزل منجما على النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) الوحي ومراحله الثلاث

- **اللفظة المستعملة**: نلاحظ أن أول لفظة ابتدأ بها الوحي الرباني، والتي شكلت الشرارة الأولى لانطلاق المسيرة الإسلامية المظفرة كانت لفظة "اقرأ"، هذه اللفظة رياضيا مُشكَّلة من ثلاثة أحرف.

* الألف: ا

** القاف: ق

*** الراء: ر.

(لأنه لا يمكننا حسب نظرية المجموعات ذكر عنصر المجموعة أكثر من مرة واحدة).

فالوحي ابتدأ بلفظة ثلاثية (ق-ر-أ) لها مغزى عميق.

- **البلاغ**: ثم إن الرسالة تكررت على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، كان الرسول في كل مرة يرد عليها بعدم حسن القراءة. (ما أنا بقارئ).

فنظام البلاغ نظام ثلاثي أيضاً.

- **الآية الأولى**: إذا قمنا بإحصاء أحرف الآية الأولى الكريمة

{اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم} (القلم ١-٦).

نجدها تساوي بدورها ٣×٢٦=٧٨ وهو نظام ثلاثي.

(٣) **نزول الوحي**: نزل القرآن في ليلة مباركة، إنها ليلة القدر، ولقد وردت في القرآن الكريم ثلاث مرات:

- {إنَّا أنزلناه في ليلة القدر}.
- {وما أدراك ما ليلة القدر}.
- {ليلة القدر خير من ألف شهر} (القلم ١-٢-٣).

(٤) التعليمات السماوية

بعد ذلك جاءت سورة المدثر لتضيف نوعاً آخر لمسؤولية الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يقول سبحانه:

{يا أيها المدثر}:

أ- {قم فأنذر}.

ب- {وربك فكبر}.

ج- {وثيابك فطهر}

د- {والرجز فاهجر}

هـ- {ولا تمنن تستكثر}.

ر- {ولربك فاصبر} (المدثر ١-٢-٣-٤-٥-٦-٧).

وهو نظام تعليمي ثلاثي ٢×٣=٦.

(٥) القرآن الكريم

- كل سور القرآن الكريم تحتوي على الآية الكريمة:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

فهي من جهة تبتدأ بلفظة الجلالة الثلاثي: الله هو الرحمن هو الرحيم، ومن جهة أخرى، فإننا نجد عدد سور القرآن الكريم ٣×٣٨=١١٤.

- ثم إن لفظة الرحمن قد ذكرت في القرآن ٥٧ مرة =٣× ١٩.

ولفظة الرحيم قد ذكرت في القرآن ١١٤ مرة ٣ × ٣٨.

كما أن الرحمن= الر+حم+ن= ٣+٢+١=٦ أحرف لفواتح السور، وبدون تكرار.

تعريف القرآن

إن تعريف القرآن الكريم له نظام ثلاثي، حسب قول معلمنا، رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "إنها ستكون فتن، قلنا فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله:

- فيه نبأ ما قبلكم.

- وخبر ما بعدكم.

- حكم ما بينكم.

فهو نظام ثلاثي.

تركيب القرآن

إن القرآن الكريم مؤلف من: ١١٤ سورة= ٣×٣٨.

٦٠ حزبا: ٣×٢٠.

٣٠ جزءاً: ٣×١٠.

ملحوظة: هناك من يقول: إن هذا تقسيم إنساني، فلماذا نربط ذلك بماهية القرآن الكريم وتركيبه؟

ونرد على ذلك بقولنا: إن هذا التقسيم جعله الله بهذا الشكل عن طريق الإنسان، ليكون في تجانس تام مع نظامه، شأنه في ذلك شأن طوفان الحاج حول الكعبة من اليسار إلى اليمين، لأن في ذلك حكمة إلهية تمثل اتجاه النظام الكوني.

(٦) قصص القرآن

إن أحسن قصص القرآن الكريم هي قصة سيدنا يوسف عليه السلام بصريح الآية الكريمة:

{نحن نقص عليك أحسن القصص}(يوسف-٣).

ميزة هذه السورة أنها ثلاثية البنيان والشكل والمضمون، فهي:

- **فاتحتها** أو بدايتها هي: الر، وهي مؤلفة من ثلاثة أحرف ٣×١.

- **رقمها** يحمل رقم ١٢ = ٣×٤.

- **عدد آياتها** يبلغ ١١١ آية باتفاق جميع العلماء= ٣×٣٧.

- **بنيتها** الرياضية ثلاثية كذلك، لأنها تعطينا صورة واضحة المعالم لمحنة سيدنا يوسف عليه السلام في الحالات الآتية:

أ- محنة يوسف- عليه السلام- مع إخوته (رميه في البئر).

ب- محنة يوسف مع (رميه في السجن).

ج- ثم تقلده لزمام خزانة الدولة بمصر (الرؤيا الصادقة).

- **مضمونها**: عن النبي صلى الله عليه وسلم (تفسير ابن كثير) يقول: "علموا أرقاكم سورة يوسف"، فإنه:

- "أيما تلاها

- أو علمها أهله

- أو ما ملكت يمينه

هون الله عليه سكرات الموت".

فمضمونها نظام ثلاثي.

(٧) الإسلام

زيارة سيدنا جبريل ـ عليه السلام- للنبي صلى الله عليه وسلم: نلاحظ أن في هذه الزيارة، وقعت مناقشة القضايا الثلاث:

(إذا قرأنا أركان الإسلام الخمسة، وجدناها مؤلفة -رياضيا- من ست قضايا (نظام ثلاثي).

- شهادة أن لا إله إلا الله.

- وأن محمداً رسول الله.

- إقام الصلاة.

- إيتاء الزكاة.

- صوم رمضان.

- الحج لبيت الله الحرام.

(٨) الإيمان

هو الآخر يرتكز على نظام ثلاثي، إذ أن الإيمان (حسب الحديث النبوي الشريف) هو أن تؤمن:

- بالله.

- وملائكته.

- وكتبه.

- ورسله.

- واليوم الآخر.

- وبالقدر - خيره وشره-.

فهو نظام ثلاثي كذلك ٦ = ٢×٣.

ثم إن الأشخاص الذين يتذوقون حلاوة الإيمان هم الذين يتمتعون بالخصال الثلاثة الآتية:

* أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

** أن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى.

*** وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار (متفق عليه: البخاري ومسلم).

وهذا نظام ثلاثي كذلك.

(٩) الإحسان

إنه إخلاص النية لله ومراقبته.

وهكذا نجد في الإحسان النظام الثلاثي كذلك، الذي يظهر في الآيات الكريمة، مصداقاً لقوله تعالى:

{ومن أحسن دينا ممن:

- أسلم وجهه لله وهو محسن.

- واتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

- واتخذ الله إبراهيم خليلاً. (النساء-١٢٥).

وهناك آية أخرى كذلك:

"ومن أحسن قولاً ممن:

* دعا إلى الله.

** وعملا عملاً صالحا.

*** وقال إنني من المسلمين. (فصلت-٣٣).

وكلها آيات لها نظام ثلاثي.

(١٠) طبيعة الدين الإسلامي

إنه دين وسط وليس فيه إفراط ولا تفريط.

مصداقاً لقوله تعالى:

{وكذلك جعلناكم أمة وسطا} (البقرة-١٤٣).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا إفراط ولا تفريط" فهو نظام ثلاثي أيضاً.

(١١) منهج الدعوة للدين الإسلامي

إن منهج الدعوة لديننا الحنيف يرتكز على نظام ثلاثي:

- العلم.

- البراهين والحجج الدافعة.

- المناقشة الهادفة.

مصداقاً لقوله تعالى:

ادع إلى سبيل ربك:

أ- بالحكمة.

ب- والموعظة الحسنة.

ج- وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل-١٢٥).

وهو نظام ثلاثي.

ويبقى السؤال المطروح هو: ما هو هذا العلم؟

يجيب على ذلك رسولنا الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين يقول:

أ- آية محكمة.

ب - أو سنة قائمة

جـ - أو فريضة عادلة.

(١٢) الصلاة

ثم إن نظام الصلاة ثلاثي التركيب كذلك، حيث نجدها ممثلة على الشكل الآتي:

أ- صلاة قبلية: صلاة النهار (الظهر والعصر).

ب- صلاة وسطى: صلاة ما بين النهار والليل (صلاة المغرب).

جـ- صلاة بعدية: صلاة الليل (العشاء والفجر).

استناداً لقوله تعالى:

{حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى} (البقرة-٢٣٨).

فإنها تركيبة إذن ثلاثية توافق الحركة الكونية (بالنسبة للشمس).

خامساً: الرحلة الكونية الخامسة

القرآن الكريم والرسول محمد صلى الله عليه

وسلم. وسنعطي فيها نموذجاً مصغراً لأن المجال لا يتسع لذلك (خاصة وأن هناك أكثر من ٢٠٠ صفحة تتحدث عن ذلك).

والنموذج الذي نذكر مقتطفات منه هو لرسولنا المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

(١) إذ يقول سبحانه: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن:

(أ) كان يرجو الله.

(ب) واليوم الآخر.

(جـ) وذكر الله كثيراً" (الأحزاب -٢١٩).

وهذا يمثل نظاماً ثلاثياً.

(٢) ويحدثنا الحق سبحانه وتعالى عن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يقول:

"ما كان محمد

(أ) أبا أحد من رجالكم

(ب) ولكن رسول الله

(جـ) وخاتم النبيين" (الأحزاب- ٤٠).

وهو نظام ثلاثي كذلك.

- ويقول سبحانه كذلك:

"لقد جاءكم رسول من أنفسكم:

١- عزيز عليه ما عنتم.

٢- حريص عليكم.

٣- بالمؤمنين رؤوف رحيم" (التوبة- ١٢٨).

وهو نظام ثلاثي.

(٣) ويقول سبحانه لرسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام:

"يا أيها النبي إنا أرسلناك

أ- شاهداً

ب- ومبشراً.

ج- ونذيراً.

د- وداعيا إلى الله بإذنه.

هـ- وسراجاً منيراً.

(وبشر المؤمنون بأن لهم من الله فضلاً كبيرا)

و- ولا تطع الكافرين.

ز- والمنافقين.

ح- ودع أذاهم.

ط- وتوكل على الله" (الأحزاب-٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨).

وهو نظام ثلاثي كذلك.

(٤) ويقول كذلك:

"ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك:

(أ) فاعف عنهم

(ب) واستغفر لهم.

(جـ) وشاورهم في الأمر". (آل عمران- ١٥٩).

وهذا يمثل نظاماً ثلاثياً كذلك:

وهذا النظام الموحد إن دل على شيء فإنما يبرهن ويوضح للملأ أن الكونين المقروء والمشاهد لهما نظام واحد، وهذا يدل على وحدانية خالقهما.

وصدق الحق سبحانه وتعالى حينما يقول:

{أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون} (النمل-٦١).

وفي ذلك ذكرى وموعظة، وهدى لقوم يعقلون ويتفكرون ■

مسيرة العلم الحديث من جمال الكون إلى الايمان بالخالق سبحانه

كانت النظرة العلمية القديمة قبل القرن العشرين قبل نظريتي النسبية والكوانتم، كانت ترى أن لا جمال في الكون، إنما نحن الذين نضفي الجمال على الأشياء من ذواتنا أو عقولنا...



ثم يجيء القرن العشرين فنجد العالم يأخذ بيد الإنسان إلى نور الإيمان بالخالق الموجد المدبر سبحانه وتعالى.

وإذا كان الجمال يقوم على صفات ثلاث أساسية::

البساطة والتناسق والروعة، فإن مكتشف نظرية النسبية عالم الفيزياء اينشتين يقول إنه لا علم من غير اعتقاد بوجود تناسق داخلي في الكون، ويقول فينمان (في الطبيعة بساطة ومن ثم جمال عظيم)، يؤكد علماء الطبيعة الآخرون أن كل قانون من قوانين الفيزياء مرده إلى شيء من التماثل في الطبيعة، وهم يؤمنون بأن عالم الفيزياء... العالم بحق يؤمن إيمانا راسخا ببساطة الطبيعة وبوحدتها رغم أي ظواهر معاكسة يقول أحد هؤلاء العلماء (كلنا نحس بجمال الطبيعة، وليس مما ينافي العقل أن تشترك العلوم الطبيعية في بعض جوانب هذا الجمال) وهذا يعني أن الطبيعة هي مصدر الجمال وهي زاخرة بصور الجمال والبساطة والروعة والتناسق.

نحن نظن أن العلماء يدرسون الطبيعة لسبب واحد هو التحكم فيها وتحقيق منافع منها، والحق

د. عبدالرزاق حجاج محمد

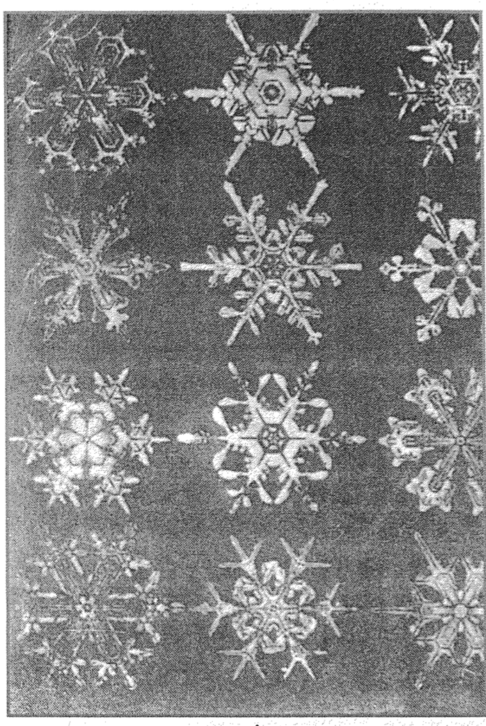
- مصـــر -

أن هناك سببا آخر : ذلكم هو أن العالم إنسان، والإنسان بخلقته وتكوينه محب للجمال. يقول هنري بوانكاريه: العالم لا يدرس الطبيعة لأن في دراستها منفعة لكنه يدرسها لأنه يجد متعه في ذلك، وهو يجد في دراستها متعة لأنها جميلة. ولو لم تكن الطبيعة جميلة لما كانت جديرة بأن تعرف، ولا كانت الحياة جديرة بأن نعيشها.

نعم: إن الكون يزخر بالجمال، فليست الصورة الحسنة والاتساق بين الوظيفية والجمالية وقف على الانسان، وإنما هما في الجمادات وفي الأنعام وفي الطيور وفي الماء والنهر والبحر والشجر والشفق والفلق.

وفي عالم الجماد تقدم الجيودات والأحجار الكريمة البلورات جمالا في التناسق واللون والإشراق لا يمكن إنكاره، (والجيود Geod حجر ذو تجويف مبطن ببلورات أو بمادة معدنية ويسمى أيضا حجر النسر) وتقدم الندف الثلجية، مثالا واضحا لهذا الجمال والشكل التالي يوضح

على ألفي شكل لندف ثلجية بذل د.أ بنتلى طوال مدة تقرب من خمسين عاما غاية جهده وعنايته في تصويرها وجمعها، وراح مصممو المنسوجات والفنانون يستوحون الأفكار من فهرس الندف الثلجية الذي وضعه بنتلى، ويستعينون بما يمكن أن نسميه معرض الطبيعة الدائم للزخرفة التوشيحية وتصاميم الجواهر والحلى.



من كتاب (العلم في منظورة الجديد) نُدَف الثلج

التنوع المدهش في أنماط الندف الثلجية وكلها تستند إلى الشكل السداسي والاثنتا عشرة ندفة مأخوذة عن كتاب (البلورات الثلجية) الذي يحتوي

والعلم في تقدمه وتقدم ودقة آلاته ووسائله يلتقي مع الإيمان بالله خالقا موجدا مصورا، كان الحديث في أوربا وحتى القرن التاسع عشر ميالا للحديث عن آليات الطبيعة وعن القول بالضرورة وأن الجمال المنبعث من أرجاء الكون إنما هو

نتيجة للقوانين الفيزيائية للطبيعة فحسب، فأصبح العلم في القرن العشرين متجها إلى الايمان بخالق موجد لهذا الجمال وغدونا نقرأ قول العلماء: ليست هناك أيه ضرورة مطلقة تفرض في المقام الأول أن تشتمل القوانين الفيزيائية للطبيعة على البساطة والتناسق، ولنا أن نتصور كونا آخر ذا قوانين طبيعية وغير متماثلة ومعقدة لغير ضرورة ينتج ندفا ثلجية بشعة بضرورة ميكانيكية. الضرورة لا تفسر إذاً الجمال الذي نجده في الجوامد. ولا كذلك جمال النباتات والحيوانات. حقا إن أوراق الشجرة ضرورية لها لإنتاج طعامها، لكن هناك الشيء الكثير، في شكل الورقة وخطوطها، مما ليس تكيفا مع البيئة، ومتطلبات التخليق الضوئي تفسر سبب وجود الأوراق على الشجرة في المقام الأول، لكنها لاتفسر سبب اختلاف ورقة القبقب عن ورقة البلوط.

كذلك يرفض العلم الحديث تفسير الجمال عن طريق الصدفة، لأن هذا يستلزم أن يكون الجمال نادرا لكنه في الواقع بالغ الوفرة شديد الوضوح، يقول أحد الباحثين (كل ما يمكن العثور عليه في الطبيعة، تقريبا، يكشف عن شيء من الجمال، من ذلك مثلاً أن جميع الحيوانات تقريباً تكشف عن شيء من التناسق).

يشير إلى ذلك عالم الأحياء بورتمان. ويكشف المجهر عن الهندسة الخفية لتركيب الخلايا في ورقة عشب واحدة، وفي صالات العرض والمتاحف صور لأجزاء من النبات التُقطِت لجمالها الفتان بالمجاهر العادية وبمجاهر المسح الالكتروني .

وينتهي العلم الحديث إلى أن الله هو خالق كل صور الجمال في الكون والحيوان والنبات والإنسان.

نعم الإنسان الذي قال عنه الحق سبحانه (وَصوَّركم فأحسنَ صُوركم وَرَزَقَكُم من الطيبات) آية ٦٤ سورة غافر.

(يا أيها الإنسان ماغَرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء رَكَّبك) الآيات ٦ ـ ٨ سورة الانفطار.

المنفعة أو الوظيفة واضحة في كل عضو من أعضاء الإنسان، خذ مثالا واحداً: الأصابع وما تحققه من فوائد عديدة وهي في الوقت نفسه جميلة، انظر إلى تعدد ماتقوم به من حركات ثم تأمل تناسقها وانسيابيتها.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وبث في كل جنباته الجمال، فالأنعام جميلة.. جميلة في ثغائها وتعدد أصواتها وبهاء ألوانها.. يقول الحق سبحانه (لكم فيها جمال حين تريحون، وحين تسرحون) آية ٦ سورة النحل وجعل لنا من الدواب زينة وبهجة (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) الآية ٨ سورة النحل.

وفي كواكب السماء زينة (إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب) آية ٦ سورة الصافات. وفي الجبال وألوان صخورها جمالٌ وبهجة للناظرين.

يذكر الحق سبحانه هذا الجمال بين تعدد ألوان ثمار الأرض واختلاف ألوان الناس والحيوان (ألم تر أنَّ الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفا ألوانُها ومن الجبال جددٌ بيض وحمرٌ مختلف ألوانُها وغرابيبُ سود، ومن الناسِ، والدوابِ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) آية ٢٧/٢٨ سورة فاطر.

ويذكر زينة السماء مع بهجة مايخرج من الأرض (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) آية ٦، ٧ سورة ق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما (ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكنْ عروق في الأرض تغيره، ثم يخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع المختلفة الأشكال والألوان من أحمر وأبيض وأصفر والمختلفة الأصناف.

الكون جميل، وكل مافي الكون جميل، لأنه مخلوق بموازين دقيقة.. كل شيء في الكون موزون .. محسوب مقدر (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) آية ١٩ سورة الحجر.

(إنا كل شيء خلقناه بقدر) آية ٤٩ سورة القمر (... ماترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور) آية ٣ سورة تبارك.

وقد سجل العلم الحديث هذه الموزونية، يقول عالم الفيزياء ويلر إن كل قانون من قوانين الفيزياء مرده إلى شيء من التماثل في الطبيعة لا إلى تماثل عقولنا.

وهذا التماثل القائم في الطبيعة أو الموزونية إنما ترجع إلى دقة الخلق وبديع صنع الله، وهنا يحسن أن نذكر أمرا بديهيا لكنه يغيب أحيانا عن بعض الأذهان، وهو أن العلم اكتشاف وليس اختراعاً، العلم يكتشف موزونية الكون في كل مجال من مجالات العلم: الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء وعلم وظائف الأعضاء...الخ.

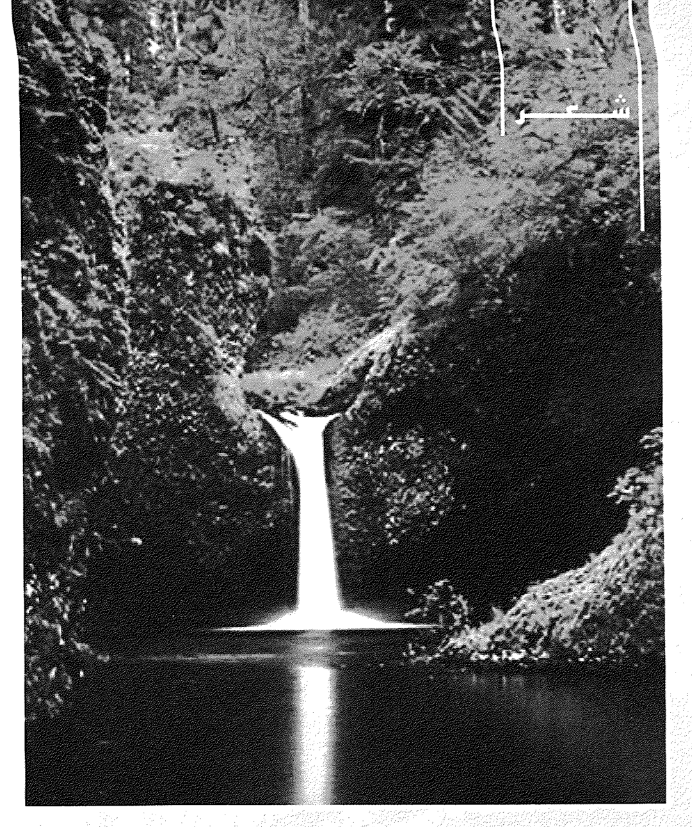
الكون مخلوق بقوانين وموازين، ثم تمر قرون يكتشف العلم خلالها هذه الموازين وعبر مراحل تطوره من الإغريق إلى علماء الغرب في العصور الحديثة مرورا بعصر الحضارة الإسلامية أو مايسمى في كتب مؤرخي الغرب (دار الحكمة)، فإرادة الله شاءت أن يصل الإنسان إلى العلم ببعض مافي الكون خلال قرون عدة، ولو أن الكون لم يكن موزونا ومقننا لما أمكن صياغة أيه قوانين سواء في صورة كيفية وصفية أو رياضية كمية.

نقرأ في كتاب: (الله يتجلى في عصر العلم) تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، تقريرات بأقلام متخصصين في مجالات عدة: في مجال الكيمياء نقرأ أن اكتشاف تركيب الذرة قد أثبت أن التفاعلات الكيموية التي نشاهدها والخواص التي نلاحظها ترجع إلى وجود قوانين خاصة، وليست محض مصادفة عمياء.

ويختم متخصص في علم الحيوان والحشرات حديثه بقوله (لا يتسع المقام لسرد أدلة أخرى لبيان الحكمة والتصميم والإبداع في هذا الكون، لكني وصلت إلى كثير من هذه الأدلة فيما قمت به من البحوث المحدودة حول أجنة الحشرات وتطورها، وكلما استرسلت في دراستي للطبيعة والكون، ازداد اقتناعي وقوي إيماني بهذه الأدلة. فالعمليات والظواهر التي تهتم العلوم بدراستها، ليست الا مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون ■

□ البساطة والتناسق والروعة. المكونات الجمالية الداخلية للكون..

□ العلم يكتشف الجمال ولا يوجده..



أسفر الصبح

سالم رزيق بن عوض

- السعودية -

أسفر الصبح! أسفر الكون سعدا
يتهادى يكاد يطوي الزمانا!

يمنح السادرين دربا ولونا
وقلوباً وأعيناً وأذانا!

وشعوراً مطرزاً بالأماني
وأماناً محلقا وبيانا!

يلتقي في مداه شوق تسامى
وعلى ناظريه يزهو منانا!

كم حنَنا إليه وهو جنين
في حشايا الظلام يهوى مدانا!!

كم هتفنا به! وكنا مناه!
وسبقنا إلى حماه خطانا!!

واختلفنا إلى الدروب نغني
ويغني فوق الغناء غنانا!!

ما لنا ننشد الوجود ويشقى
في تباريح عاشقيه شقانا!!

نحن كنا به وكنا وكنا
وأضاءت حين اللقاء يدانا!!

إيه يا ابن النهار دنياك ظمأى
فارويها زمزم الحياة حنانا!

واملأ الأرض والسماء أريجا
يتهادى على الدنى مهرجانا!

وامنح الروض والرياحين عمرا
تتسامى إلى سناك عيانا!

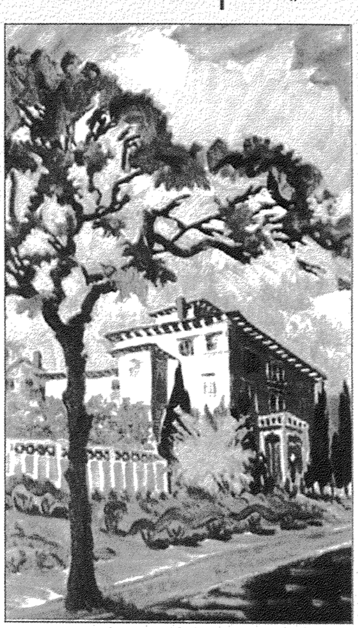
يسفح النرجس الجميل شذاه
وعلى وجنتيه شوق تداني!

يرتوي الكون من معانيك شهدا
وعبيراً وجذوة وجمانا!

فاملأ المشرقين نوراً ونوراً
وجمالا ورقة وافتتانا!!

قـــــراءة في
(مغاني اللوى)

□ "مغاني اللوى" للمعري قصيدة ذات مفردات غريبة، له فيها معجم خاص، إلا أنها تتزيّا بالمعاني والدلالات التي لا تكون إلا في فرائد القصائد. وليس غريباً، فهذا حال شعر المعري عموماً. ولذلك فقد نسجتُ قراءتها على منهج بلاغي ينبثق من وقع الوجود على الوجدان، باذلا وُسْعِي في قنص الفكرة الرئيسة، التي هي - عندي- العمود الفقري للنص، ثم التماهي مع اللحظة الإبداعية التي عاشها الشاعر زمن نسج قصيدته. حتى تمخضت لي- بعد قراءة متأنية- عن مقصدها، وكشفت النقاب عن وجهها، فتبرجت، فأسفرت، فوسمتها: بـ: الحنين إلى الشام في ظلال التعجب والإيهام.



الحنين إلى الشام في ظلال التعجب والإيهام

د. مشهور موسى مشهور

أستاذ البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية - جامعة الملك خالد (أبها)

نص القصيدة(١):

مغاني اللّوى من شخصكِ اليومَ أطلالُ
وفي النّومِ مغنى من خَيالكِ مِحلالُ

معانيكِ شتّى والعبارَةُ واحدٌ
فزَندكِ مُغتالٌ وطرفكِ مُغتالُ

وأبغَضتُ فيكِ النّخلَ والنّخلُ يانعٌ
وأعجبني في حبِّك الطّلحُ والضالُ

وأهوى لجَرّاكِ السماوةَ والقطا
ولو أنّ صِنفيهِ وُشاةٌ وعُذّالُ

حملت من الشامين أطيَبَ جُرْعةٍ
وأنْزَرها والقومُ بالقفرِ ضُلالُ

يَلوذُ بأقطارِ الزجاجَةِ بعدما
أريقت لما أهْديتِ في الكُثْرِ أمثالُ

فسقياً لكأسٍ من فمٍ مثْلِ خاتمٍ
من الدرّ لم يهْمُم بتقبيلِهِ خالُ

صحبتِ كرانا والركابُ سفائنٌ
كعادِكِ فينا والركائبُ أجمالُ

أعُمتِ إلينا أم فعالَ ابن مريمٍ
فعلتِ وهل تُعطى النبوّةَ مكسالُ

كأنّ الخُزامى جُمّعت لكِ حلّةً
عليكِ بها في اللونِ والطيبِ سربالُ

عجبتُ وقد جزتِ الصراةَ رفلّةً
وما خَضلَت مّما تسربلتِ أذيالُ

متى ينزلِ الحيُّ الكلابيّ بالسا
يُحيّيكِ عنّي ظاعنونَ وقُفّالُ

تحيّةَ وُدٍّ ما الفُراتُ وماؤهُ
بأعذَبَ منها وهْوَ أزرقُ سَلسالُ

فإن زعموا أنّ الهجيرَ استشفّهم
إليها فمنها في المزايدِ أسمالُ

أتعلمُ ذاتُ القُرطِ والشّنفِ أنّني
يُشَنّفني بالزّأرِ أغلَبُ رئبالُ

فيا دارَها بالحزنِ إنّ مزارَها
قريبٌ ولكنْ دونَ ذلكَ أهوالُ

إذا نحنُ أهْلَلْنا بنؤيِكِ ساعنا
فهلّا بوجهِ المالكيّةِ إهلالُ

تُصاحبُ في البيداءِ ذئبا وذابلا
كلا صاحبيها في التّنوفَةِ عسّالُ

إذا أعزَبَ الرّعيانُ عنها سَوامَها
أريحَ عليها الليلَ هيقٌ ونيّالُ

تُسيءُ بنا يقظى فأمّا إذا سرتْ
رقاداً فإحسانٌ إلينا وإجمالُ

بكتْ فكأنّ العقدَ نادى فَريدَهُ
هلمَّ لعَقْدِ الحلف قُلْبٌ وخَلْخالُ

وهل يحزُنُ الدّمعَ الغريبَ قُدومُهُ
على قدمٍ كادت من اللينِ تنهالُ

تُحَلّي النّقا درّينِ دمعاً ولؤلؤاً
وولّت أصيلاً وهْيَ كالشمسِ مِعطالُ

بأشنَبَ معطارِ الغريزَةِ مُقسِمٍ
لسائفِهِ إنّ القسيمَةَ متفالُ

فلا أخلَفَ الدّمعَ الذي فاضَ شأنُها
دعاءً لها بلْ أخلَفَ النّظمَ لآلُ

وغنّت لنا في دارِ سابورَ قينَةٌ
من الوُرْقِ مِطرابُ الأصائلِ ميهالُ

رأت زَهَرا غضّاً فهاجَت بمِزهَرٍ
مثانيهِ أحشاءٌ لطُفْنَ وأوصالُ

فقلتُ تغنّيْ كيفَ شئتِ فإنّما
غناؤكِ عندي يا حمامةُ إعوالُ

وتَحْسُدُكِ البيضُ الحوالي قِلادَةً
بِجيدِكِ فيها من شذا المسكِ تمثالُ

ظَلَمنَ وبيتِ الله كم من قِلادَةٍ
تؤازِرُها سورٌ لهنّ وأحجالُ

فاقسمتُ ما تدري الحمائمُ بالضّحى
أأطواقُ حُسنٍ تلكَ أم هيَ أغلالُ

بدتْ حيّةٌ قَصْراً فقلتُ لصاحبي
حياةٌ وشرٌّ بئسَ ما زَعَمَ الفالُ

أتُبصِرُ ناراً أوقِدت لخُويْلِدٍ
ودونَ سناها للنجائبِ إرقالُ

وأقتالُ حرْبٍ يُفْقَدُ السّلمُ فيهمُ
على غيرهم أمضي القضاءَ، وأقتالُ

وعرضُ فلاةٍ يُحْرِمُ السيفُ وسطَها
ألا إنّ إحرام الصوارمِ إحلالُ

إذا قُدِحت فالمشرفِيُّ زنادُها
وإن هيَ حُشّت فالعواملُ أجذالُ

تمنّيتُ أنّ الخمرَ حلّت لِنشوَةٍ
تُجَهِّلُني كيفَ اطمأنّت بي الحالُ

فأذهلُ أنّي بالعراقِ على شفاً
رَذِيِّ الأماني لا أنيسٌ ولا مالُ

مُقِلٌّ من الأهلِيْنِ يُسْرٍ وأُسْرَةٍ
كفى حَزَناً بينٌ مُشِتٌّ وإقلالُ

طويتُ الصِّبا طَيَّ السجلِّ وزارني
زمانٌ له بالشيبِ حُكْمٌ وإسْجالُ

متى سالتْ بَغدادُ عنّي وأهلُها
فإنّيَ عن أهلِ العواصِمِ سآآلُ

إذا جَنَّ ليلي جُنَّ لُبّي وزائدٌ
خُفوقُ فؤادي كلّما خَفَقَ الآلُ

وماءُ بلادي كانَ أنجعَ مشرَباً
ولوْ أنّ ماءَ الكرخِ صهباءُ جِرْيالُ

حروفُ سُرىً جاءت لمعنىً أردتُهُ
برتِنيَ أسماءٌ لهُنَّ وأفعالُ

يُحاذرنَ من لدغِ الأزِمّةِ لا اهتدى
مُخَبِّرُها أنّ الأزِمّةَ أصلالُ

فيا وطني إنْ فاتَني بِكَ سابِقٌ
من الدّهرِ فلْيَنْعمْ لِساكِنِكَ البال

وإن أسْتَطِع في الحشرِ آتِكَ زائراً
وهيهاتَ لي يوم القيامة أشغالُ

وكم ماجِدٍ في سيف دِجلَةَ لم أشِمْ
لهُ بارِقاً والمرءُ كالمُزْنِ هطّالُ

من الغرِّ ترّاكُ الهواجِرِ مُعْرِضٌ
عن الجهلِ قذّافُ الجواهِرِ مِفضالُ

سيَطلُبُني رزقي الذي لو طَلَبتُهُ
لما زادَ والدّنيا حُظوظٌ وإقبالُ

إذا صدقَ الجَدُّ افترى العمُّ للفتى
مكارِمَ لا تُكري وإن كذَبَ الخالُ

هذه قصيدة _كما سبق وألمحت- كلما أمسكت منها بطرف، تفلت المعنى وانحرف، فلا اللغة ولا التراكيب، ولا الصياغة ولا ضروب البلاغة القديمة في ظاهرها تُسعف في تصوّرٍ نقدي مقنع لهذه القصيدة. فهي بلا شك عالية، ذات براعة شاخصة

في نظمها، ودقيق أوزانها. إلا أنها تحفل بملامح رمزية تشي بمعان ليست مقصودة لذاتها. فضروب البلاغة فيها مكسية بألوان الطبيعة البدوية، وجمال الصور التقابلية، ما بين حاضر في الغربة ومستقبل في المعرة.

وأول ما يفجأ القارئ تلك المقدمة الطويلة الموهمة في الغزل. ولولا بيتان، وبعض الكلمات التي تعجل المعري في إيرادها، لما عرفنا غرض القصيدة إلا متأخراً. وياليته تأنى قليلاً قبل أن يكشف النقاب عن غرضه إلا أن الحاجة إلى الأنيس الحقيقي لرجل ضرير في غربة، وقد اشتعل المبيض في مسوده، حالت دون التجمل في التستر على ما يوهم الغزل.

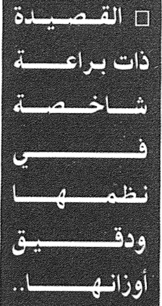
والقصيدة في مجملها إيهام وتعجب، فمنازل المحبوبة في ظاهرها أطلال، وربما بقايا من آثار الديار، هذا في اليقظة، وليس كذلك في المنام، ذلك أن اليقظة قسوة وألم، وانشغال بالتعامل مع الواقع عن استحضار صور كلية للأحبة في الشام، ولذلك كان التخيل في المنام أظهر وأقوى. وقد نجح المعرّي في ترك الحاضر وإغماض الجفن للتطلع صوب الشام حيث المستقبل، فالعراق في الظاهر، والشام في المضمر، والمضمر أقوى، ففيه المقام والأهل والوطن، وإن خلا من الحضارة والمدنية. فمنازلها لم يبق منها سوى أطلال، أما معانيها فهي على أكمل حال.

مغاني اللوى من شخصكِ اليومَ أطلالُ
وفي النّومِ مغنى من خَيالكِ مِحلالُ
معانيكِ شتّى والعبارَةُ واحِدٌ
فطَرْفُكِ مُغتالٌ وزَندُكِ مُغتالُ

ولما كان المرء مطبوعا على الحنين الدائم إلى المقام الأول، وكانت معاني التعجب في البيتين الأولين قد رسمت لنا صورة تحتمل في دلالاتها غير ما غرض، فقد لجأ المعرّي إلى الموازنة الواضحة أحيانا، والرمزية أحيانا أخرى ما بين العراق والشام، في محاولة لكشف ما اعترى أسلوبه من إيهام، وربما ليكون ذلك مفتاحا لما سيأتي. وجاء كشفه بأسلوب ذي دلالات تعجبية تثير الغرابة لو اقتصرنا في إيحاءات المعنى المذكور على الظاهر المجرد.

وأبَغضتُ فيكِ النّخلَ والنّخلُ يانعٌ
وأعجبني في حبِّك الطّلحُ والضالُ
وأهوى لجَرّاكِ السماوةَ والقطا
ولو أنّ صِنفيهِ وُشاةٌ وعُذّالُ

فمن يُبغض النخل، ويحب الطلح والضال؟ ومن يهوى السماوة والقطا، مع أن صنفيه وشاة وعُذال؟ إن حب الأوطان مقدم على العيش في القصور الحسان، فالحب للشام، ولمن نزل الشام، ولكل نبت نما في باديتها، ولمختلف طيورها وحيواناتها، وإن كانت العراق أجمل منظراً، وأخصب أرضاً، وربما أطيب مسكنا. هذان مفتاحا القصيدة، فليس على المعري بعد ذلك من حرج في الغموض أو الإيهام.



لقد تحدث عن المرأة في غزل يكاد يكون صريحاً، ظاهره -بلا شك- غزل، وباطنه رمز للوطن، ذلك أن معجمه اللغوي في الحديث عن المرأة، مفعم بالمعاني والدلالات. ولا ضير فالاختيار مقصود، وإلا كيف نسوغ له هذا الكم الهائل من المفردات البدوية؟ إضافة إلى كثرة صيغ المبالغة فيها، وتوظيف الألوان (الخزامي، زرقة ماء الفرات، شذا المسك، صهباء جريال) والتي ما جاءت إلا لترفع من شأو الموازنة ما بين الشام والعراق، فتثري الصور التقابلية، حتى تجعل الشام في مكان علٍ مقارنة بغيرها.

فمحبوبته بدوية شامية، مصاحبة لهم، ولكن العجب يبدو في مجيئها وقت الكرى غالبا، أو في المكان الذي لا يُتوقع أن تكون فيه مصاحبة، في ملمح خفي إلى أن ذكر الوطن لا يكون واضحاً -وإن استُحضر- إلا إذا نزلت بساحته الهموم، أو اعترته الخطوب، وهو ما كان بالفعل مع المعري في بغداد. فقد زارته في النوم وهو في العراق، وزارته في البحر وقد تعرض للنهب والسرقة، مع العلم أن التعجب ماثل لا يبرح تعابيره، فهو متعجب من زيارتها الليلية، وهجرها له في اليقظة، ومتعجب كذلك من عدم التمتع برؤيتها على الرغم من تحقيقه لأسباب الزيارة:

□ المعجم اللغوي في الحديث عن المرأة مفعم بالمعاني والدلالات..

تُسيءُ بنا يقظى فأما إذا سرتْ
رقاداً فإحسانٌ إلينا وإجمالُ
إذا نحنُ أهْلَلْنا بنؤيكِ ساعنا
فهلا بوجهِ المالكيّةِ إهْلالُ

وفي القصيدة ملمح آخر مهم، سبق أن أومأت إليه، وهو غلبة المضمر على الظاهر، في رمزية إلى حب الشام وانتصارها على حاضر الشاعر المتعلق وقتيا بالعراق. وإن خيل إلينا بعد هذا الملمح، إلا أنه ليس ببعيد على المعري الذي يتفنّن في إتقان صنعه، ويقصد توسيع معانيه بالاشتقاقات والصيغ، والمفردات اللغوية التي يُحسن توظيفها.

ومن عجبه: صحبتها الدائمة له في البحر، بله ولوجها البحر، ووصولها إلى زورقهم، وصولا لم تظهر علامته عليها، فلا هي غرقت ولا ابتلت. وهذا من نتائج استطراده في الحديث عن البحر، ولكن، مع عدم إغفاله لمفردات البادية، حتى لا تتماهى مع العراق، فتفقد شيئاً من بداوتها، فيكون بذلك قبول، ولو على هيئة ما للحياة في بغداد، التي رماه الدهر بها، فكرهها، وكره سُكناها، حتى غدت قطرة من مياه المعرة خير من مياه الكرخ بأسرها.

أيا برق ليس "الكرخ" داري وإنّما
رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء "المعرة" قطرة
تغيث بها ظمآن ليس بسال

ولذلك لم ينس مزج حديثه بذكر البر، وركوب الإبل، وكسوتها بالثوب البدوي الطويل. وهو مايؤكد

عجبه باطنا من صورة الشام في حضورها التام دون أن يطرأ عليها تغيير يذكر.

صحبتِ كرانا والركابُ سفائنٌ
كعادكِ فينا والركائبُ أجمالُ
أعُمتِ إلينا أم فعالَ ابن مريمٍ
فعلتِ وهل تُعطى النبوّةُ مكسالُ
عجبتُ وقد جزتِ الصراةَ رفلّةً
وما خَضِلَت ممّا تسربلتِ أذيالُ

فهي محبوبة أصيلة في بداوتها؛ حلتها وعطرها نبت الخزامى في اللون والرائحة، وكلا صاحبيها في التنوفة عسّال؛ يقصد إلفها للذئاب، ومنعة قومها، في دلالة على سُكنى الفلوات، وتعودها حياة البر، وأكل النعام وبقر الوحش إذا سامت النعم في المراعي. بمعنى تماهيها التام مع الشام، أو باديتها. فما الخزامى وما الحيوانات المذكورة إلا مفردات من البادية التي يتطلع في شوق إليها.

كأنّ الخُزامي جُمِّعت لك حلّةً
عليك بها في اللونِ والطيبِ سربالُ
تُصاحِبُ في البيداءِ ذئبا وذابلا
كلا صاحبيها في التّنوفَةِ عسّالُ
إذا أعزَبَ الرّعيانُ عنها سَوامَها
أريحَ عليها الليلَ هيقٌ وذيّالُ

وهو طرب ولكن، على غير العادة في الطرب، فطربه لزئير الأسد يثير الغرابة والتعجب، ويوهم أشياء وأشياء، ولكن حقيقة الأمر تعود إلى كون الشام هي أساس الطرب والجذل، فلا الأسد ولا زئيره مقصودان لذاتهما. ولو كان في طرب حقيقي لطرب لصوت الحمامة، التي تفنن في ذكرها ونعت صوتها: مدحا وإطراء. ليخلص إلى أن سعادته الحقيقية إنما هي في سكنى الشام، وذكر ما فيها؛ نبتها وحيوانها، وكل ما قرّب إليها، أما العراق فليست بدار مقام، ولا طرب ولو اجتمع فيها من أسباب السعادة الظاهرة ما اجتمع، ولسان حاله قول القائل:

> ☐ **في القصيدة غلبة المضمر على الظاهر في رمزية لحب الشام على العراق..**

بغدادُ لا سُقيت ربوعك ديمة
وغدت رياضك حنظلا ومُرارا

ولذلك مهما تفننت الحمامة، وأبدعت في حسن صوتها، فإنما صوتها إعوال. ويؤكد هذا صور المدنية في الدلالة على العراق التي جاءت في مجملها، إن لم تكن كلها، في موضع المفضول لا الفاضل، بخلاف صور الشام- فهي على بداوتها، وجزالتها، وما فيها من خشونة واضحة- فهي الصور الحقيقية، وهي الحياة الكريمة.

أتعلمُ ذاتُ القُرطِ والشُّنفِ أنّني
يُشَنِّفني بالزّأرِ أغلَبُ رئبالُ
وغنّت لنا في دارِ سابورَ قينَةٌ
من الوُرْقِ مِطرابُ الأصائلِ ميهالُ

رأت زَهَرا غضّـاً فهاجَت بِمِزهَرٍ
مثانيهِ أحشاءٌ لطُفْنَ وأوصالُ
فقلتُ تغنّيْ كيفَ شئتِ فإنّما
غناؤكِ عندي يا حمامةُ إعوالُ

ولإن اكتنف الغموض والإيهام بداية القصيدة، فإن آخرها آخذ بالوضوح على نحو يُسفر عما تقدّم، وذلك حين يستطرد في استعراض حيوانات البادية، فالحية وبخاصة الأصلال منها تشي بالمخاطر التي تحول دون وصوله إلى الشام، كما أنَ اتقاد النار، وذكر الغارات، والتمرد والعصيان، والتصريح بذكر الفلوات، ووصف السيوف، ونار الحرب كله يدلل على محاولته التخلص من الحاضر والتطلع إلى الشام وما أعان على استحضارها.

فيا دارَها بالحزنِ إنّ مزارَها
قريبٌ ولكنْ دونَ ذلكَ أهوالُ
بدتْ حيّةٌ قصْراً فقلتُ لِصاحِبي
حياةٌ وشرٌّ بئس ما زَعَمَ الفالُ
أتُبصِرُ ناراً أوقِدت لخُوَيْلِدٍ
ودونَ سناها للنجائبِ إرقالُ
وأقتالُ حربٍ يُفْقَدُ السِّلْمُ فيهِمُ
على غيرهِم أمضي القضاءَ وأقتالُ
وعرضُ فلاةٍ يُحْرِمُ السيفُ وسطَها
ألا إن إحرام الصوارم إحلالُ
إذا قُدِحت فالمشرفيُّ زِنادُها
وإن هيَ حُشّت فالعواملُ أجذالُ

ويمكن أن نمتح من مفردات المعري سوى ما تقدم أن في ذكر الحية، والنار، ووصف السيف، والرمح وغير ذلك وإن جاء في تماه مع بادية الشام، وخدمة لها، إلا أن أسلوبه في الإيهام يجعلنا نحمله أيضا على حاضره في بغداد، فهو يسعى للتخلص من حاضر موصوف بكثرة المخاطر والصعاب، وبخاصة عدم وجود الأنيس الحقيقي، فلا يملك مالا ولا أسرة، وقد عدت عليه اللصوص، وهو الرجل الكبير الذي ضحك الشيب في رأسه.

مُقِلٌّ من الأهلينِ يُسْرٍ وأُسْرَةٍ
كفى حَزَنا بينٌ مُشِتٌّ وإقلالُ
طويتُ الصِّبا طَيَّ السجلِّ وزارني
زمانٌ له بالشيبِ حكْمٌ وإسْجالُ

ونجا المعري- إلى حد ما- من مخاطر بغداد على الرغم من جسامتها، وعظم فتكها، ولذلك حُق له أن يتعجب- ومجمل قصيدته تعجب- وقد اطمأنت به الحال، حتى وصل به التعجب درجة جعلته يتمنى إحلال الخمر فيسكر منها سكرة تنسيه، وتسلو به بعض السلو عما جرى:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة
تُجَهِّلُني كيف اطمأنت بي الحالُ
فأذهل أني بالعراق على شفاً
رذيِّ الأماني لا أنيس ولا مالُ

ولم يتمنّ المعري ذلك عبثاً، وهو الذي وقف من الخمر موقفا مشهوداً، ولكن، يبدو أن حظ النجاة كان معدوما أو قريبا من العدم. وربما بهذا نفسر

عدم صبره على الرمز أول القصيدة فقد عاش مخاوف، تنذر الواحدة منها بأختها، ومهما كان إلا أنه في رضى عن أهل بغداد، ولكن شوقه إلى الشام أكبر من ذلك كله، فبغداد تسأل، ولكن الشام تنتظر، وهو عنها سأآلُ.

متى سألتْ بغداد عنّي وأهلُها
فإني عن أهل العواصم سأآلُ

وقد زاده الليل هموماً، وزاد وجيب قلبه وخفقانه سراب النهار ولمعانه، حتى أضحى نهاره كَلَيْله، لدوام تفكيره وسؤاله عن أهل العواصم، انجذابا إليهم، وحرصا في القدوم عليهم.

إذا جَنَّ ليلي جُنَّ لُبِّي وزائدٌ
خُفوقُ فؤادي كلّما خَفَقَ الآلُ

إنّ بُعد المعري عن الديار، وما تعرّض له في بغداد، كان سببا رئيسا في تأجج مشاعر الحنين للشام، ولذلك راح يؤكد بُغض النخل، ومياه الكرخ، ويرفع بالوصف صورة بغداد؛ مياهها ونخيلها ليظهر بالضد شأو الشام، وشدة حنينه واشتياقه إليها، فكانت المفاصلة بأن الشام على بساطتها لا تعدلها جنّات بغداد.

تحيّةَ وُدٍّ ما الفُراتُ وماؤُهُ
بأعذبَ منها وهْوَ أزرَقُ سَلسالُ
وماء بلادي كانَ أنجعَ مشرَباً
ولوْ أنّ ماءَ الكرخِ صهباءُ جِرْيالُ

ويبدو أن المعري لم يقو على تحمل هذه الحال، وقد وصل إلى الختام، فوازن ولم يعدل بالشام أرضا، منشدا، ولكنه معتبر موقن بالصعاب، بأسلوب يخلو تماما من التعجب والإيهام، وينبعث من سويداء القلب، على هيئة نداء بعيد ذي صدى حزين، ولكنه من الأعماق:

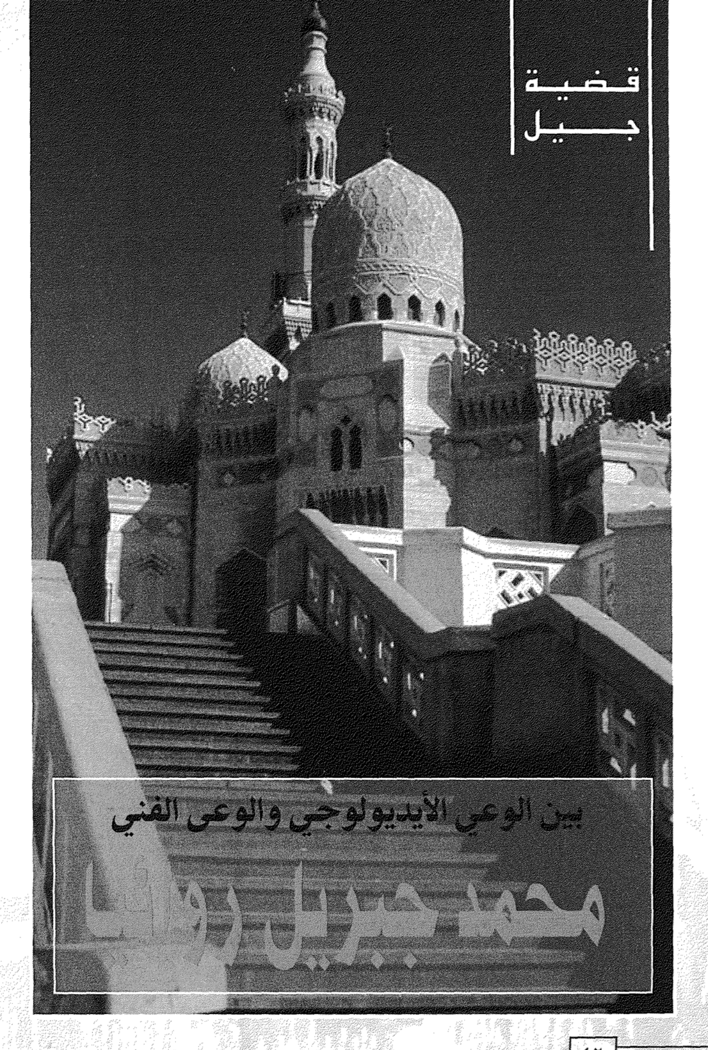
فيا وطني إنْ فاتَني بِكَ سابِقٌ
من الدّهرِ فلْيَنْعمْ لِساكِنِكَ البالُ
وإن أسْتَطع في الحشرِ آتِكَ زائرا
وهيهاتَ لي يومَ القيامة أشغالُ

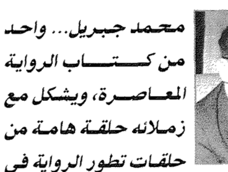
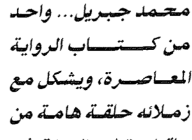
الخاتمة

باعدتْ بين المعري والشام ظروف صعبة، جعلته يحن في كل أوقاته، ومفرداته إليها، فلا العراق بجماله، ولا الأرض بخصوبتها يغنيان عن الوطن، فهو في حنين دائم إلى الشام. من أجل ذلك فقد أحب كل ما يقرب من الشام وباديتها، منتصراً في ذلك كله للمضمر على المظهر؛ إذ أن الأول ظلال للوطن، والآخر للمصائب والنكبات. وقد تحققت له النجاة مع ما كان من مخاطر مهلكة، فتعجب، وأحسن في التعبير عن هذا المعنى البياني، منذ بداية القصيدة، حيث طيف المحبوبة، وانتهاء بقرب توقع وصوله إلى الشام.

الهوامش:

(١)- هذه هي القصيدة التاسعة والخمسون من شروح سقط الزند، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مج٣، ط٤، دار الكتب والوثائق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص:١٢١١-١٢٦٣.


قضية
جيل
بين الوعي الأيديولوجي والوعى الفني
محمد جبريل روائيا

د. طه وادي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

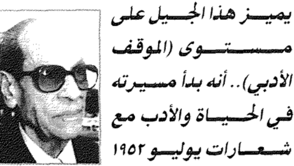


طه حسين



توفيق الحكيم

محمد جبريل... واحد من كتاب الرواية المعاصرة، ويشكل مع زملائه حلقة هامة من حلقات تطور الرواية في مصر بعد سنة ١٩٥٢ وكتّابُ هذه الحلقة يسيطرون على ساحة الإبداع الروائي والقصصي، ويمثلون الجيل الذي خرج من عباءة طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقي وعبدالرحمن الشرقاوي ويوسف إدريس. ليتجاوزوهم على مستوى الموقف والأداة. ولعل أهم ما يميز هذا الجيل على مستوى (الموقف الأدبي).. أنه بدأ مسيرته في الحياة والأدب مع شعارات يوليو ١٩٥٢ البراقة وخيالات الحلم القومي، الذي كان يسعى نحو تحقيق إمبراطورية ترفرف عليها رايات الحرية والوحدة والاشتراكية.



نجيب محفوظ

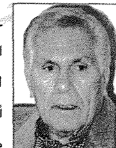


يحيى حقي

وقد زاد إيمانهم بهذا الحلم، لأن الفكر الاشتراكي والأدب الواقعي والنقد الاجتماعي، أخذ يغزو ساحة الثقافة العربية، ويبسط مبادئه الفكرية والجمالية على قضايا الوطن والإبداع. وقد تفتحت مشاعر هذا الجيل وطاقاته الإبداعية في الخمسينيات والستينيات، حيث كان معظمهم يخطو نحو العشرين أو الثلاثين من عمره. وكانت خطب جمال عبدالناصر وبعض إنجازاته توحي الكثير منهم بأن الحلم القومي أمل قريب المنال. ولكن الحلم الجميل سرعان ما تحول إلى كابوس مرعب مع تداعيات هزيمة الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧، وكانت السقطة مدمرة للأحلام ومخيبة للآمال.

نتيجة لكل ما سبق كان الوعي الأيديولوجي عميقا عند أدباء هذه المرحلة، خاصة من عمل منهم بالصحافة أو غيرها من وسائل الإعلام، ومعنى ذلك أن هذا الجيل تثقف ثقافة فكرية واعية، واشتراكية عميقة، كما أنه في الوقت نفسه عاش فترة الحلم المحبط والكابوس المقيم، لأن احتلال اليهود لجزء من أرض مصر استمر ما يزيد عن ست سنوات، وما زالت أصداء النكسة مخيمة على بلدان عربية كثيرة.

كل هذه الانكسارات السياسية والضغوط الاجتماعية.. وغيرها الكثير من أزمات الواقع المصري، أدى إلى أن يكون إحساس هذا الجيل الذي ينتمي إليه محمد جبريل ورفاقه بأزمات الواقع حادة ضارية، خاصة وأن بعضهم قد تعرض - بالفعل


يوسف إدريس

- للحبس والاعتقال، أو ترك العمل والوظيفة، أو الاضطرار للهجرة والتشرد، وحين نقرأ أدب هذا الجيل المحبط نجد صوراً قاتمة سوداء للواقع - لا في مجال الرواية والقصة فحسب - وإنما يمتد ذلك إلى كافة أنواع فنون القول، مثل الشعر والمسرح.

في إطار هذا الجيل المحبط ظهر محمد جبريل: كاتبا للراوية والقصة والمقال، فقد صدر له في مجال الرواية عشرة أعمال) هي:

الأسوار (١٩٧٣)، إمام آخر الزمان (١٩٨٤) - من أوراق أبي الطيب المتنبي (١٩٨٨) - قاضي البهار ينزل البحر (١٩٨٩) - الصهبة (١٩٩٠) - قلعة الجبل (١٩٩١) - النظر إلى أسفل (١٩٩٢) - الخليج (١٩٩٣) - اعترافات سيد القرية (١٩٩٤) - زهرة الصباح (١٩٩٥).

كما صدرت له (ثلاث) مجموعات هي: تلك اللحظة (١٩٧٠) - انعكاسات الأيام الصعبة (١٩٨١) - هل ..؟ (١٩٨٧) كذلك صدرت له بعض دراسات أدبية هي: مصر في قصص كتابها المعاصرين (١٩٧٣) - نجيب محفوظ أو صداقة جيلين.. (١٩٩٤) - آباء الستينيات (١٩٩٥) - قراءة في شخصيات مصرية (١٩٩٥)، ودراسة سياسية بعنوان: (مصر من يريدها بسوء) (١٩٨٦).

من هذا العرض يتضح أن إصدارات جبريل تختلف من حيث الشكل التعبيري، ولكنها تتفق - في معظمها - من حيث الموقف الفكري.. فكاتبنا رجل يعمل في الصحافة، وهذا ما يجعل الوعي الفكري.. أو الأيديولوجي لديه - بالضرورة - يقظاً وعالياً. كما أنه مثل معظم كتاب جيله عاصروا كثيرا من الأحداث والمعارك السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية. وقد ترتب على تضافر العامل الخاص (العمل بالصحافة) مع العامل العام (ظروف الواقع المصري والعربي) ترتب على ذلك أن الوعي الأيديولوجي عند كاتبنا.. يبدو واضحا - بقوة - في كل ما يكتب.

هذا هو المفتاح الأول للدخول إلى عالم الرواية عند محمد جبريل، وعند كثير من كتاب جيله. ولا سيما بعد أولئك الذين يعملون في مجال الصحافة والإعلام. انطلاقاً من هذا الفهم لنشأة الكاتب في إطار جيله، يمكن أن نرصد بعض السمات الفنية العامة التي تميز العالم الروائي له:

١- العناية بقضايا السياسة: يتضح لمن يقرأ أعمال جبريل الروائية أن قضايا السياسة - ممثلة في علاقة المواطن بالسلطة.. والنضال من أجل حرية الوطن، وما يؤدي إليه ذلك من اعتقال وسجن وتعذيب وظلم - هي المحور الرئيس في معظم ما يكتب. فمثلا روايته الأولى (الأسوار).. تصور المعاملة القاسية التي يعامل بها المعتقل السياسي، كأنه أشد جرماً من المسجون المنحرف. وفي الرواية الثانية (قاضي البهار).. يصور الكاتب شخصية محمد العطار الشهير بقاضي البهار، وما يتعرض له من مطاردة من بعض رجال الشرطة. وهو إنسان بريء، وهم يريدون أن يجبروه على الاعتراف بجريمة لم يقترفها، والرواية كلها تدور في إطار هذا الإرهاب البوليسي الذي يمكن أن يحدث للمواطن العادي البريء.

وقد ظل المحور السياسي هو المجال الأول في محاور المضمون الروائي عنده في معظم الروايات تقريبا. لكن الكاتب في روايته (النظر إلى أسفل)

جعل قضايا السياسة تتراجع إلى الوراء قليلا، لتشكل مجرد خلفية لحركة البطل المحبط. فالرواية تأخذ شكل اعتراف، لتصور شخصية شاكر المغربي، الذي يعاني من مرض نفسي، يؤثر على علاقته العاطفية بالمرأة.

وهو يؤكد هذا في الرواية بصوت البطل فيقول: (كنت - تلك الأيام - أتعرف إلى جوانب تصورات أنها لم تعد تشغلني. السياسة.. لم تعد ضمن اهتماماتي، أو تثير انتباهي بصورة فعلية إلا في حين يتعالى إيقاع الأحداث، فتشد انتباه الجميع (١) .

هل التغير في هذه الرواية تطور مقصود أم أنه مجرد صدفة؟! الإجابة سوف تنطق بها الأعمال الروائية القادمة للكاتب.. !!

٢- الاستعانة بالقناع التاريخي:

التاريخ والسياسة أمران متلازمان - إلى حد ما - في الحياة والفكر والفن. فالكاتب يلجأ - أحياناً - إلى إحياء مرحلة أو شخصية تاريخية، ليصور من خلالها ما قد يعجز عن التعبير عنه مباشرة، فالرواية وسيلة هروبية للبعد عن بعض محاذير يفرضها الواقع.. أو .. هكذا يُخيل لبعض الكتّاب.. !!

وهناك روايتان هما: إمام آخر الزمان - من أوراق أبي الطيب المتنبي، يستوحي فيها الكاتب التاريخ بشكل مباشر، حين يستعين في الأولى بشخصية الإمام علي بن أبي طالب، ومن يمكن أن يخلفه في (الإمامة).. أو الحكم. وفي الثانية يستعين بشخصية أبي الطيب المتنبي الشاعر، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس. والكاتب في معرض بعث هذه الشخصية الأدبية الكبيرة، يحيى أيضاً بعض أقوالها المأثورة عن طريق (التناص) والاستشهاد، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، أو يشار إليها في الروايتين.

□ الانكسارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لونت أدب تلك المرحلة بسوداوية قاتمة..

□ روايات تلك الفترة اتخذت من الرمزية سبيلاً لإسماع صوتها

هناك رواية ثالثة تمثل خطوة أكثر تطورا في توظيف جبريل للتاريخ، وهي رواية (قلعة الجبل) التي سوف نتوقف عندها فيما بعد وقفة خاصة في إطار هذه الدراسة.

غاية ما نود التأكيد عليه هو أن توظيف التاريخ في الرواية يعد ملمحا رئيسيا من ملامح رؤية الكاتب وعنايته بالقضايا السياسية.

٣- الإسكندرية.. المهد والمهاد:

جبريل رجل سكندري المولد والنشأة. ونتيجة حب الكاتب لمسقط رأسه.. نجد أن معظم رواياته وقصصه التي تدور في إطار اجتماعي معاصر، تتخذ من الإسكندرية فضاء للحدث، ومكانا لحركة الشخصيات. نجد هذا في أعماله: قاضي البهار ينزل البحر - الصهبة - النظر إلى أسفل على سبيل المثال، ففي هذه الأعمال وغيرها يرد ذكر بعض الأماكن السكندرية مثل: شاطئ العجمي - المحمودية - رأس التين - حدائق الشلالات - حي العطارين - ميدان المنشية - طريق الكورنيش - شارع الليثي - سوق النصر، الذي تغير إلى سوق سوريا... ومعنى هذا أن الكاتب

يصدر في كل ما كتب عن حب شديد للإسكندرية، البحر والمدينة والبشر.

٤- الرواية القصيرة: يزاوج الكاتب في أعماله الإبداعية بين القصة القصيرة والرواية، ولعل السمة المترتبة على الجميع بين الاثنتين هي أن معظم رواياته من النوع القصير نسبيا، حيث يتراوح الكثير منها بين مائة ومائة وخمسين صفحة تقريبا. وهذا الاختصار النسبي في حجم الرواية، قد يكون بسبب من ممارسته لكتابة القصة القصيرة، وقد يكون استجابة لطبيعة عصر قلق سريع الإيقاع ، لم يعد يناسبه - كثيراً - الرواية ذات الحجم التقليدي والسرد المتأني والتفاصيل الزائدة.

وقد تكون هناك أسباب أخرى في مجال تعليل هذه الظاهرة.. لا مجال لذكرها الآن.

٥- قلة عدد الشخصيات الرئيسية: نتيجة الشكل الروائي المختصر، الذي يميل إليه الكاتب نجد أن الكاتب يُعْنَى - على مستوى الشخصية الرئيسية النامية - بعدد محدود جدا من الشخصيات.

ومن المعروف أن الرواية الواقعية، وهي تقضي على وحدة الموضوع، قضت أيضاً على واحدية البطولة، حيث تهتم الرواية المعاصرة بحشد مجموعة من الشخصيات الرئيسية، التي يصورها الكاتب على أكثر من مستوى، ويسبر أغوارها من خلال أكثر من عنصر بنائي. ولكن كاتبنا لا يميل إلى حشد مجموعة من الشخصيات الرئيسية، وإنما البطولة عنده بطولة فردية إلى حد ما. فبطل رواية (الأسوار) شخصية واحدة، وبطل (قاضي البهار) هو محمد النجار، وبطل (النظر إلى أسفل) هو شاكر المغربي. وفي رواية مثل (قلعة الجبل) يربو عدد الشخصيات فيها على حوالي ثلاثين شخصية، غير أن الكاتب لا يهتم فيها إلا بشخصيتي البطل والبطلة، وهما: السلطان خليل بن الحاج أحمد، وعائشة بنت عبدالرحمن القفاص.

□ القناع التاريخي في الرواية شكّل رمزية لقراءة الواقع واسقاطاته..

□ توظيف التاريخ في الرواية بُعدَ ملمحا رئيسيا من ملامح رؤية الكاتب السياسية..

٦- الحرص على الفصحى في السرد والحوار: الأدب - أولا.. وأخيراً - فن لغوي، والحرص على صحة اللغة (نحويا) وجمالها (بلاغيا) أمر لا محيص عنه في أي مجال من مجالات الأدب شعرا ونثرا. وكاتبنا من الحريصين على توظيف الفصحى في مجال السرد والحوار. وهذه نقطة إيجابية تحسب له، حيث إنه حريص على أن تقوم اللغة - في رواياته - بوظيفتها التعبيرية بشكل منضبط. دون زيادة أو نقصان. ومن هنا يميل أسلوبه إلى التركيز والتكثيف. وربما كان هذا الاختصار النسبي في التعبير سبباً من أسباب اختزال حجم الرواية عنده.

ومن أمثلة الاستعمال الجيد للغة سردا وحوارا، هذا الجزء - على سبيل المثال - من رواية (قاضي البهار)، حيث يصور فيه بطل الرواية - محمد النجار - أحد مشاهد التعذيب البوليسي، التي يتعرض لها:

(أحاط اثنان بساعدي - بحيث أصبحت في مواجهة ثالث، من الواضح أنه أعلى منهم قـامـة ورتبـة. ضـربني في صـدري، وفي ذقني.. ثم ركلني أسـفل بطني، شدد الرجلان من قبضتهما على ساعدي، فلم أقع، غـامت المرئيات في عيني، وغلبني الغثيـان ولم استطع مسح اللعاب الذي سال - لا أدري كيف - من فـمي إلى ذقني ، بدأ الكلام في اليـوم الثـالث، ربما اليـوم الرابع، لا أذكر اليـوم أو التـاريخ أو السـاعـة. كانت النافذة تطل - في الأغلب - على منور، فلم أتبين بالضبط متى جاء الليل، ولا متى جاء النهار، كانوا قد ضربوا رأسي بعصا، أمسك بها رابع غير اللذين أمسكا بي، والذي وجَّه اللكمات وركلني في بطني. بصقوا - بعد ذلك - عليّ، وضربوا جبهتي في الجدار. ثم ألقوا بي على الأرض، وداسوني بالأقدام.

في اللحظة التـاليـة، دخل رجل لم أتبين – لشـدة التعب – مـلامحه، وإن تبينت اسمه من مناداتهم له: سـيـادة الرائد صـفـوت. شـخط في الرجـال الذين أحاطوا بي: من أمركم بضربه يا غجر؟! أخلى وجهه لإشفاق واضح وأمرهم بإنهاضي لأجلس على المقعد. طلبت ماء، فغسلت وجهي، وقدم سيجارة، فاعتذرت، وشايا، فاحتسيته على مهل.

قال: لا أعفيك مما حدث.

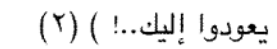
أضـاف لنظرتـي الداهشـة: لو أنك اعـترفت.. مـا نالوك بإيذاء.

هتـفت بمـا تبـقى من قـوتي: لم أفـعل شـيـئـاً كي أعترف به.

قال: هل أكذِّب التقارير؟

قلت: وهل أكذب نفسي؟

وهو يبدي الإشفاق: أخشى - إن لم تعترف - أن



يعودوا إليك..!) (٢)



عبدالرحمن الشرقاوي

هذه – بصـفـة عـامـة – أهم السمات الفنية التي تميز محمد جـبـريل - كـاتبـا روائيـا، وهذه المبـادئ - وغـيـرهـا - تؤكـد أن عطاءه المتميز، يجعله واحدا له مكانة خـاصـة في إطار كـتـاب جيله.

بقى أن نتــوقف عند رواية (قلعـــة الجـــبل).. باعـتـبـارها واحـدة من آخـر كـتـاباته، وتعكس بعض مـلامح عـالمه الروائي، حـيث يوظف فـيـهـا القناع التاريخي - بطريقة غير مباشرة - للتعبير عن رؤية سياسية واضحة، تتصل بالواقع العربي المعاصر - وليس بالإطار التاريخي القديم المتخيل.

القناع التاريخي

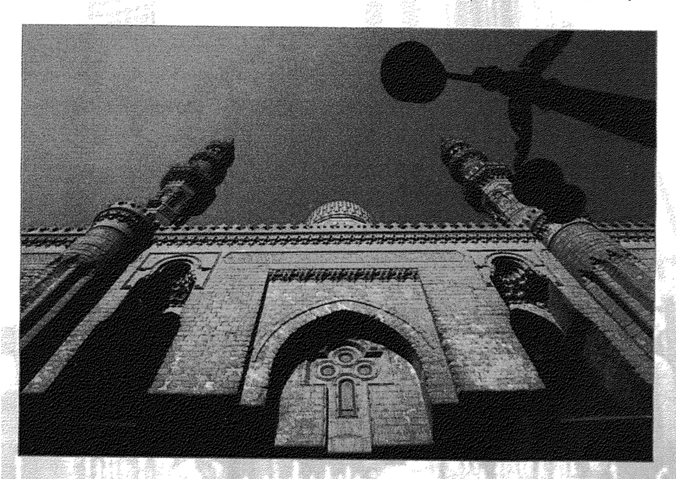
هناك فـرق كـبـيـر بين (الرواية التـاريخـيـة).. وتوظيف (القناع التـــاريخي) في مـــجـــال الفن القصصي، ذلك أن الرواية التاريخية - مصطلح نقدي - له مفـهـوم مـحـدد واضح، فـالرواية التاريخـيـة.. هي الرواية، التي تصـور مرحلة تاريخـيـة.. أو تسـتـوحي سيرة شخصية حقيقية عاشت في التاريخ، والرواية التاريخية مرتبطة - في الغالب الأعم - بمراحل هذه النهضة، حيث يزداد الاهتمام بالتاريخ القديم بوصفه خلفـيـة للحـاضـر المعـاش من نـاحـيـة، ومن أخـرى باعتباره مجسدا لفترات العصر الذهبي للأمة. ولعل أهم كـتـاب يناقش قـضـايا هذا النوع من الرواية هو كـتـاب (جـورج لوكـاش).. (الرواية التـاريخـيـة) الذي ترجمه د. صالح الكاظم، وقد صدر عن وزارة الثقافة

العراقية سنة ..١٩٧٨ وهو يؤكد فيه (إن ما يهم في الرواية التاريخية، ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس، الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية، التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا، كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التاريخي). (٣)

معنى هذا أن الرواية التاريخية تعيد إحياء وتصوير: حدث تاريخي.. أو شخصية تاريخية وتقدمهما في إطار إنساني مبرر.. ومقنع، حتى لو لم تثبت الكتابات التاريخية ذلك، لأن الرواية الحديثة - أيا ما كان نوعها - تعنى جداً بالجانب الإنساني.. وبالسمات الفردية للشخصيات التي تصورها. إن كاتب الرواية التاريخية ملتزم - إلى حد كبير - باحترام الحقائق التاريخية العامة، لكن ينبغي عليه.. أن يكسو هذه الحقائق لحما ودما، حتى يبرزها بشكل إنساني وأدبي.. مقنع، هذا هو التحدي الأكبر لكاتب الرواية سواء أكانت تاريخية أو غير تاريخية.

هذا بالنسبة للرواية التاريخية.. أما (القناع التاريخي) فهو أمر مختلف تماما، لأن الكاتب لا يهدف من خلاله إلى أن يصور مرحلة أو شخصية تاريخية، وإنما يوظف التاريخ باعتباره إطارا خادعا لعالم آني يصوره، إنه يستوحي سمات مرحلة تاريخية معينة.. بأحداثها.. وشخصياتها.. ولغتها.. وفكرها.. وتقاليدها.. في إطار الزمان والمكان - دون أن يشير تصريحا أو تلميحا إلى أية حادثة.. أو شخصية.. لها علاقة ما بالتاريخ الاجتماعي للفترة .

ظهور الراوي - بهذا الوضوح منذ بدء الرواية -



يؤكد توظيف الرواية للقناع التاريخي، الذي تحدثنا عنه من قبل. وبعد ذلك يبدأ الراوي في سرد أحداث الرواية، حيث إن السلطان أساس الدولة خليل بن الحاج أحمد، قد رأى مصادفة أثناء تجواله في مدينة القاهرة المرأة الشابة الجميلة عائشة بنت عبدالرحمن القفاص، التي يقول عنها الراوي إنها ذات (وجه ما يكون مثله إلا في الجنة.. !!) ص..١١٣ وكأنه منذ البداية يوحي بما قد حملها إياها من دلالة رمزية.. وبينما يفيض السارد في وصف تأثير جمال عائشة على السلطان يرتد في اللحظة ذاتها من مسيرة الحدث ـ عن طريق اسلوب الاسترجاع (Flash Back) ليقدم فصلا من أصل السلطان خليل.. وأنه كان في الأصل مملوكا.. وفد من آسيا الصغرى، وظل يعمل إلى أن صار حاكما لمصر.. (وقيل انه كان قبيح السيرة في رعيته، ظالما لهم، قاسيا في قوانينه ومراسيمه، وعابت عليه الأقلام المؤرخة ميله إلى الشدة والعنف). ص ١٥.

والكاتب يثبت ما وصف به ذلك السلطان الحائر عن طريق الشك، حيث يقول معلقا على بعض ما ذكر من أقوال تصف السلطان بالظلم والبطش.. (وتلك جميعها مزاعم، ربما أملاها الغرض، فلا أحد رأى بعينه، أو سمع بأذنه، أو شارك فيما حدث، إنما هي روايات منقولة، أضاف كل واحد مما عنده، فتحورت وتضخمت، ووصلت إلينا بصورتها الشوهاء، الحالية..!!) ص ١٥

بعد ذلك يتشكل بناء الرواية كله على حركة المطاردة.. مطاردة الظالم للمظلوم.. وغدر الحاكم بالرعية.. وبطش القادر بالضعيف.. وبحث السلطان عن عائشة: المرأة الجميلة.. والرمز الموحي.. وحين عجز السلطان عن الظفر بعائشة.. أخذ يعتقل ويسجن ويقتل كل من يمكن ان يكون قد بسط ظلا من الحماية عليها، فيبدأ بالزوج خالد عمار النساخ.. ثم بالأب عبدالرحمن القفاص.. ثم بالخال محروس القليوبي الجزار.. ثم بالشيخ عاصم ندا، خطيب المسجد.. بل إن بطش السلطان يمتد حتى إلى زوجته خوند جنات، التي حاولت أن تدافع عن عائشة.. كما امتد - أيضاً - البطش إلى الخليفة القاهر شمس الدين، وأخيراً.. أصدر السلطان مرسوما يبيح لجنوده فعل أي شيء بسكان مصر والقاهرة، الذين أخفوا عائشة وحموها. (ضاق الأمر على الناس، عدمت عندهم الأقوات، صارت أيامهم خطرا متصلا. فلما اشتد الأمر. دفعوا بنسائهم وأطفالهم مستأمنين، يسألون الجند أن يوقفوا ما بدأوه، فلم يجبهم الجند إلى مطلبهم، وأعملوا سيوفهم في النساء والأطفال، وكشف الناس رؤوسهم. واستغاثوا بمقام السلطان، وباتوا لياليهم في قراءة ختمات وأذكار، وأسرفوا في الدعاء، والقنوت في الصلوات، وتضرعوا، وابتهلوا إلى الله بالأدعية، وحملوا المصاحف على رؤوسهم، وفزعوا إلى الجامع العتيق، وجامع الأزهر، وجبل يشكر، واستجاروا بمقام الحسين، وأحاطوا به، وابتهلوا إلى الله تعالى، وابتهل خطيب جامع الأزهر، وردد المصلون: (اللهم إنا

□ الراوي وظف اللغة توظيفاً ذكياً، أداءً للمضمون وإبداعاً في رسم الصورة..

نشكو إليك فقد نبينا، وغيبة ولينا، وكثرة عدونا، وقلة عددنا، وشدة الفتن بنا، وتظاهر الزمان علينا، فصل على محمد وآله، وأعنا على ذلك بفتح منك تعجله، وبضر تكشفه، ونصر تعزه، وسلطان حق تظهره). (٤)

وحين رأت عائشة أن بطش السلطان خليل قد زاد عن الحد.. ذهبت بنفسها إليه، وحين سألها عن سبب قدومها، ردت عليه في ثقة أنها لم تأت من أجل مطلب ذاتي، وإنما من أجل دفع الظلم عن الناس، فرد عليها السلطان..(وهو يعجب للتغير الذي طرأ عليها:

– ما كان قصدي شيء من ذلك.. إنما عنادك هو الذي أوجب ما حدث..!

علا صوتها: قتل الناس بغير شرع الله..؟!

أسفر الغضب عن تقطيبة: وماذا بعد يا عائشة؟..

وغلبت الحيرة صوته: لم ألتق في حياتي بمن اجترأ عليَّ سواك.

واجهت عينه: لا أحب أن أقيم في هذا المكان.

قاوم التململ: مات الآلاف وأنت على رأيك.

– ما شأن الناس بقبولي أو رفضي الإقامة في القلعة؟

– لولا أنهم تدخلوا لكنت عندنا ضيفة غالية..

– لا أحب الابتعاد عن حدرة الحنة.

صرخ: لماذا؟

ودانت طبيعته لغضب واضح: استضفناك في قصورنا.. ولم نضعك في جب الجبل.. علا حاجباها لتأكيد السؤال: القصور ملأى بالحريم.. فلماذا أنا؟..

أهمل السيف، فسقط تحت قدميه، وهز قبضة يده في وجهها: يا عائشة.. اليد التي غيبت خالد عمار، وبطشت بأبيك وخالك، وكل من وقف في طريق إرادتي، لن يصعب عليها أن تكسر عودا هشا مثلك..!!) (٥)

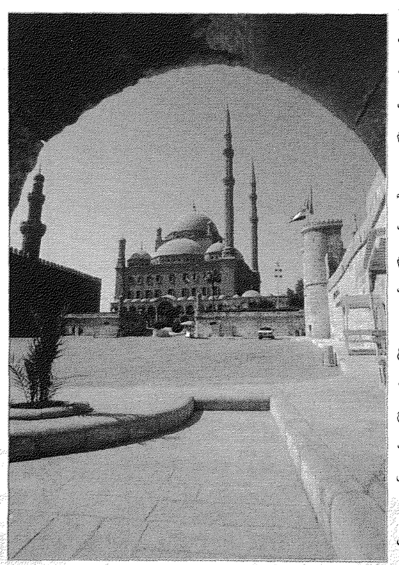
ويستمر الحوار بين السلطان الظالم والمرأة النبيلة دون أن يسلم أحدهما.. لأن عائشة رغم أن السلطان أراد أن يجعل منها سلطانة، تلد له غلاما يرث الملك من بعده، رفضت بإصرار وثقة. هكذا كان أطول لقاء هو آخر لقاء بينهما.. كأنما لحظة اللقاء هي بعينها لحظة الفراق.. لكن أي فراق هو إنه الفراق الأبدي، حيث جاءت لحظة النهاية ـ نهاية السلطان.. وبالتالي نهاية الرواية ـ خاطفة مباغتة دون تمهيد أو توقع، حيث اتجه في أثناء الحوار خنجر مسموم إلى صدر السلطان، (وسقط عن الكرسي.. وتدحرج على سلمات خمس، تعلو به فوق الأرض. حدث هرج ومرج. لم يجر التثبت: من صوب الطعنة، ولا من أين أتت؟ وهل هي وليدة اللحظة، أم أنها وليدة تخطيط وتدبير؟ وهل للفاعل شركاء، أم أنه أقدم على فعلته النكراء بوازع من نفسه؟ غلبت الفوضى، وانشغل الجميع بالجريمة الشنعاء، فلم يتبينوا الفاعل، ولا مصدر الطعنة القاتلة). (٦)

> □ اللغة هي الرحم الذي تنمو في داخله كل سمات النص الأدبي

كما بدأت الرواية بصوت الراوي، كانت آخر جملة في الرواية قوله.. (وهنا آخر ما انتهيت إليه)..

ودلالة هذا أن الكاتب كـان حـريصـا على أن يوهمنا فنيا، أنه مـحـافظ على (القناع التاريخي) باعـتـبـاره إطارا جامعا، لأحداث الرواية من البدء حتى الختام، وكـاتبنا وهو يوظف هذا القناع التـاريخي، يدعـمـه بإحـيـاء الروح العـامـة للعـصـر ـ عـصـر المـماليك والعثـمانيين من بعدهم، حيث عم الظلام، وانـتـشـر الفساد، وأقفرت البلاد، وساء حال العباد، من هنا نجـد أن مـعظم شـخـصـيات الرواية من أصـحـاب الحرف اليدوية أو البدائية البسيطة، فخالد زوج عائشة نساخ، وأبوها قفاص، وخالها جزار، ومسعود أبو طالب خباز، وزبيلة أبو طعيمة فران، ودعموم القيسي بائع حلوى، وعثمان كشك سروجي، والمعلم جرجس أبو طبق طحان، وشحيبر الدرديري بائع عطارة، وعموش عوض الله معلم، ودبوس القمبشاوي إمام مسجد.. وهنا أود أن أشير إلى أن كاتبنا كان موفقا بدرجة كبيرة في اختيار أسماء الشخصيات الشعبية الثانوية، التي كانت تقف مع عائشة في صراعها ضد الحاكم المستبد. ونالها كثير من الأذى بسبب مساعدتها على الفرار من السلطان.

حـتى يوضـح الكاتب مـعـالم القناع التـاريخي الذي اسـتـعـان به في الرواية، نجـده يسـتـعـيـر طريقـة كـتب التـاريخ والحوليات في تقسيم الرواية إلى أبواب وفصول، ووضع عناوين أحيانا.. وإهمال العنوان في أحايين أخرى.. أكثر من هذا أن عبـاراته ومـفـرداته تؤكـد هذا الحس التاريخي وتدعمه، لأن اللغة هي الرحم الذي تنمو في داخله كل سمات النص الأدبي، وهي المقياس الوحيد الذي يستطيع به قياس كثافة المتغير الأسلوبي، وإذا كان الأسلوب هو الصيغة المميزة للنص، فإن أسلوب الكاتب هنا يشي بوضوح بأنه قد نجح بدرجة كبيرة في إحياء لغة الكتابة التاريخية، مثل تلك التي نجدها في كتاب (السلوك) للمقريزي، و(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) للسيوطي، و(بدائع الزهور في وقـائع الدهور) لابن إياس المصـري. وفي هذا الجـزء



□ القيمة الجمالية لأي نص أدبي تعبير عن رؤية إنسانية نبيلة تناصر (الحرية والعدل والمساواة)..

من الرواية ما يؤكد قدرة الكاتب على تقديم لغة أدبية خاصة تواكب إطار الرواية التاريخي:

(فصل في نشأة السلطان خليل)

(فاعلم أن نشأة السلطان أساس الدولة خليل بن الحاج أحمد، تبدو - في المصادر التاريخية - غامضة، تحيفها قتامات وظلال، تعاني من التناقض والتشتت، قيل إن السلطان أساس الدولة ولد ونشأ في آسيا الصغرى، فلما بلغ اليفاعة باعه أبواه إلى نخاس، لاحظ نباهته، فاحتفظ به لنفسه، ولم يبعه. وحين مات الرجل فإن خليل باشر عمله بدلا منه.

واستطاع - بدهائه وأمواله - أن يشترى الذمم والضمائر، حتى دانت له الأمور. ووجد السبيل ممهدا لحكم مصر، فارتقاه. وقيل إنه كان قبيح السيرة في رعيته، ظالما لهم، قاسيا في قوانينه ومراسيمه. وعابت عليه الأقلام المؤرخة ميله إلى الشدة والعنف، فهو يسوس الرعية بأسلوب النخاس، لا يرعى ذمة ولا ضميرا، ولا تأخذه شفقة أو رحمة. وروى عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب...) (٧)

هكذا يكون الكاتب قد حافظ على سمات القناع التاريخي، الذي اتخذه إطاراً عاماً لعالم الرواية.. والسؤال الآن هو: ما الرؤية السياسية التي يفصح عنها عالم هذه الرواية؟

الرؤية السياسية:

إن القيمة الجمالية الكبرى - لأي نص أدبي.. في تقديرنا - تتحقق من دلالاته الفنية، التي تعبر عن رؤية إنسانية نبيلة: تحارب الظلم والقهر والاستبداد، وتناصر الحرية والعدل والمساواة. ومن هنا فإن جماليات الأنواع الأدبية - في مجملها - تتشكل من رؤية سامية لقيم الحياة وحرية الإنسان. إن الأدب الحق.. هو الأدب الملتزم بنفي عذابات البشر، وتأييد نضالهم المشروع ضد قوى البطش والغدر والطغيان، ومعنى هذا - أيضاً - أن النص الأدبي ذو مهمة مزدوجة: جمالية وأيديولوجية في آن واحد.

إن كل أديب - بالضرورة - صاحب موقف فكري، وبالتالي فليست هناك تجربة أدبية بلا رؤية للكون والحياة. بيد أننا نريد أن نركز على محور واحد من محاور الرؤية في دراستنا لرواية (قلعة الجبل)، وهو محور الرؤية السياسية، لأنها أهم جانب حظي باهتمام المؤلف والرؤية السياسية لكاتبنا يفصح عنها بناء الرواية - جماليا - في قدرة وإحكام - لأن بعض من يقدمون رؤى سياسية في الرواية العربية المعاصرة، يميلون إلى قدر من المباشرة والخطابة - أحياناً. ومحمد جبريل - هنا - صاحب رؤية سياسية ملتزمة، ترى أن أي حاكم ظالم، مهما عبث بأقدار الناس وحريتهم، فإن له مصيرا حتميا، لا مهرب منه، ومن هنا يقتل السلطان خليل.. وهو في قصره.. وعلى كرسيه.. وعلى مشهد من وزرائه وجنوده، "لا يدري أحد، من صوب الطعنة، ولا من أين أتت.. وهل هي وليدة اللحظة، أو وليدة تخطيط وتدابير؟!).

والكاتب - لكي يبرز رؤيته بشكل جلي - حريص

على وصف قتل السلطان.. وليس على بيان من هو القاتل، لأن كل واحد في الشعب المظلوم المقهور، صاحب ثأر.. وصاحب حق.. هذا هو ما يؤكده النص الروائي حين ينهيه الكاتب بهذه العبارة.. (وانشغل الجميع بالجريمة الشنعاء - فلم يتبينوا الفاعل - ولا مصدر الطعنة القاتلة). (٨)

هذه الميتة العادلة لسلطان ظالم، هي في الوقت نفسه انتصار لشعب مظلوم، كما أنها في الوقت نفسه انتصار لعائشة القفاص - التي كان الكاتب حريصاً على أن يحملها دلالات رمزية عدة.. فهي رمز للشعب المظلوم، ورمز للحرية.. ورمز للحق والجمال. والكاتب يحملها هذا (البعد الرمزي) منذ بدء الرواية حتى الختام. إنها رمز لشعب مهضوم، يسوؤه ما يسوؤها، ويرضيه ما يرضيها.. (استقرت خواطر الناس، واستبشروا، وابتهجوا بالفرح، هاص الناس في الشوارع والدروب، وزاطوا. وفتح العلماء باب الأزهر، وقرأوا دروسهم، وامتلأت الأروقة بشاغليها، وفتح الناس متاجرهم، وتركوا أسلحتهم، وانصرف كل لشأنه.

اعتبروا نزول عائشة من قلعة الجبل، وعودتها - بملاءتها التي أصرت على ارتدائها - إلى حدرة الحنة، مناسبة بهجة، وفرح لكل أبناء البلاد المصرية. (٩)

ونود أن نشير إلى أن الكاتب يفصح عن رؤيته السياسية، التي تؤمن بانتصار العدل على الظلم، والجمال على القبح، والشعب المظلوم على الحاكم الظالم، من خلال منظور جدلي يقوم على الصراع بين مجموعة من التقابلات الرامزة، يمكن أن نركزها فيما يلي:

قلعة الجبل	مدينة القاهرة
السلطان خليل	عائشة القفاص
جنود السلطان	أبناء الشعب
الظلم	العدل
القبح	الجمال
القناع التاريخي	الواقع المعاصر

معنى هذا أن توظيف الكاتب للقناع التاريخي، ليس إلا إطارا خادعا للتعبير عن رؤية سياسية واقعية.. معاصرة. إن رواية (قلعة الجبل) بالبناء الفني المحكم.. والشخصيات الروائية، التي رسمت بمهارة وإتقان.. وبكونها واحدة من الأعمال الروائية، التي تسعى إلى ربط الحاضر بالماضي، والمعاصر بالأصيل، كما أن الكاتب - بحكم وعيه الأيديولوجي - ملتزم برؤية سياسية حادة، وقضية إنسانية نبيلة. بهذا كله .. وبكثرة غيره، يتضح أن محمد جبريل قد أصبح واحدا من الروائيين العرب، الذين يعملون - في صمت - من أجل تأصيل الفن الروائي.. والتعبير عن حرية الإنسان العربي !! ■

الهوامش:

١- محمد جبريل - النظر إلى أسفل ط. الهيئة المصرية ١٩٩١ ص ٧٦ .
٢- محمد جبريل - قاضي البهار - ط الهيئة المصرية ١٩٨٩ - ص ٧٩ - ٨١ .
٣- جورج لوكاش - الرواية التاريخية، ترجمة د. صالح الكاظم ط. وزارة الثقافة بغداد، ١٩٧٨ - ص ٣٦ .
٤- رواية قلعة الجبل ص ١٣١ .
٥- رواية قلعة الجبل ص ١٣٣ - ١٣٦
٦- رواية قلعة الجبل ص ١٣٨ - ١٣٩ .
٧- رواية قلعة الجبل ص ١٥
٨- رواية قلعة الجبل ص ١٣٩ .
٩- رواية قلعة الجبل ص ١٠٥



□ *دائماً وأبداً تعزى عوامل ظهور المبدعين إلى وجود "الموهبة" ذلك العنصر الأساسي لتوفر الإبداع في كل زمان ومكان.*
كان الأستاذ: عبدالقدوس الأنصاري - رحمه الله- موهوباً، أديباً، وقد توزعت هذه الموهبة بين:

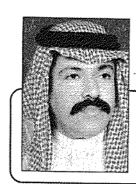
عبدالقدوس الأنصاري.. الموهبة وامتلاك اللغة

١- الشعر... الذي وضع فيه ديوان: "الأنصاريات"، على نهج "الشوقيات" لأحمد شوقي و"الرصافيات".. ، لمعروف الرصافي، وهو ديوان صغير كان لي شرف الكتابة عن شاعرية الأستاذ الأنصاري من خلاله من خلال كتابي: "عبدالقدوس الأنصاري.. شاعراً" والذي تولت "دارة المنهل" مشكورة نشره عام ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

من خلال الديوان ظهرت موهبة الأستاذ الأنصاري ليس ذلك فحسب بل وامتلاكه "اللغة"، وامتلاك اللغة استعداد مهم لكل مبدع، وقد كان المبدعون على مسار الشعر العربي يملكون اللغة.. المتنبي.. وأبو تمام.. والسياب.. ومحمود درويش.. وغيرهم... هذا فيما يتصل بالشعر. أما الحقل الآخر وهو:

٢- الرواية.. وقد كان الأستاذ الأنصاري من خلال رواية أو قصة: "التوأمان" روائيا موهوبا، ويكفيه في هذا المجال أنه جعل: "الصراع" محوراً لروايته بين توأمين مختلفين- رغم أخوتهما اللصيقة- وهذا الجانب التضادي أو التبايني هو عنصر القصة الأساسي، وسقوط الأستاذ الأنصاري عليه يؤكد "موهبة قصصية" كامنة عنده.

لقد تعرض الأستاذ الأنصاري - رحمه الله- لنقد في مرحلته الإبداعية تلك سواء في

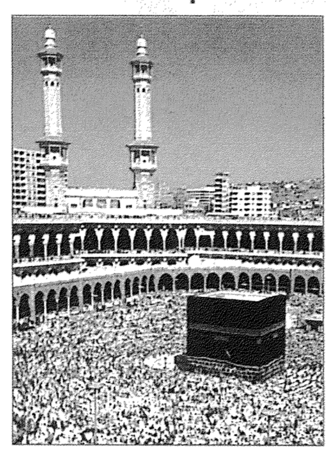


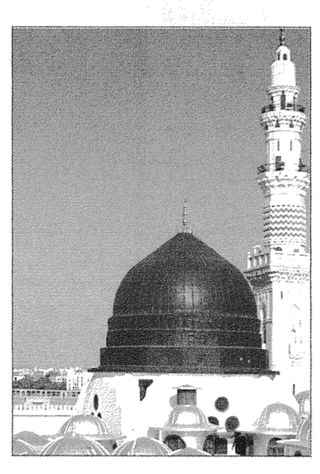
د. عبدالله باقازي

- مكة المكرمة -

حقل الشعر أو القصة وفقاً لعوامل تنافسية من أنداد تحكمهم مشاعر ذاتية مؤثرة لكن ذلك لم يؤثر في إبداع الأنصاري فعاش في تلك الفترة وتجاوزها إلى ما بعد ذلك، لأن صاحب الإبداع لابد أن يواجه بالمنغصات وقد قال الجاحظ : "من أَلَّفَ فقد أُستهدف"، ونحن نلاحظ أن المبدعين تنوشهم أقلام الحسدة والمغرضين في كل زمان ومكان.. وهذا شيء طبيعي..؟

شيء كنت أتمناه: وهو أن يستمر الأستاذ الأنصاري في حقلي الشعر والقصة، لكن ذلك لم يتم ويبدو أن "اللغة" هاجس الأستاذ الأنصاري الكبير قد استحوذت على جهده ووقته، لكنه يظل ذلك الرائد الشعري والقصصي في الأدب السعودي، رحمه الله رحمة واسعة ■





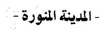


□ ومن أعلام الحرمين الشريفين: شيخ سدنة بيت الله الحرام الشيخ فخر الدين أبو بكر بن محمد بن أبي بكر محمود بن ناصر الشيبي القرشي الحجي المكي رحمة الله عليه. وهذه الأسرة من بني عبدالدار بن قصي بن كلاب.

ذكره مؤرخ مكة الإمام تقي الدين محمد الفاسي رحمة الله عليه في تاريخه الثمين العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين وقال: شيخ الحجبة وفاتح الكعبة ويلقب بفخر الدين.

وكان من أعلام الحرم وكان شيخ الحجبة أي سدنة البيت العتيق وأي مفخرة هذه وبيده مفتاح بيت الله الحرام وهو حارسه وسادنه وبيده الإذن لمن يريد الدخول إلى بيت الله تعالى المبارك. وقد كان عالماً جليلاً





السيد ضياء محمد عطار

- المدينة المنورة -

سمع بمكة شرفها الله على الشيخ خليل المالكي كتاب الشفا المشهور للعلامة القاضي عياض رحمة الله عليه. وقرأ الأربعين النووية وبعض موطأ الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة. وروى عن العلامة عزالدين بن جماعة كتاب المنسك الكبير وغير ذلك ممن أخذ عنهم من علماء الأمة. وتولى مشيخة بيت الله الحرام والحجابة بعد الشيخ علي بن أبي راجح الشيبي بتوليه من سلطان مصر آنذاك. ونائب عنه أخوه الشيخ علي بتوليه من أمير مكة شرفها الله آنذاك لأنه كان غائباً عن البلد الأمين. وكان رحمة الله عليه من صفاته أنه كان شديد سواد البشرة وفي سمعه ثقل كثير. وكان مسفاراً يأتي غالبا اليمن وقد سافر أثناء توليه الحجابة للبيت الحرام مرات عديدة. وكان يستخلف على الولاية فيها ابن أخيه عليا ويستخلف أخاه عليا أيضاً في بعض الأوقات.

واستمر على ولاية الكعبة المشرفة من عام تسعين وسبعمائة إلى أن توفي في أواخر ليلة السبت الثاني عشر من صفر سنة سبع عشرة وثمانمائة للهجرة المباركة ودفن بالمعلاة وقد ناهز الثمانين من العمر.

ومنهم: الناسك الزاهد المعتمر الشيخ أبو بكر بن محمد بن موسي بن عمر الجبرتي المعروف بالمعتمر كما ذكره الإمام تقي الدين الفاسي في العقد الثمين.

وكان رحمة الله عليه من الزهاد والصالحين والعباد النازلين إلى جوار البيت العتيق يجتهد في العبادة كثيراً ويسعى في أعمال الخير والمبرات. وكان له فهم بعلم الحروف وله ثقف بكثير من العلوم والفوائد. جاور بمكة شرفها الله نحوا من ثلاثين سنة ففاز بحسن الجوار حتى لقى الكريم الغفار. تعرف عليه قاضي البلد الحرام الشيخ محب الدين النويري واغتبط به وأعجب. وذاع ذكره عند الناس واشتهر وأدناه أمير مكة الشريف حسن بن عجلان وقبل له شفاعات حسنة في أمور كثيرة فقضاها. وعاش فقيراً في أوائل حياته ثم فتح الله عز وجل عليه ووسع له في رزقه فأصبح غنياً موسراً. وقدم اليمن قبل وفاته فأكرم مورده ونال بها رفعة ودرجة. ثم عاد إلى الديار الحرمية فقام على قضاء حوائج المحتاجين وسعى في أعمال مشكورة من أبواب الخير. وكان كثيراً ما يأتي بمناسك العمرة يومياً ولا يتخلف عنها إلا إذا كان مريضاً أو معذوراً وبذلك اشتهر بالمعتمر. ولم يزل كذلك إلى أن توفى يوم السبت السابع عشر من شهر الله المحرم سنة عشرين وثمانمائة بمكة المعظمة ودفن بالمعلاة بمقابر الحجون وشيعه جمع غفير من الناس وكثر الزحام عليه. وله بمكة شرفها الله أملاك وأعقاب وذرية.

ومنهم: إمام المسجد الحرام الشيخ زكي الدين أبو الخير أبي اليمن محمد بن أحمد بن الرضى بن إبراهيم بن محمد الطبري المكي الشافعي رحمة الله عليه.

كان إماماً بالمسجد الحرام بمقام الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام. سمع سنن ابن ماجه من العلامة الجمال بن عبدالمعطي وبعض صحيح بن حيان وسمع من الشيخ أحمد المؤذن والشيخ عبدالوهاب الترولي بعض الموطأ ونال الاجازة من علماء عصره كالعلامة الصلاح بن أبي عمر وابن أميلة وابن الهيل وأحمد بن النجم وعماد الدين بن كثير ومحمد بن الحسن بن عمار الحارثي وخلائق آخرين ومن والده أيضاً. وناب الإمامة بمقام الخليل بالمسجد الحرام عن والده في مرضه غير أنه لم يعش كثيراً وقتل ليلاً في بعض أزقة مكة المكرمة خطأ. حيث كان يمشي في أحد أزقتها ليلاً فقابله بعض العسس من مماليك أمير مكة السيد حسن فظنوا أنه لص فضربوه وأردوه قتيلاً فكانت منيته في هذه الحادثة المروعة في ليلة الجمعة التاسع من شهر صفر الخير سنة ثلاث وثمانمائة للهجرة المباركة وله من العمر أربعون سنة ودفن بمقابر الحجون بالمعلاة. وبعد الحادثة أدى ديته أمير البلد الحرام السيد حسن لأخوته وورثته. رحمة الله عليهم ■

وجادلهم بالتي هي أحسن:

دور الدبلوماسية في سياسة الخلفاء الراشدين

أهمية الموضوع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه وأفضل الصلاة وأتم التسليم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، بعده.

ليس من أهداف الشريعة الإسلامية أن يكون أتباعها في خصومة وعداوة مع الشعوب الأخرى. فقال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخْرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهُم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} (الممتحنة: ٨)

بعث الله سبحانه الأنبياء والرسل قبل الإسلام برسالات مخصوصة لأقوامهم ومحددة بفترة معينة قال تعالى: {ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم} (الروم: ٤٧).

ولما بلغ الفكر الإنساني مستوى معيناً من النضج والقدرة على التفكير السليم في مجالات الحياة المختلفة، بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى جميع الناس، مسؤولا عن تبليغ رسالة الله سبحانه إليهم بأساليب سلمية كما أمره الله: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتالي هي أحسن} (النحل ١٢٥)، هكذا اقتضت طبيعة الرسالة أن يتخذ النبي عليه السلام. الوسائل السلمية كدبلوماسية لنشر الدعوة وسبيلاً أرقى للاتصال بالناس ومنهجا في التعامل مع الشعوب والدول في الجزيرة العربية وخارجها.

وقد كتبت دراسات وكُتُبٌ كثيرة عن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستخدام الدبلوماسية وسفارته لاقت اهتماماً كبيراً عند الباحثين. وإثر وفاة النبي عليه السلام، بدأ عصر الخلفاء الراشدين، وقد بدأت في هذا العصر جهود تثبيت الدين ومحاربة المرتدين، وأبرز رجال هذه المرحلة كما عرفناهم في تاريخ الإسلام: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، هؤلاء الرجال هم صفوة تربية الرسول عليه السلام وإعداده لرجال دولته حيث ظهرت لديهم علامات القيادة رغم اختلاف طبائعهم وخصائصهم، وقد كلفهم كلهم بمهام متعددة في مجالات شتى وكانوا مثالاً لرجال الدولة في الكفاءة والقدرة والفعالية.

وقد اتّبع الخلفاء الراشدون سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأساليبه الدبلوماسية كترجيحه السلم على الحرب والعمل على نشر الدعوة الإسلامية بالأساليب السلمية وعن طريق الحُجَّة والإقناع، لذا عمل الخلفاء الراشدون على تبادل السفارات مع الدول المجاورة في ظروف السلم كما استعملوها في أوقات الحرب، وحققوا من خلالها عديد المعاهدات الودية التي تكرس النظام الجديد وتساعد على نشر رسالة الإسلام والحضارة الإسلامية. وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل في هذا البحث المتواضع.



د. محمد ضياء الحق

أستاذ مشارك رئيس قسم الفقه الإسلامي
بكلية العلوم الإسلامية واللغة العربية
جامعة العلامة إقبال المفتوحة
إسلام آباد باكستان

١- تعريف الدبلوماسية:

إن الدبلوماسية هي فن تمثيل الحكومة ورعاية مصالح البلاد لدى الحكومات الأجنبية، والسهر على أن تكون حقوق البلاد محفوظة وكرامتها محترمة في الخارج، وإدارة الأعمال لتطبيق القانون في العلاقات الدولية، حتى تصبح المبادئ القانونية أساس التعامل بين الشعوب.

والدبلوماسية هي علم وفن معا، فهي علم لأنها تستوجب معرفة العلاقات القانونية والسياسية لمختلف الدول ومصالحها وتقاليدها التاريخية وأحكام المعاهدات، وهي فن أيضاً لأنها تهتم بإدارة الشؤون الدولية وتتطلب المقدرة على التنظيم.. وصفوة القول أن الدبلوماسية علم يجب معرفة قواعده وفن ينبغي اكتشاف أسراره (١).

الشخص الذي يمارس الدبلوماسية كمهنة رسمية يقال له دبلوماسي، وكان الدبلوماسيون موجودين قبل أن تطلق عليهم هذه الكلمة (٢)، ويطلق اللفظ الدبلوماسي على مبعوثي الدولة الذين يتولون مهمات ذات صفة دبلوماسية، كذلك كل من له أو ليس له صلة بها كمهنة أو نشاط، فهناك السلك الدبلوماسي بمعنى مجموع الدبلوماسيين التابعين

لدولة ما بوصفهم هيئة واحدة مميزة عن غيرها من موظفي الدولة الآخرين الذين ينتمون لهيئات أخرى، كما قد يعني مجموع مبعوثي الدولة الأجنبية لدى دولة معينة، وكذلك الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية، والاجتماعات، والاتصالات، والمراسيم، والأساليب، والامتيازات الدبلوماسية وما إلى ذلك (٣).

٢- الدبلوماسية الإسلامية:

يطلق مصطلح الدبلوماسية الإسلامية على مهمات السفارة الإسلامية في العصر الحاضر تأثراً بالقانون الدولي، ويمكن تعريف هذا المصطلح بما يلي:

«يجوز إطلاق لفظ «الدبلوماسية الإسلامية» على خطط التنسيق والتضامن والتعاضد بن الإمارات والممالك الإسلامية وضد أعداء الأمة الإسلامية الذين تربصوا بها منذ قيامها، كما يشير هذا اللفظ إلى سياسة دولة الخلافة وإلى سياسات الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، كما يشير أيضاً إلى نهج الدول غير الإسلامية في تعاملها مع القوى الإسلامية، فكان يقال الدبلوماسية الإسلامية المبعوثة لملوك الروم، والكنيسة، ولجمهورية البندقية مثلاً» (٤).

٣- الفرق بين السفارة والدبلوماسية

إن السفارة كلمة عربية أصيلة، وذلك على خلاف كلمة دبلوماسية، فهي من الكلمات المستوردة التي لم تدخل في لغتنا إلا حديثاً، لأن العرب في الجاهلية والإسلام لم يكونوا بحاجة إليها بالنظر إلى وجود لفظة عربية الأصل تعطى مدلولها وتغنى عنها وهي «سفارة» (٥).

لكن رغم هذا الفرق نلاحظ وجود تقارب كبير في مفهومي اللفظتين، السفارة مصدر سفر، تستعمل في معنى الوثيقة الخفية (٦)، والدبلوماسية من دبلوم (Diplome) بمعنى الوثيقة التي كان السفير يحملها خلال السفر بين الدولتين في العصور الوسطى (٧)، أيضاً في المفاهيم الاصطلاحية حيث إن السفارة في أحد معانيها هي عملية صلح بين الناس وتوضيح الأمر بالحوار، والكشف والتعبير عما يخالج الأنفس وتستبطنه القلوب من مطالب ومشاعر حتى يرضى الجميع ويتفقوا.. كأن يقال سفرت بين القوم سفارة أي كشفت ما في قلب هذا وقلب هذا لأصلح بينهم (٨)، والدبلوماسية معالجة العلاقات الدولية عن طريق التفاوض وتنظيم هذه العلاقات بوساطة السفراء (٩).

وهكذا نرى أن السفارة والدبلوماسية لفظان مترادفان أو يستعملان بمعنى واحد، فيقال الدبلوماسية والدبلوماسي كما يقال السفارة والسفير، وقد يكون هذا سبباً لاستعمال كلمة الدبلوماسية الإسلامية في التعبير عن مهمات السفارة في الإسلام.

المبحث الأول: نظام السفارة في عصر أبي بكر الصديق (رضي الله عنه):

المطلب الأول: استخدام الدبلوماسية في حل المشاكل الداخلية:

موضوع (الخلافة) كان أول اختبار يواجه المسلمين في المدينة المنورة بعد وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعين خليفة له، بل تركها شورى بينهم وبنفاذ البصيرة، وسلامة القصد، ونقاء السريرة اجتازوا ذلك الاختبار، وبفضل الله تعالى نادوا بأبي بكر الصديق – رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين – بادوا به خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ذلك لمجموع اعتبارات جعلت له الميزة بينهم، وجعلتهم يقدمونه ويبايعونه..

«توفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد بعض العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على أبي بكر» (١٠).

عرف أبو بكر الصديق في جميع مواقفه بالشجاعة والثبات في الخطوب، فقد نهض بأعباء نشر الدعوة وتوحيد كلمة المسلمين بعد أن تمزق شملهم أو كاد، كما عرف بالتزامه لمنهج النبي عليه السلام التزاما كاملاً حيث أنفذ جيش أسامة (ت ٥٤هـ/ ٦٧٤م) (١١) الذي أراد النبي عليه السلام إنفاذه للغزو على الرغم من معارضة بعض المسلمين بسبب الحالة المضطربة في بلاد العرب إذ ذاك ، وقد فصل في المسألة بقوله: «والذي نفس أبي بكر بيده لو ظَنَنْتُ أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته».(١٢) كما تصدى بقوة وحكمة للقبائل المرتدة وأعلن الحرب على مانعي الزكاة منهم، شعاره «لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه» (١٣) فقد كان هؤلاء يمثلون تهديداً جدياً لهيبة الدولة الإسلامية وشوكتها بين العرب وتشويها لسمعتها خارج الجزيرة العربية، إلا أنه ـ انتهاجا للسنة الحميدة التي أرساها النبي عليه الصلاة والسلام ـ فقد تكثفت الاتصالات والتحركات الدبلوماسية.

أولاً: لإقناع المرتدين بالعدول وتحذيرهم من مغبة عملهم هذا، وثانياً: لجمع ما يمكن من المعلومات من أنحاء جزيرة العرب عبر السفراء ومن ولاة الأقاليم الذين عينهم النبي عليه السلام لتقييم الوضع العام وما أثارته الردة من مشاكل، هذا لتحسين اتخاذ القرار المناسب الكفيل بتحقيق هدف الاستقرار والولاء للإسلام من طرف كل القبائل، وقد استقبل أبوبكر سفراءه ورسل الولاة وأخذ منهم الرسائل الموجهة إليه (١٤)، وقد رأى أن لا تسامح مع أعداء الإسلام من مانعي الزكاة في

□ الإسلام جاء للبشرية كافة، ونشره سُنَّة كونية ماضية..

□ المسلمون لم يفتحوا البلدان عنوة واقتداراً، بل اتخذوا الدعوة سبيلاً ومنهجاً..

نقضهم لركن من أركان الإسلام، كما لا يجوز أن يُهَادنُوا أو حتى يَتَسَاهل معهم في أمر من أمور الدين وإلا انتقض بناء الإسلام. وقد أرسل سفراءه بكتب مفتوحة إلى المرتدين (١٥)، وكانت الرسائل إلى القبائل المرتدة متشابهة وذات صبغة واحدة، وقد كتب أبو بكر فيها أحكام الإسلام وطلب منهم الالتزام بها والرجوع إلى ما شرع الله، وقد أمر سفراءه أن يقرأوا هذا الكتاب المفتوح على الناس (١٦).

□ (السفارة والرسائل) اتخذت أسلوب (البشارة والنذارة..)

□ المسلمون أصحاب حجة واقناع، لأنهم ربانيون..

وكذلك أرسل أبو بكر رضي الله عنه الجيوش لردع المتمردين المرتدين ومجاهدة من لا يرعوي بالطرق السلمية، وقد كللت حملة أبي بكر هذه بالنجاح، وتم سحق هؤلاء الأدعياء مدعى النبوة ومانعي الزكاة (١٧).

إن هذه المراجعة الداخلية كانت ضرورية لتقوية الصف الداخلي من أعداء الإسلام ورغم أن المسلمين قد قدموا خيرة الصحابة من حفاظ القرآن شهداء في معارك الردة إلا أن الله قد عزَّ دينه بأفواج من الرجال المخلصين المدفوعين بحماسة حقيقية لإعلاء شأن الدين، مستعدين لبذل نفوسهم في سبيل بث الدعوة بين الناس، وقد ثبت أن تربية الرسول للرجال قد آتت أكلها وأنتجت صنفاً نادراً من المؤمنين الصادقين، أثبتوا صلابتهم في أوقات الحرج التي وقعت فيما بعد خصوصاً حين تكثفت الغزوات والفتوحات، فقد ثبتت فعالية القادة والساسة وأصحاب المسؤوليات العامة في معالجة المشاكل والتقدم بالمجتمع الإسلامي نحو الأفضل وتعهد الدين الحنيف بالرعاية ودعوة الناس إليه ونشره في أنحاء الأرض فقدموا دليلاً رائعاً على أن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد ألقت بذورها في تربة خصبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً (١٨).

المطلب الثاني: استخدام السفارة والدبلوماسية في الفتوحات والعلاقات الخارجية

١- استخدام السفارة في الحروب

بعد قمع الردة في جزيرة العرب توجه أبو بكر رضي الله عنه إلى الفتوحات الخارجية لإبلاغ الدين إلى الناس كافة، وقد استشار أهل الشورى (١٩) فقالوا: «يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك، ووجهنا حيث شئت فإن الله تعالى فرض علينا طاعتك (٢٠) فقال تعالى {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم} (٢١)، بعد الاستشارة بدأت حركة الفتوحات، وقد استهلت

بإعداد الصف الداخلي فأوفد كتبه ورسله إلى ملوك اليمن وإلى أهل مكة حاشدا للقوة ومستنفرا للحرب لبث دعوة الإسلام إلى العالم كله، فكتب في رسالاته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، سلام عليكم، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وقد عزمت أن أوجهكم إلى بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة، فمن عدل منكم على الجهاد والصدام فليبادر إلى طاعة الملك العلام» ثم كتب (٢٢) {انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله} (٢٣).

أرسل أبو بكر أنس بن مالك (ت٩٣هـ/ ٧١٢م) (٢٤) خادم رسول الله بكتابه سفيراً إلى ملوك اليمن وانتظر جوابهم، رجع أنس بن مالك ببشارة قدوم أهل اليمن، وقدم تقريره إلى خليفة رسول الله قائلاً: (يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا وبادر إلى طاعة الله ورسوله وأجابوا دعوتك وقد تجهزوا في العدد العديد والزرد النضيد وقد أقبلت إليك يا خليفة رسول الله مبشراً بقدوم الرجال، وقد ساروا إليك بالذراري والأموال والنساء والأطفال، وكأنك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا إليك» (٢٥).

هكذا نجحت دبلوماسية أبي بكر في إعداد قوة كبيرة للفتوحات وبعد هذه الاستعدادات الحربية والدبلوماسية، أمر أبو بكر جيش المسلمين بالخروج إلى العراق والشام موصيا أمراء جيوشه بتخيير الناس بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، مقدماً الحل السلمي على الحرب مستعملاً في ذلك السفارات،

ومن أمثل ما وصى به أمراء جيشه ما قاله ليزيد بن أبي سفيان (ت ١٨هـ/ ٦٣٩م) (٢٦) حيث قال له: (إذا قدمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم، فإنه أول خبرك إليهم وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع مَنْ قِبَلَكَ من محادثتهم، وكن أنت الذي تلي كلامهم» (٢٧).

٢- بعثات أبي بكر رضي الله عنه الدبلوماسية:

- سفارة أبي بكر إلى المقوقس (٢٨)

اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبو بكر بعثاته الدبلوماسية، ومنها إرساله لحاطب بن أبي بلتعة (ت ٣٠هـ/ ٦٥٠م) (٢٩) الذي كان سفير النبي عليه السلام، إلى المقوقس مصالحا، وقد بقي هذا الصلح إلى دخول عمرو بن العاص (ت٤٣هـ/ ٦٤٤م) (٣٠) إلى مصر، ويعتبر هذا الصلح أول هدنة بمصر (٣١).

- سفارة أبي بكر رضي الله عنه إلى قيصر الروم

بعث أمير المؤمنين أبو بكر الصديق سفارته إلى قيصر الروم، وكانت تشتمل على ثلاثة رجال ومنهم عبادة بن الصامت (ت٣٤هـ/ ٦٥٤م) (٣٢) ونعيم بن عبدالله وهشام بن العاص (ت١٣هـ/ ٦٣٤م) (٣٣) هذه السفارة بعثت في السنة الأولى من خلافة أبي بكر بعد قمع الردة، وتفاصيلها تروى في المصادر كان هدفها كهدف سفارة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قيصر وهو الدعوة إلى الإسلام،

سافرت هذه السفارة عن طريق الشام حيث قابل والي الروم في هذه المنطقة جبلة بن الأيهم الغساني (ت ٢٠هـ/ ٦٤١م) (٣٤) وبعد المفاوضات الناجحة وافق هذا الوالي على بعثة هذه السفارة إلى القيصر. استقبلها صاحب الروم استقبالاً حاراً..

هذه السفارة كانت ناجحة جداً وفرح القيصر بلقائها ورغب في الإسلام كما يروى عن هشام بن العاص قوله وهو يقول:

«هذه السفارة عندما رجعت إلى المدينة وقدمت تقريرها عن المفاوضات مع القيصر قال أبو بكر: «مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال: أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم» (٣٥).

٣- المعاهدات الدبلوماسية في عصر أبي بكر (رضي الله عنه)

الاستخدام الجيد للدبلوماسية وتحركات السفراء الناجحة مكنت أبا بكر الصديق من أن يُحْكِمَ الإطْباق على البيزنطيين والفرس، وهذا النجاح العسكري - لا يرجع فقط إلى الحماس الديني (٣٦) الذي يتمتع به المقاتل المسلم بل يعود كذلك إلى السياسة الذكية والسريعة التي نهجتها الدولة الإسلامية زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد كان دور الدبلوماسية مؤثراً أكثر من الحرب في تحقيق المكاسب وتذليل الصعاب في هذه الفتوحات، وقد كان لأمراء الجيوش دور في المفاوضات السابقة للحرب حتى أن كثيراً من المناطق قد فضلت الدخول في معاهدة مع المسلمين على الحرب، ومن هذه المعاهدات تلك التي أبرمها خالد بن الوليد (ت ٢١هـ/ ٦٤١م) (٣٧) مع أهل الحيرة ومعه رؤساء فارس (٣٨)، وأهل المناطق الأخرى.

المبحث الثاني: دور الدبلوماسية في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه

بعد استقرار الأمور بيد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واصل المسلمون فتوحاتهم ونشرهم للدين الجديد، وكان للعلاقات الخارجية الأولوية في سياسة الدولة واهتمام عمر بن الخطاب، وقد كثف التحركات الدبلوماسية في اقامة العلاقات مع الملوك والأمراء في الدول الأخرى، كذلك في ظروف الحرب حيث تبحث البدائل السلمية قبل الحلول العسكرية وتقام الخطط والتحالفات لتأكيد الفوز وتوفير أكبر قدر من الضمانات للنصر، وتفاصيل ذلك كما يلي:

المطلب الأول: استخدام الدبلوماسية في فتوحات الشام ومصر

عقدت معاهدات في مناطق كثيرة في الشام، لَّما تبادل المسلمون مع سكانها الرسل والسفراء يدعونهم إلى الإسلام أو دفع الجزية، وقد وقع تلافي الحل العسكري فيها وفتحت سلما وطوعا، وهذا ما سجله التاريخ في واقعة اليرموك لما نزلت جنود المسلمين فاتحة، فقد أرسل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه سفيره يزيد بن أبي سفيان إلى الروم للمفاوضات، وقد قال هرقل إثر هذه الاتصالات الدبلوماسية:

«أن تصالحوهم، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخذتم من الشام وتأخذوا نصفا وتقرَّ بكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم» (٣٩).

لكن بطانته أصرت على الحرب، ففتح المسلمون هذه المناطق في واقعة كبيرة (٤٠).

كما ذهب عمرو بن العاص سفيرا إلى الروم في إحدى فتوحات الشام يفاوضهم على إيجاد حل سلمي لكنهم حاولوا أن يقتلوه، لذا لم تنجح المفاوضات ولجأ الفريقان إلى الحرب (٤١).

زيارة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى الشام وبيت المقدس

وتتويجا للجهود الدبلوماسية الناجحة التي قام بها أبو عبيدة بن الجراح مع أهالي بيت المقدس حين فتحها، قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام لكي يصالحهم بنفسه ويعطيهم المواثيق والعهود على حماية أنفسهم وممتلكاتهم واحترام ديانتهم ومقدساتهم (٤٢).

وكان سبب قدوم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام أن أبا عبيدة عندما حاصر بيت المقدس طلب أهله منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة واستخلف عليها علي بن أبي طالب (٤٣).

يروي الذهبي أن عمر قدم الجابية وهو على جمل أورق صلعته للشمس، بل عليه عمامة ولا قلنسوة، بين عودين، وطاؤه فرو كبش نجدي، وهو فراشه إذا نزل، وحقيبته شملة أو نمرة محشوة ليفاً وهي وسادته، عليه قميص قد انخرق بعضه ودسم جيبه (٤٤).

وفي الجابية عقد عمر معاهدة الصلح مع أهل إيلياء (٤٥)، أعطاهم فيه أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وكتب لهم شروطا في المعاهدة. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف (ت ٣٢هـ/ ٦٥٢م) (٤٦) ومعاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ) (٤٧) وحضر سنة خمس عشرة (٤٨).

□ الشورى الإسلامية، نظام حضاري، تُعرض فيه كل الآراء ويُؤخذ بأحسنها..

وكذا الشأن مع أهل اللدّ (٤٩) كما عاهد خالد بن الوليد أهل دمشق (٥٠) وكذلك فعل أبو عبيدة معهم (٥١) الذي توجه بعد فراغه من شؤون دمشق إلى حمص فمر ببعلبك فطلب أهلها الصلح والأمان فصالحهم (٥٢)، وقد وُقِّعتْ معاهدات أخرى في الشام أدت فيها الدبلوماسية وتبادل السفراء والكتب، دوراً كبيراً ومهماً، أغنى المسلمين عن الحرب وأغنى أهالي المناطق المفتوحة من الخراب والدمار.

وقد سلكت أغلب مصر هذا الأسلوب إذ فتحت دون حرب، وتستثنى مدينة الإسكندرية من هذا إذ فتحت عنوة (٥٣)، وقد تكفل عمرو بن العاص قائد جيوش المسلمين إلى مصر بعقد المعاهدات نيابة عن

خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، وقد تمت معاهدة أهالي مصر عندما نزلت الجيوش الإسلامية على القوم بعين شمس، وكان الملك بها بين القبط والنوبة، فقاتلهم وارتقى الزبير بين العوام (ت ٣٦هـ/ ٦٥٦م) (٥٤) سورها ونزل عليهم ولما لم يجدوا من محيص عاهدوه (٥٥).

المطلب الثاني: استخدام الدبلوماسية في فتوحات العراق وفارس في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه

تحول خالد بن الوليد من العراق إلى الشام وترك مقاليد الشؤون الحربية بيد المثنى بن حارثة الشيباني (ت ١٤هـ/ ٦٣٥م) (٥٦)، فبعث إليه كسرى سفارة وكتب له كتابا كما يلي:

«إني بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس انما هم رعاء الدجاج والخنازير ولست أقاتلكم إلا بهم» (٥٧).

□ الدولة الإسلامية شملت أهل كل الديانات بكل قيم ومفاهيم المواطنة..

فأجابه المثنى قائلاً:

«إنما أنت أحد رجلين، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكاذبين فضيحة عند الله الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما أضررتم إليهم، فالحمد الله الذي رد كيدهم إلى رعاة الدجاج والخنازير» (٥٨).

وبعد استمرار الفتوحات توجه عمر بن الخطاب إلى العراق، إثر بعض التراجعات العسكرية وجعل القائد على العراق سعد بن أبي وقاص (ت٥٥هـ/ ٦٧٥م) (٥٩) الذي قام باستعدادات كبيرة وقال عمر في هذه المناسبة. (والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب).

فلم يدع رئيسا ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به (٦٠) ورغم هذه الاستعدادات الكبيرة فقد أمر عمر بن الخطاب باستخدام الدبلوماسية قبل الحرب، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو في القادسية (٦١) أن: (ابعث إليه: قائد جيش الفرس) رجالا من أهل المناظرة والرأي والجدل فإن الله جاعل دعاهم توهينا لهم وملجأ عليهم»(٦٢).

هكذا تم تبادل البعثات بين سعد بن أبي وقاص وملك الفرس، هذه البعثات لم تنجح، وقد قال كسرى لسفراء المسلمين: (لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي)، ثم استدعى بوقر من تراب وقال احملوه على أشراف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرجوا من باب المدائن، حملت بعثة سعد بن أبي وقاص التراب، وقالوا لسعد: (فوالله لقد أعطانا مقاليد ملكهم» (٦٣).

ورغم فشل هذه المجهودات الدبلوماسية فقد بعث سعد بن أبي وقاص سفيره المغيرة بن شعبة (ت ٥٠هـ/ ٦٧٠م) (٦٤) إلى قائد قوات الفرس رستم (ت ١٣هـ/ ٦٣٤م) (٦٥) ، لكن نتيجتها كانت

الفشل (٦٦)، فلجأ الفريقان إلى الحرب، وانتصر المسلمون على الفرس واشتهر هذا الفتح عند العرب بالفتح الأعظم (٦٧).

هكذا كانت الخطوات الدبلوماسية حاضرة في كل مناسبة من مناسبات فتح العراق وفارس، وكانت مقدمة على أي خطوة عسكرية، بيد أن الحرب كانت هي الغالب في العلاقات مع الفرس، حيث لم تُجد معهم اللغة الدبلوماسية، ولكن النصر الكبير كان للمسلمين.

المطلب الثالث: تبادل البعثات الدبلوماسية بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والملوك المجاورين

قامت الدبلوماسية الإسلامية بدور نشيط في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنها تبادل البعثات بينه وملك الروم الذي ترك الحرب وكاتب عمر رضي الله عنه وتقرب إليه حتى أضحت مراسلاتهم أدبية ومن ذلك سؤاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كلمة يجتمع فيها العلم كله، فكتب إليه الخليفة خطابا جاء فيه: (أحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة» (٦٨).

كما أرسل ملك الروم إليه بقارورة وطلب منه ملأها بكل شيء فملأها ماءا وكتب إليه أن هذا كل شيء في الدنيا، كما كاتبه متسائلاً بين السماء والأرض، وبين المشرق والمغرب، فكتب إليه أن بينهما مسيرة خمسمائة عام للمسافر لو كان الطريق مبسوطا (٦٩)، وكذلك بادله الهدايا، كما بعثت أم كلثوم (٧٠) إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها (٧١) وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وكافأتها (٧٢) بأن أهدتها عقدا فاخرا، ولما وصلت هذه الهدية إلى عمر بن الخطاب أمر بإمساكها ودعا إلى الصلاة الجامعة،

> □ أهل الديانات الأخرى كل ما ضاقت صدورهم بتقبل المسلمين، اتسعت لهم صدور المسلمين..

فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال: «إنه لا خير في أمر أبرم من غير شورى، قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم)، فقال قائلون: (هو لها بالذي لها وليست امرأة الروم بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك) وقال آخرون: (قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبتع بها لتباع ولنصيب ثمناً)، فقال عمر بن الخطاب «الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها» فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها (٧٣).

ما نلاحظه في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الدبلوماسية الإسلامية قد تعددت مجالاتها وتشابكت ووجدت مجالات جديدة للفعل والتأثير،

وأصبحت من ضرورات السياسة اليومية لشؤون الدولة يستعملها الخليفة وولاة الولايات للاتصالات بينهم، كما يستعملها قواد الجيوش قبل الحرب وبعدها في تلقى التعليمات من المركز وفي التفاوض مع العدو، وقد كانت عنصرا مؤثراً في تحقيق الانتصارات، كما تستعمل في ربط أواصر التعاون والتبادل الودي والمنفعي بين المسلمين وغيرهم من ملوك البلدان المجاورة.

المبحث الثالث: دور الدبلوماسية في عصر عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما

المطلب الأول: استخدام الدبلوماسية في الحروب الداخلية

واصلت الدبلوماسية الإسلامية أداء دورها الفعال في تمهيد الطريق أمام الفتوحات الإسلامية ونشر الدين الحنيف وأيضاً في تفادي المشاكل الداخلية بالحوار والتفاوض، وفي تسيير شؤون الدولة في اتصال الخليفة بالولاة وبقواد الجيوش في ميادين الحرب، غير أن هذا العصر اتسم بنشوب فتنة خطيرة توقفت بسببها حركة الفتح (٧٤) وانتهت باستشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي هذا الجو المتوتر بدأت الدبلوماسية دورها، ووقع تبادل الخطابات وأصبحت الرسل تتردد بين علي ومعاوية رضي الله عنهما لفك الخلاف الناشئ عن مقتل عثمان رضي الله عنه.

□ الفتوحات الإسلامية، أخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة..

المطلب الثاني: استخدام الدبلوماسية في الهدنة بين علي ومعاوية رضي الله تعالى عنهما

ونتيجة للدبلوماسية المتبادلة بينهما - رضي الله عنهما - كانت العراق لعلي بن أبي طالب، وكانت الشام لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم أجمعين..

خلاصة هذا البحث: أن الخلفاء الراشدين قد ساروا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على خطاه ومنهجه السياسي، حيث كانوا يستعملون الدبلوماسية في كل المهام كطريق فعال في تحقيق الأهداف، فقد كانوا يرسلون البعثات الدبلوماسية ويكتبون الخطابات إلى الولاة والملوك والأعداء والأصدقاء، وقد تولت السفارات في عهدهم تحقيق أغراض دبلوماسية متعددة، مثل تبادل السفارة لتوثيق الصلات الاقتصادية والتجارية خصوصا، أيضاً لتبادل العطايا وفض المنازعات وعقد المعاهدات أو تبليغ الإنذارات للأعداء قبل بدء الحرب في حال عدم جنوحهم للسلم، أو لتسوية القضايا بإنهاء الحرب كوضع شروط الهدنة أو الصلح وتبادل الأسرى وتحريرهم بعد دفع فديتهم.

النتائج والخاتمة

بعد تقديم المعلومات عن الدبلوماسية في عصر الخلفاء الراشدين وتحليلها توصلت بحمد الله وتوفيقه إلى عدة نتائج .. أقدمها فيما يلي:

١) استعمل المسلمون كلمة السفارة بمعنى الدبلوماسية وهي عملية الصلح بين الناس بالحوار كما أن الدبلوماسية هي معالجة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات، فالسفارة والدبلوماسية إذن لفظان يستعملان بمعنى واحد.

٢) اتبع الخلفاء الراشدون سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأساليبه الدبلوماسية في حل النزاعات المحلية والدولية، وعصرهم قد أثبت أن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم للرجال قد آتت أكلها وأنتجت صنفا نادراً من المؤمنين الصادقين الذين أثبتوا صلابتهم في أوقات الحرج، فقدموا دليلاً رائعاً على أن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد ألقت بذورها في تربة خصبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا.

٣) استخدم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه الدبلوماسية أولاً لحل المشاكل الداخلية وانْتُخِبَ أبو بكر خليفة نتيجة المفاوضات والجهود السلمية وجهز أبو بكر قوة المسلمين لقمع الردة باستخدام السفارات إلى القبائل والملوك المجاورة وبعد قمع الردة توجهت دبلوماسية أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى حركة الفتوحات ونجحت في إعداد قوة كبيرة للفتوحات.

٤) واصل أبو بكر بعثة البعثات الدبلوماسية اتباعا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب سفراؤه إلى مصر والروم وعقدت المعاهدات السلمية في عصره، من هذه المعاهدات التي أبرمها خالد بن الوليد مع أهل الحيرة ومع رؤساء فارس وأهل المناطق الأخرى.

٥) وقد كان للعلاقات الدولية الأولوية في سياسة الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وقد كثف عمر بن الخطاب التحركات الدبلوماسية في إقامة العلاقات مع الملوك والأمراء في الدول الأخرى، كذلك في ظروف الحرب حيث بحث البدائل السلمية قبل الحلول العسكرية وقامت الخطط والتحالفات لتأكيد الفوز في توفير أكبر قدر من الضمانات للنصر.

٦) تبادل البعثات الدبلوماسية بين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه والملوك المجاورين ومنها تبادل البعثات والهدايا بين عمر بن الخطاب وملك الروم والسفارة قد تعددت مجالاتها في عصره وأصبحت من ضرورات السياسة اليومية لشؤون الدولة يستعملها الخليفة وولاة الولايات للاتصالات بينهم.

٧) أدت الدبلوماسية دوراً أساسياً في انعقاد المعاهدات بين المسلمين وغيرهم خاصة خلال فتوحات الشام ومصر وتمت معاهدات متعددة عن طريق السفارات.

٨) استخدمت الدبلوماسية الإسلامية في عصر عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب في حل النزاعات المحلية ووقف القتال بين المسلمين غير أن هذا العصر اتسم بنشوب فتنة خطيرة توقفت بسببها حركة الفتح وانتهت باستشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنهم وقد انقسم الجسم الإسلامي جراء هذه الأحداث ■

الحواشي والهوامش

١- انظر للتفاصيل : , diplomacy_ ,3rd edition_
nicolson ;
london,1969 p:4

سموحي فوق العادة « الدبلوماسية والبروتوكول» ، (دمشق ١٩٦٠م) ص١؛ وأبو هيف (علي صادق)، القانون الدبلوماسي، منشأة المعارف بالإسكندرية (١٩٧٥م)،ص١٨؛ عدنان البكري، العلاقات الدبلوماسية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت (١٩٨٦م) ص ١٤؛ ومحمد التابعي، السفارات في الإسلام، (مكتبة مدبولي بالقاهرة ١٩٨٠م) ص ٢٨

International encyclopedia of social sciences (new york),1973,p:3/187.
Adam Watson (editor), diplomacy the dialogue between states,(exre Methuen London,1982)p:3.
Encyclopedia Americana (crolier incorporated, 1991 , deluxe library edition) .p:9/141.

٢- انظر: hamish Hamilton concord diplomacy (London,1981),p:125.

٣- انظر : _ stow, . to diplomatic practices
ernest sir, _a guide
(4 th edition edited by sir nevila bland lon--guans careen , London , 1951) ,p: 3
Elmer plishke (editor),_modern diplomacy_, enterprise institute for public policy research, (Washington d.c, 1979),p:25.

٤ - انظر: الأشعل (عبد الله)، أصول التنظيم الإسلامي الدولي، (دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٨٨) ص ٣١٦-٣١٧، ومقالته « نحو إقامة نظام للدبلوماسية الإسلامية »، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية الليبية، طرابلس، العدد السادس، ١٣٩٨ هـ /١٩٨٩م، ص٧٤ .

حسن فتح الباب، الحصانات الدبلوماسية في الإسلام، مجلة الأزهر، الجزء الأول، السنة الرابعة والثلاثون، (القاهرة) محرم سنة ١٣٨٢هـ/ يونية ١٩٦٢، ص٤٨٦ .

٥- حسن فتح الباب، السفارات الدبلوماسية في الإسلام، مجلة المنار، العدد السابع، رجب ١٤١١هـ/ يناير ١٩٩١م، ص ١٩ .

٦- ابن منظور (محمد بن مكرم) (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، (دار الجيل ودار لسان العرب - بيروت ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م)، ص: ٣/ ١٥٥ .

٧- انظر: the oxford reference dictionary, p:232
Encyclopedia Americana p:9/141.

٨- ابن منظور, م. ن: ١٥٥/٣.

٩- انظر: oxford dictionary,p:15.

١٠- ابن هشام م ن : ٢٣١/٤ ؛ الطبري م.ن : ٢١٤/٣.

١١- هو أسامة بن زيد بن حارثة من كنانة عوف ، صحابي جليل ولد بمكة ونشأ على الإسلام وكان رسول الله يحبه كثيراً ، وهاجر مع النبي وأمّره الرسول قبل أن يبلغ العشرين من عمره فكان مظفراً موفقاً . انظر : ابن سعد ، الطبقات : ١٣٩/١ ؛ ابن عبد البر ، م. ن .ص : ٧٥/١؛ ابن حجر (شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني) (ت٨٥٢هـ/١٤٤٩م)، الإصابة في تمييز الصحابة ، (مؤسسة التاريخ العربي، ط١، دار إحياء التراث العربي ١٣٢٨هـ)، ص:٢٩/١ .

١٢- انظر: الطبري، م.ن.ص: ٢١٢/٣ ؛ ابن الأثير الكامل ،ص: ٣٣٥/٢ ؛ أرنولد ت. و: الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية ، ترجمة حسن إبراهيم وزملاؤه (مكتبة النهضة المصرية) ، ص.٤٦

١٣- الطبري التاريخ : ٢٢٣/٣ .

١٤- انظر: ابن الأثير ، الكامل : ٣٤٣/٢ ؛ حميد الله محمد ، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة

والنشر القاهرة : ١٩٤١م) ، ص٢٠٥ .

١٥- ابن الأثير، الكامل، ٣٤٣/٢ .

١٦- انظر لنص هذا الكتاب الطبري ، التاريخ ، ص: ٢٢٧/٣؛ حميد الله، الوثائق السياسية، ص: ٢٠٦ .

١٧- بعث أبو بكر البعوث وعقد أحد عشر لواء وأمر أمير كل جند باستنفار من مر به من المسلمين ومن أهل القوة وتخلف بعض أهل القوة لمنع بلادهم ، انظر : الطبري،م.ن،ص: ٢٢٤/٣-٢٣٠؛ ابن الأثير ، الكامل: ٣٤٣/٢ .

١٨- انظر: أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام،ص:٤٣ .

١٩- انظر: الواقدي (محمد بن عمر) (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م)، فتوحات الشام (مطبعة الأزهر المصرية بالقاهرة ، ١٣٠٢هـ)، ص: ٢/١ ، وقد كان أهل الشورى في عهد أبي بكر: عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ،انظر : أحمد زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية (مكان الطبع مجهول) ص: ٣٥/١ .

٢٠- الواقدي (محمد بن عمر) (ت٢٠٧هـ/٨٢٢م)، فتوحات الشام، ص: ٢/١ .

٢١- النساء: ٥٩ .

٢٢- الواقدي: م.ن:٣/١ .

٢٣- التوبة: ٤١ .

٢٤- هو أنس بن مالك بن النضر خادم الرسول ، الإمام المحدث وآخر أصحابه موتا ، مولده بالمدينة وأسلم صغيراً ومات بالبصرة . انظر: ابن سعد ، الطبقات، ١٧/٧ ؛ ابن الأثير ، أسد الغابة، ص: ١٥١/١؛ ابن العماد ، شذرات الذهب، ص:١٠٠/١.

٢٥- الواقدي، فتوحات الشام، ص٥/١ .

٢٦- هو يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أخو معاوية عن أبيه ، كان من العقلاء، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه ، توفي في دمشق بالطاعون ، وهو على الولاية، انظر : ابن الأثير، أسد الغابة ، ص: ٤٩١/٥ ، الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد) (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة . بيروت (١٤٠١هـ/١٩٨١ م): ٣٢٨/١؛ ابن العماد ، م.ن: ٢٤/١ .

٢٧- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) (ت ٣٤٦هـ /٩٥٦م) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (موفهم للنشر ـ الجزائر ١٩٨٩م) ص: ٣٥٧/٢ - ٣٥٨ .

٢٨- هو جريج بن مينا القبطي حاكم الإسكندرية . انظر: ابن كثير ، السيرة النبوية ، ص: ٥١٩/٣، ابن القيم ، زاد المعاد ، ص: ١٢٢/١ .

٢٩- هو حاطب بي أبي بلتعة اللخمي، صحابي شهد الوقائع كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أشد رماة الصحابة، وكانت له تجارة واسعة انظر: ابن سعد، م. ن، ص: ١١٤/٣، ابن الأثير، أسد الغابة، ص:٤٣١/١ .

٣٠- هو عمرو بن بن العاص وائل، أحد أعظم علماء العرب وأدهاهم، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً في أوائل سنة ثمان للهجرة ولاه معاوية على مصر سنة ٣٨هـ/ ٦٥٨م. انظر: ابن سعد م.ن، ص: ٢٥٤/٤، ابن الأثير، أسد الغابة، ص: ١١٥/٤ .

٣١- خليفة الخياط (العصفري) (ت.٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط براوية بقي بن خالد، تحقيق سهل الزكار دار الفكر، بيروت ـ لبنان ١٩٩٣م) ص: ١٠١، يقول محقق هذا الكتاب أن خليفة بن الخياط منفرد في هذا الخبر، انظر: مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص: ١١ . السيوطي جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م) ١/ ١٠٥ .

٣٢- هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري

الخزرجي، صحابي من الموصوفين بالورع شهد العقبة وبدراً وكان أحد النقباء وهو أول من ولي القضاء بفلسطين انظر: ابن حجر، الإصابة، رقم الترجمة: ٤٤٨٨ .

٣٣- هو هشام بن العاص بن وائل بن هاشم صحابي، هو أخو عمرو بن العاص أسلم بمكة قديماً وهاجر إلى بلاد الحبشة الهجرة الثانية، فشهد الوقائع وكان صالحاً شجاعاً. انظر: ابن سعد، الطبقات ص: ١٤٠/٤ .

٣٤ - هو جبله بن الأيهم بن جبلة الغساني من آل جفنة، آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام. عاش زمناً في العصر الجاهلي وقاتل المسلمين في دومة الجندل (١٢ هـ) وحضر اليرموك أسلم وارتد وخرج إلى بلاد الروم. انظر: ابن خلدون، المقدمة في التاريخ، ص: ٢٨١/٢ .

٣٥- روى البيهقي في كتابه دلائل النبوة عن الحاكم، أن اسناده لا بأس به، كذلك انظر: القلقشندي (أبو العباس محمد بن علي) (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، كوستاتسوماس وشركاؤه ـ القاهرة: ٣٦٠/٦، المنجد (صلاح الدين)، فصول في الدبلوماسية، (الرسل والسفراء في بلاد المغرب وبلاد العرب) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م. ص ١٠٤.

٣٦- كما يعتبرها المستشرقون ويسمونها حروبا دينية، ١٦٦، انظر Washington, Lives of lrving Muhammad and his Successors_ (Paris, 1840) p: 174

٣٧- هو خالد بن الوليد بن المغيرة، سيف الله المسلول وفارس الإسلام، سماه النبي صلى الله عليه وسلم سيف الإسلام، فتح الله على يده كثيراً من المناطق، انظر: ابن هشام ن.م، ص: ٢٧٦/٢، ابن الأثير، أسد الغابة: ١٠٩/٢، ابن العماد، شذرات الذهب: ٦٣٢/٢.

٣٨- الطبري م. ن: ٤/٤

٣٩- الطبري التاريخ : ٣٧/٤

٤٠- م. ن ٣٧/٤

٤١- الطبري م. ن: ١٥٧/٤، ابن الأثير الكامل: ٤٩١/٢ .

٤٢- البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر) (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان)تحقيق عبدالله أنيس الطباع، مصر أنيس الطباع. دار النشر للجامعيين ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م) ص ١٨٩ ابن الأثير، الكامل: ٥٠٠/٢ ابن كثير، البداية والنهاية (ط. ١ . مكتبة المعارف ـ بيروت، مكتبة النصر) (الرياض ١٩٦٦م) ص٥٤/٧ .

٤٣- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (دار القلم، بيروت) ص: ١٥٩/٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ (دار صاد بيروت ١٩٧٩م) ص: ٥٠٠/٢ .

٤٤- الذهبي، تاريخ الإسلام، ص: ١٦٢/٢

٤٥- إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، قيل معناه بيت الله، يقول الفرزدق: قد سمي البيت إيلياء). انظر: ياقوت، معجم البلدان: ص/ ٢٩٣/١ .

٤٦- هو عبدالرحمن بن عوف بن عبد الحارث، صحابي من أكابرهم وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم وأحد السابقين إلى الإسلام.
انظر: ابن حجر، الإصابة، رقم الترجمة: ٥١٧١ .

٤٧- هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر، صحابي أعلن إسلامه عام الفتح شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا والطائف وهو مؤسس الدولة الأموية.
انظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب، ص: ٣/ ١٤١٦، ابن الأثير، الكامل، ص: ١١/٤ .

٤٨- الطبري م. ن: ١٦٠/٤ ـ ١٦١ حميد الله، الوثائق: ص: ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

٤٩- انظر: الطبري م. ن: ١٦٠/٤ ـ ١٦١، حميد الله، الوثائق، ص: ٢٦٩. واللد هي قرية قريبة من بيت المقدس من نواحي فلسطين. انظر: ياقوت، معجم

البلدان، ص: ١٥/٥.

٥٠- أبو عبيد (القاسم بن سلام) كتاب الأموال (ط. ١، مؤسسة ناصر للثقافة، نوفمبر ١٩٨١م)، ص ٩٢ البلاذري، م. ن، ص: ١٢١.

٥١- انظر: أبو يوسف: الخراج، ص: ٨٠ .

٥٢- البلاذري: م. ن، ص: ١٢٩

٥٣- السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، صد: ١٢٥/١.

٥٤- هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، حواري الرسول وابن عمته صفية بنت عبدالمطلب، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة من أهل الشورى، انظر: ابن الأثير، أسد الغابة: ٢٤٩/٢ ابن حجر، الإصابة، ص: ٥/٧ ـ ٩، ابن العماد، شذرات الذهب: ٤٢/١ .

٥٥ ـ القلقشندي، صبح الأعشى، ص: ٣٢٤/١٣، أبو عبيدة، م.ن، ص: ٦٨، حميد الله،الوثائق، ص: ٢٧٥.

٥٦- هو المثنى بن الحارث بن سلمة الشيباني، صحابي فاتح من كبار القادة، أسلم سنة ٩هـ وغزا بلاد الفرس من أيام أبي بكر، فاكرمه وأمّره على فرقة، ولما تولى عمر الخلافة أمده بجيش عليه أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وكذلك أمده بجيش يقوده سعد بن أبي وقاص، لكنه استشهد قبل وصول سعد متأثراً بجروحه في الحروب. انظر: ابن الأثير، الكامل، ص: ٤٣٢/٢، ابن كثير، البداية: ٤٩/٧.

٥٧- ابن الأثير، م. ن: ٤١٥/٢

٥٨- ابن الأثير، م. ن: ٤٥٢/٢ .

٥٩- هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي، فاتح العراق ومدائن كسرى، أحد العشرة المبشرين بالجنة، فتح القادسية، وله في الصحيحين حديثاً. انظر: ابن سعد، الطبقات، ١٧٦/١، ابن عبد البر، م، ن: ٦٠٦/٢، ابن الأثير، أسد الغابة: ٣٦٦/٢ ـ ٣٧٠، الذهبي/ النبلاء: ٩٢/١.

٦٠ ـ انظر : الطبري، م.ن: ٨٧/١

٦١- القادسية هي منطقة قريبة من الحيرة وكان العرب يعتبرونها باب الفرس في الجاهلية، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ص ٥/٧ .

٦٢- الطبري، م. ن، ٩٢/٤، ابن الأثير، م.ن: ٤٥٦/٢ .

٦٣- البلاذري: فتوح البلدان، ص: ٣٥٩، الطبري، م. ن: ٩٤/٤، ابن الأثير، م. ن: ٤٥٨/٢ .

٦٤- هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود، أحد دهاة العرب وقادتهم، من كبار الصحابة وأول في الشجاعة والمكيدة، شهد بيعة الرضوان.

٦٥- هو رستم بن نزال الملقب بالشديد، بطل مشهور من رجال الفرس، وكان مشهوراً في الشجاعة والشدة، نسب إليه أهل فارس أعمالا كثيرة، قتله عمرو بن معد يكرب يوم القادسية. انظر: الطبري التاريخ، ٩١/٤ ـ ٩٤، ابن الأثير، الكامل: ٤٧٩/٢ .

٦٦- الطبري: ٩٤/٤، البلاذري، م. ن، ص: ٣٥٨، ابن كثير، البداية والنهاية: ٣٩/٧ .

٦٧- عبد المنعم ماجد، م. ن: ٣٠٢/١.

٦٨- انظر: الطبري م. ن:٥٢/٥ .

٦٩- الطبري م. ن: ٥٢/٥ .

٧٠- هي أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، الهاشمية، شقيقة الحسن والحسين، ولدت في حدود سنة ستة للهجرة ورأت النبي، خطبها عمر بن الخطاب وهي صغيرة وأصدقها أربعين ألفاً. أنظر: ابن الأثير، أسد الغابة: ٣٨٧/٧٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٥٠٠/٣ .

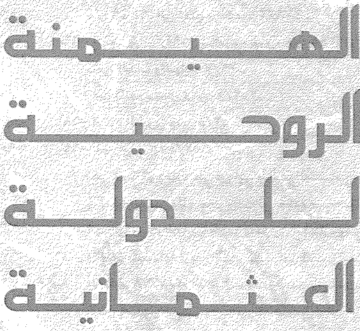
٧١- انظر: الطبري/ ٥٢:٥، ابن الأثير، الكامل : ٩٦/٣.

٧٢- انظر: الطبري، م.ن: ٥٢/٥، نجيب الأرمنازي، الشرع الدولي في الإسلام، ص: ١٥٣.

٧٣- انظر: الطبري: ٥٢/٥، ابن الأثير، الكامل: ٩٦/٣، نجيب الارمنازي، م. ن، ص: ١٥٣.

٧٤- انظر التفاصيل: ابن الأثير، الكامل: ١٥٤/٣ وما بعده، عبدالمنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية: ٢٥٤/١ .





□ أبارك لكم صدور العدد الممتاز رقم ٥٩٩ من مجلة المنهل بعنوان التاريخ والمؤرخون، الذي أثلج نفوس العديد من العاشقين والمحبين لعلم التاريخ، لتنوع عناوين الأبحاث، وارتقائها إلى الفكر العلمي المميز لإصدارات مجلتكم الغراء، ولا أريد الإطالة، فلا مجال لذلك، ولعلها رغبة مني في المشاركة بما طرحته مجلتكم من مواضيع فكرية راقية لم يكن لي مفر من متابعة بعضها، والتعليق عليها إن سمح نظام المجلة بذلك، ومما شدني لذلك مقال للدكتور خالد عزب بعنوان (الهيمنة الروحية للدولة العثمانية على العالم الإسلامي) الذي أجاد فيه وأجزل العطاء في منح الدولة العثمانية ما تستحقه من تكريم كدولة إسلامية، أعادت إلى أذهان المسلمين ذكريات أمجادهم السابقة التي خلفتها لهم الدولة العباسية، وبقدر إجادته وإجزاله العطاء فقد كان منصفاً أيضاً عندما حمّل الدولة العثمانية مسؤولية انهيارها بإهمالها للشؤون الداخلية للدولة، وعدم تجديد دمائها على فترات متفاوتة حتى لا تترهل، وتضعف نتيجة للجمود، وبين الإجادة والإنصاف كنا على موعد معه في رحلته مع الدولة العثمانية منذ فتوحاتها الأولى، إلى ضم الدول الإسلامية، ومد أذرعتها لعون المسلمين مروراً بفكرة الجامعة الإسلامية، ونهاية بالقوة الحربية الأوروبية وضعف الدولة العثمانية اللذين أسرعا بانهيارها.

د. غسان بن علي الرمال

رابطة العالم الإسلامي -مكة المكرمة

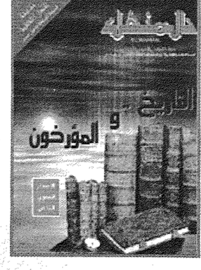
هذا سوف تشمل ملاحظاتي فقرة محددة من بحث د. خالد وهي الصفحات ٧٩-٨٠ المتعلقة بضم السلطان سليم الأول لمصر والشام، حيث مهد لذلك بالأوضاع السيئة والمتردية التي وصلت إليها دولة المماليك، وظلم المماليك للعباد، وتصارعهم مع بعضهم البعض، والانهيار الاقتصادي لهذه الدولة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وكيف أن علماء مصر دعوا العثمانيين لضمها إلى دولتهم، واكد الباحث على ذلك بمجموعة من المصادر هي:

١- عبدالله رضوان وكتابه تاريخ مصر.

٢- ما ذكره يانسكي في كتابه عن السلطان سليم الأول وعلماء مصر.

٣- وثيقة محفوظة في طوب قابي سراي باسطنبول برقم ١١٦٣٤/ ٢٦.

هذه المصادر تمكن الباحث بعد الإطلاع عليها من الخروج بمجموعة من الاثباتات تؤكد الهيمنة الروحية للعثمانيين على العالم الإسلامي، وهو أمر لا يستطيع أن ينكره أي باحث منصف اطلع على الدور الحقيقي للدولة العثمانية التي قيض الله لها أن ترفع راية الجهاد في وقت تكالبت فيه القوى الصليبية في عدوانها على العالم الإسلامي عبر جبهات ثلاث، الأولى آسيا الصغرى (الأناضول) وهو الطريق الطبيعي لأوروبا نحو بلاد الشام وفلسطين والعراق، والثانية شمال أفريقيا انطلاقاً من إسبانيا بعد طرد المسلمين منها، والثالثة هجمات القراصنة في البحر المتوسط.



وعودة إلى المصادر التي اعتمدها الباحث في نظريته حول الهيمنة الروحية للدولة العثمانية على العالم الإسلامي فقد ذكر أن المصدر الأول أشار إلى أن علماء مصر كانوا يلتقون سراً بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه شكواهم من جور الغوري، ويقولون له بأن الغوري يخالف الشرع الشريف، ويستنهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتي ويضم مصر، أما المصدر الثاني فقد أشار إلى أن علماء مصر كانوا يراسلون السلطان سليم الأول منذ بداية توليه

عرش بلاده، لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه ليستولي عليها، ويطرد منها الشراكسة، أما في الشام فقد رحب أهلها بمقدم العثمانيين، قبل قدومهم الفعلي، فعلى سبيل المثال كان الغوري قد تحرك من مصر بجيوشه إلى الشام وفوجئ بأن الأهالي لقنوا أطفالهم صيحة (ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم).

أما المصدر الثالث فقد أشار إلى اجتماع العلماء، القضاة الأعيان، الأشراف، وأهل الرأي مع الناس ليتباحثوا في حالهم ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة نيابة عن الجميع يخاطبون فيها السلطان سليم الأول، ويرحبون به، وقد طلبوا منه أن يرسل إليهم رسولاً من عنده يقابلهم سراً ويعطيهم عهد الأمان حتى تطمئن قلوب الناس ولم يحدد الباحث من المقصود بذلك أهل الشام، أم أهل مصر هم الذين طلبوا هذا الطلب، وبالرجوع إلى المرجع الذي استمد منه الباحث هذه المعلومة اتضح أنهم أهل حلب.

هذه مجموعة من الأقوال التي ذهب إليها الباحث، ونحن هنا لسنا بصدد مقارعة المؤلف، أو محاولة إثبات الرأي الأجدر، ولكننا قد نكون في حالة تراشق علمي سليم ومحمود إن شاء الله-، يكون الحكم فيه للمصادر العربية المعاصرة التي لم يذكرها الباحث ولم يحاول مقارنة ما أشار إليه بما جاء فيها، وليس من رأي شخصي يمكن دفعه أو إعطاؤه الأولوية، ولكن من حق كل باحث أن يتساءل من هو هذا المؤرخ عبدالله رضوان وكتابه تاريخ مصر، هل هو باللغة العربية، أم بالتركية، وهل هو مخطوط، أم مطبوع، وهل كان المؤلف معاصراً للسلطان سليم الأول عند ضمه لمصر والشام أم لا؟ هذا ما يتعلق بالمؤلف. أما بشأن المعلومات التي أوردها عبدالله رضوان من أن علماء مصر يلتقون سراً بكل سفير عثماني يأتي إلى القاهرة ويقصون عليه شكواهم من جور الغوري، ولا شك في أن المسلمين في مصر والشام كانوا في حاجة ماسة لمن ينقذهم ويخلصهم من الحكم المملوكي، ولكن نظرة متعمقة في أهم المصادر المملوكية المعاصرة في ذلك الوقت، وهي ابن إياس وكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور (١)، ابن طولون وكتابه مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (٢)، ابن سباط وكتابه صدق الأخبار في تاريخ ابن سباط(٣)، ابن زنبل الرمال، آخرة المماليك (٤)، نراها قد التزمت الصمت تماماً عن ذكر مثل هذه الأخبار ليس لندرتها وقلتها، ولكن لغرابتها واستحالة عدم تسجيلها ضمن الأحداث

اليومية، فمؤرخ مصر المملوكية ابن إياس، والمعاصر للأحداث منذ تولي السلطان سليم الأول الحكم عام ٩١٨هـ لم يكن بالذي يغفل عن تسجيل مثل هذا الحدث، والمتتبع ليومياته يلاحظ تسجيله لأدق التفاصيل التي كانت تمر بها مصر يومياً، فعلى سبيل المثال لا الحصر ذكر ابن إياس (٥) وصول أحد ندماء الغوري من خارج البلاد، وأنه كان مسافراً من قبل السلطان الغوري سراً إلى الشاه إسماعيل الصفوي في خبر سر وخفية بين الطرفين، ورغم تلك السرية فقد انتشر خبر هذا الرسول، كذلك ليس بالأمر السهل والهين أن يجتمع هؤلاء مع رسول سليم الأول دون أن يصل أمر ذلك إلى الغوري، ولا يتخذ الإجراء اللازم.

ولو أن أمراً مثل هذا قد حصل لفقد السلطان ثقته في القضاة، ولم يكن له أن يخصهم بالمكانة المرموقة التي كانوا يحظون بها عنده سواء عند صعودهم إليه مع بداية أول الشهر للسلام عليه، أو عندما يتقدموه عند سفره إلى الشام، وذلك إمعاناً منه في إظهار احترام العقيدة الإسلامية وفي مقدمتها إشعاره للمسلمين بأن المذاهب الأربعة المتعارف عليها سارية المفعول في البلاد.

أيضاً لا ننسى أن طبيعة العصر المملوكي كانت تجبر السلاطين والولاة على اتخاذ الحيطة من الغرباء والسفراء خاصة أن مصر كانت في ذلك الوقت عرضة لأخطار الحروب الصليبية، الحصار الاقتصادي، غارات القرصنة الأوروبية، لهذا كانوا يتوجسون من السفراء ويشكون في تصرفاتهم، حتى لقد جرت العادة أن السلطان هو الذي يحدد مكان إقامة الرسول، ويعين حراساً يمنعون دخول العوام إليه (٦)، لهذا لم يكن من السهل أن يجد السفير العثماني الطريق أمامه ممهداً للاجتماع إلى علماء مصر دون أن يكون هناك رقيب عليه.

وهناك رواية قوية يؤكدها ابن إياس أن السلطان سليم الأول بعد فراغه من هزيمة المماليك في مرج دابق، دخل مدينة حلب، وحضر إلى مجلسه قضاة القضاة المصريين (٧) فوبخهم سليم بالكلام وقال لهم (إنتو تأخذوا الرشوة على الأحكام الشرعية وتسعوا بالمال ليش ما كنتم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التي كان يفعلها بالناس). ولم يكتف سليم بذلك أيضاً، وإنما جعل القضاة في الترسيم بحلب لا يخرجون منها إلا أن يأذن لهم ابن عثمان.. وأخيراً، وليس بآخر فإن أمراً مثل هذا لن يسكت عليه بقية المماليك الذين تركهم سليم في القاهرة بعد عودته إلى اسطنبول، وكان من المؤكد أنهم سينتقمون لأستاذهم الغوري،

وكذلك لهزيمتهم في مرج دابق، كما حصل لبعضهم عندما قاموا بقتل من تسبب في تسليم السلطان طومان باي للسلطان سليم الذي أعدمه فوراً دون انتظار، ونقصد بذلك بعض زعماء القبائل العربية في مصر أمثال حسن مرعي، وابن عمه شكر اللذين قتلا من قبل المماليك شر قتلة. هذا عن المصدر الأول الذي ذكره الباحث، أما ما يتعلق بالمصدر الثاني وهو ما ذكره يانسكي من أن الغوري عند تحركه من مصر بجيوشه لملاقاة السلطان سليم في بلاد الشام فوجئ بأن الأهالي لقنوا أطفالهم صيحة (ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم)، وهذه الرواية لا وجود لها أيضاً ضمن المصادر المملوكية الخاصة بمصر والشام، ولا أعتقد أن أحداً ممن أشرنا إليهم من مؤرخي المماليك سيتجاوز هذا الخبر دون ذكره ضمن اليوميات التي كنا نجد فيها تفصيلات دقيقة، بل على العكس من ذلك فقد روى المؤرخ العثماني منجم باشي أحمد ده ده (ت ١١١٣هـ) في كتابه جامع الدول (٨)، أن السلطان سليم بعد أن قبض على طومان في القاهرة كان الجماهير ينادون دوماً بقولهم (الله ينصر السلطان طومان باي) وكانوا يترقبون خلاصه وخروجه، فهذه رواية مؤرخ عثماني نقلها عن المؤرخين العثمانيين المعاصرين لضم سليم لمصر، ومع خروج السلطان الغوري من حلب لملاقاة سليم كتب الغوري إلى أعيان دمشق وعلمائها (أنه عزم على التوجه إلى ملاقاة ملك الروم سليم، وأنه يسأل الدعاء من أهل دمشق له، فاجتمع قضاة دمشق الأربعة في جامع بني أمية بعد الصلاة، وكانوا يقرأون سورة الأنعام، ودعوا للسلطان وعسكره) (٩).

وأيضاً لا ننسى أمراً هاماً وهو أنه مع دخول العثمانيين مصر حافظ الشعب المصري على ولائه للمماليك، ونسوق دليلاً على ذلك. وهو إنه عندما دخلت رؤوس حسن مرعي وابن عمه شكر إلى القاهرة عمتها الفرحة، وانطلقت الزغاريد في المكان فرحاً بقتل من كان سبباً في إعدام طومان باي آخر سلاطين المماليك على باب زويلة، أليس في ذلك ما يدل على ولاء الشعب المصري والسوري للمماليك؟

أما ما يتعلق بالمصدر الثالث، وهو الوثيقة التي أشار إليها الباحث إلى أنها محفوظة في متحف طوب قابي سراي، والمتضمنة رغبة سكان حلب من السلطان سليم إرسال رسول من عنده يقابلهم سراً ويعطيهم الأمان فنحن نسلم بوجودها، ولا ننكر محتواها، وجل ما نستطيع الإشارة إليه أن

ذلك الأمر صمت عنه مؤرخ الشام ابن طولون، ولم يشر إليه، والحال كذلك بالنسبة للمؤرخين ابن إياس وابن زنبل الرمال، وطالما أن الرغبة كانت موجودة لدى أهالي حلب بطاعة العثمانيين فلماذا لم يقوموا بمهاجمة المماليك الموجودين بها وعلى رأسهم محمد ابن السلطان قانصوه الغوري خاصة بعد علمهم بهزيمة المماليك في مرج دابق، وصحيح أن أهل حلب رفضوا دخول بقايا المماليك المهزومين إلا أن رفضهم ذلك كان بسبب أن المماليك قبل خروجهم إلى المعركة أودعوا أموالهم لدى أهالي حلب الذين طمعوا بها، ومنعوهم من الدخول (١٠)، وكذلك أين عهد الأمان الذي قطعه سليم على نفسه؟ وقد هجمت جنوده على دمشق بعد هزيمة المماليك في مرج دابق، وعلى ضواحيها للسكني لها، فأخرجت أناس كثيرة من بيوتها، ورميت حوائجهم ومؤنهم، وطرح جمع من النساء الحبالى، وحصل على الناس شدة لم تقع لأهل دمشق وضواحيها قط (١١).

وختاماً، فليس فيما ذكر تحامل على الدولة العثمانية، ولكن لطبيعة البحث العلمي كان لا بد لنا من استعراض ما هو متوفر من الآراء والمرويات ومناقشتها مناقشة علمية تفتح سبل الاتصال بين الباحثين لتنمية مصادر المعرفة.

والله من وراء القصد،،،،■

الهوامش:

١- ابن إياس، (أبو البركات أحمد بن محمد)، ت ٩٣٠هـ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الطبعة الثانية، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، خمسة أجزاء (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢- ابن طولون، (شمس الدين محمد)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، جزآن (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م- ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

٣- ابن سباط الغربي (حمزة بن أحمد بن عمر)، صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري (لبنان: جروس برس ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

٤- ابن زنبل (أحمد الرمال)، آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، الطبعة الثانية، تحقيق عبدالمنعم عامر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م).

٥- ابن إياس، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص٣٥.

٦- ابن إياس، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص١٢.

٧- ابن طولون، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص ٣٠.

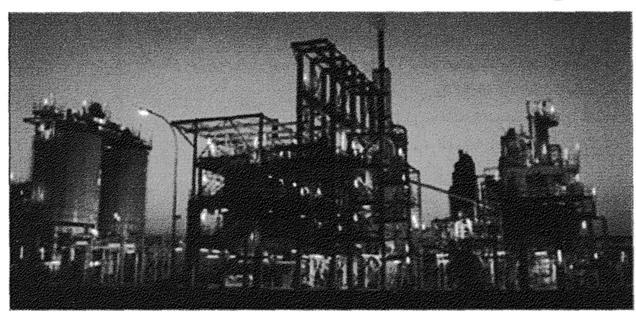
٨- د. غسان علي الرمال (جامع الدول (قسم الدولة العثمانية، دراسة وتحقيق) لمنجم باشى أحمد ده ده، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى كلية الشريعة، الدراسات العليا التاريخية ١٤٢٠هـ).

٩- ابن طولون، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص٢٣.

١٠- ابن طولون، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص٢١.

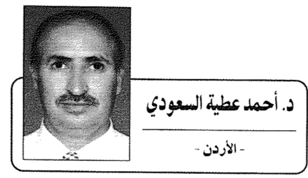
١١- ابن طولون، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص٣٤.





هجوم الكوليسترول على أنابيب البترول

□ حكى أبو البركات الأنباري (١) قال:
ما شغفتُ بشيء كشغفي بالمنازلة بين الفرقاء، والمناصرة بين الحكماء، والمساجلة بين الأدباء، فلا أكاد أسمع بمماحكة حتى أهرع إليها، وأدونها في صحائف انطوت المحاسن تحت رقّ منشورها، وصدحت حمائم البلاغة على أغصان سطورها. وكان من أعجب ما دوّنتُ هذه القصة الطريفة، والحكاية الظريفة: لما لقيت أستاذي نفطويه (٢) سألته عما اشتجر بينه وبين ابن دريد (٣) من خلافٍ وإحن، وقلبِ ظهرِ المجن (٤) فقال:


د. أحمد عطية السعودي
- الأردن -

لقد تعدى ابن دريد وبغى حين وضع كتاب "الجمهرة" (٥) فهجوته لأردعه عن الظلم والافتراء، ولأبين للناس تهافته وتفاهته.

قلت: فماذا قلت في هجائه، وتسفيه كتابه وآرائه؟

قال:

ابن دريد بقرهْ
وفيه عيٌ وشرهْ
ويدّعي من حمقه
وضع كتاب الجمهرهْ
وهو كتاب "العين" إلا
أنه قد غيّرهْ!

قلت: وما الذي ادعاه في كتابه الجمهرة يا أبا عبدالله؟

قال: ادعى أنه أعلم الناس بالنفط، وأنه أحد خبراء النفط، فلا الخليل يجاريه، ولا سيبويه يباريه!

قلت: فما كان من أمره لما علم بهجائك له؟

قال: أدلع لسانه (٦)، وصبّ جام غضبه علَي، وحاول تشويه سمعتي في منظمة "الأوبيك" فقال يهجوني:

لو أنزل الوحي على نفطويه
لكان ذاك الوحي سخطاً عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه
مستأهل للصفع في أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه
وصير الباقي صراخا عليه

قلت: ولكنك أقذعت في هجائه فلم صورته بقرة؟

قال: لأنه كرَعَ النفط من "عين" الخليل فتفزز شحماً ولحماً، وامتلأت شرايينه وأنابيبه بالكوليسترول (٧).

قلت: لا مراء أن العرب القدامى قد عرفوا النفط فاستعملوه في الإضاءة والاستصباح وفي الأدوية والاستطباب، وفي الحرب والإحراق، وأنك أحد الخبراء النفّاطين الذين لا يشق لهم غبار، لكني رابني أمر "أوبيك"، ولست أدري أهي نار إغريقية أم مشاعل ليلية أم ماذا؟

قال: بل هي هيئة دولية تنضوي تحت لوائها بعض الدول المصدرة للبترول، وتعنى بشؤونه وأسواقه وأسعاره وتحديد سقف إنتاجه.

قلت: كيف ننسب إلى أوبيك؟ هل نقول: أوبيكي أو أوبيكاني؟ أم نلقّب من ينتسب إليها نفطويه؟ قال: إن كان كذلك فمن ليس فيها يسمى لحسويه!

قلت: مَنْ لحسويه هذا؟

قال: ذاك الذي يلحس ويتأوه، ويفتح فمه وبطنه، ويمد يده، فإذا اغتنى أسرف وطغى، وعلى الشواطئ ارتمى، وظن أنه بمعزل عن الكوليسترول في الدماء، والتخمة في الأمعاء، والخلطة في الأعضاء!

قلت: لا ينبغي لأهل النفط أن يهدروا أموالهم في الاستكثار من الملابس والمراكب، والأطعمة والأشربة، فإنَّ مَن اشترى مالا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه، والاقتصاد نصف المعيشة.

قال: يا أبا البركات، قد أضحى البترول أعظم سبيل للنهضة والوحدة والمدنية والقوة، وهنيئاً لمن

يفيد من ثمراته، ويسلم من جمراته، إنه طاقة كبرى للمصانع والمركبات والطرق والعقاقير، والتدفئة والتبريد، وإنارة البيوت.

قلت: يا أبا عبدالله، فهمتُ مرادك، ولكنني لم أفهم لِمَ يُظْهِر المستخدمون في النفط تيهاً وتكبراً، وقد أوصاهم الخليفة بالتواضع والتسامح؟

قال: لا عجب، فالمال مظنة الغرور وسرج الحبور، وذا الذي فتن أحد الولاة على عيون النفط فصال تيهاً وعربد، فكتب إليه صديقه الشاعر عبدالصمد بن المعذّل (٨) يقول:

لعمري لقد أظهرت تيهاً كأنما
توليت للفضل بن مروان منبرا
ما كنت أخشى لو وليت مكانهُ
عليَّ أبا العباس أن تتغيرا
بحفظ عيون النفط أحدثت نخوة
فكيف به لو كان مسكاً وعنبرا
دع الكبر واستبق التواضع إنه
قبيح بوالي النفط أن يتكبّرا !

قلت: إن الخلق العظيم هو ميزان التحضر والرقي يُنبت الخير في الربوع أينما حلّ كشجرة التوت ذات التشكّل المعجب المبهج!

قال: وكيف ذاك يا أبا البركات؟

قلت: انظر إلى شجرة التوت يأكلها الدود فيحولها إلى حرير، ويأكلها الغزال فتكون مسكاً، وتأكلها الشاة فتصير لبناً وسمناً، وتمتصها النحلة فتغدو شهداً مُصفّى!

قال: وكذا ينبغي أن يتشكل البترول: رخاء اقتصادياً، وازدهاراً اجتماعياً، وعطاء خيرياً، وقوّة حربية، فهو نعمة متعددة الأشكال منه الغاز والكاز، والزفت والسولار والبنزين!

قلت: وهذه المشتقات البترولية عربية خالصة الأسماء، لا لحن فيها ولا التواء؟!!

قال: أجل، وقد نظم فيها شعراء المَحْجَر قصائد حلوة سمّوها النفطيات، وعلّقوها على أستار الأوبيك، فبزّوا بها شعراء اليونسكو (٩) وخلفاء تشاوتشيسكو (١٠)!

قلت: فأتحفني إذن ببعض الأبيات.

قال: لو اتسع الوقت لأسمعتك مجلدات، لا بأس فاسمع:

من القادحات النار تضرم للصلى
فليس لها يوم اللقاء خمودُ
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج
كما شبَّ من نار الجحيم وقودُ
لها شعل فوق الغمار كأنها
دماء تلقتها ملاحف سودُ
تعانق موج البحر حتى كأنه
سليط لها فيه الذبال عتيدُ (١١)!

قلت: أنت أعرف بالذهب الأسود، وضخامة منشأته، وعمق آباره، وتذبذب أسعاره، ومع ذلك لم تسلم من نقد ابن دريد وابن لحسويه وابن لسانويه وابن بطنويه واتهامهم شخصك بالسمنة المفرطة، والنوم على الكظة، فما قلت في منتقديك؟

قال: لما كثر الانتقاد والاتهام أنشأت منبراً حراً في منظمة أوبيك للرد على المعارضين، وكنت أول من رقيه مدافعاً عن سقف الإنتاج وقلت:

دقت طبول الحقد والتجريح
لتصوّر الإلحاد في تصريحي

ألأنني بيّنت ما هو واقع
في أوبيك وبدون كيل مديح
ثارت بيانات وكانت ضجة
من كل ديك في الكلام فصيح
هذا الزمان تبدلت أحكامُه
وغدا صحيح القول غير صحيح
ولقد نظرت إلى البعيد فلم أطق
صمتاً وسوق النفط مثل ذبيح
أو ينكرون بأن هيكل سعرنا
أضحى كريش في مهب الريح؟
عجزت لجان رقابة عن صونه
فبنت له حرماً من التسبيح
هل هكذا نحن اتفقنا أم ترى
ما قلته يحتاج للتصحيح (١٢)؟!

قلت: الأحسن أن تقول في البيت الأول دقتْ براميل الحقد، لأن البراميل أولى بالشحن والتحميل، وأنسب لمقام البترول، وأمّا الطبول فهي لذوي الفضول الذين يعيشون متفرّجين مستطلعين كما زعم المتنبي:

إذا كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ
ففي الناس بوقات لها وطبولُ!

قال: هذا دأبك يا أنباري، ضيعت عمرك في النقد والمسائل، وكتابة الرسائل، وإنشاء التعليقات والحواشي، ولم تنتج ولو صفيحة واحدة من لبن أو عسل أو زيت، وشغلك أكل اللحم والدجاج عن العمل والإنتاج، وشغفت بالمماحكة واللجاج حتى ألفت "الإنصاف في مسائل الخلاف" ورغبتَ عن رسالتي المشهورة:

هجوم الكوليسترول على أنابيب البترول!! ■

الهوامش:

(١) أبو البركات الأنباري: عبدالرحمن بن محمد من كبار علماء النحو له كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين، ت ٥٧٧هـ ١١٨١م.

(٢) نفطويه: أبو عبدالله إبراهيم بن محمد إمام في النحو وفقيه، جالس الملوك والوزراء، كان دميم الخلقة، ت ٣٢٣ هـ ٩٣٥م.

(٣) ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن، عالم جليل في اللغة، من تلاميذه: الأصفهاني والقالي والسيرافي: ت ٣٢١هـ ٩٣٣م.

(٤) إحن: مفردها إحنة: الحقد والظغن. قلب له ظهر المجن: كناية عن المجاهرة بالعداوة.

(٥) الجمهرة: معجم لغوي ألفه ابن دريد على طريقة الخليل الفراهيدي في كتابه "العين".

(٦) أدلع لسانه: أخرجه.

(٧) الكوليسترول: زيادة نسبة الدهنيات في الجدران الداخلية للأوعية الدموية.

(٨) عبدالصمد بن المعذل: شاعر عباسي ولد ونشأ بالبصرة، كان هجّاءً ٢٤٠م.

(٩) اليونسكو: منظمة التربية والعلوم والثقافة في الأمم المتحدة.

(١٠) تشاوتشيسكو: زعيم شيوعي حكم رومانيا بالحديد والنار، أطيح به وأعدم أمام الناس في أواخر الثمانينيات.

(١١) الأبيات لابن هاني الأندلسي ت ٣٦٢هـ ٩٧٣م في وصف سفن عربية محاربة بشُعل النفط الصلى: مقاساة حرارة النار. الغمار: معظم البحر. السليط: الزيت. الذبال: مفردها ذبالة وهي الفتيلة.

(١٢) هذه الأبيات لوزير بترول الإمارات مانع سعيد العتيبة قالها في عتاب منتقديه آنذاك بين دول أوبيك.

قـــراءات
(أ)

السيوطي وكتابه المزهر بين التقليد والتجديد

تحت هذا العنوان يتناول الأستاذ الدكتور محمد البلاسي بالتحليل والعرض والنقد مجموعة من كتب التراث في فقه اللغة.. مما يعتبر إثراءً تنويرياً في هذا التوجه.. ونعلم أن كتب التراث غنية في أبوابها.
- المنهل -

□ ***وسط غيوم في سماء المعرفة عاش عالمنا الإسلامي، بعدما دهم التتار بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وألقوا ما فيها من كتب في دجلة، حتى غدت جسراً يعبرون عليه.***

ولكن الله سبحانه وتعالى الذي تكفل بحفظ دينه، والإبقاء على قرآنه هيأ الأزهر - من ضمن ماهيّأ - ليكون المكان الذي يشع منه نور الدين واللغة، فقد جاء إليه العلماء الفارون من وجه التتار، حيث وجدوه مكاناً صالحاً لأداء رسالتهم. كما حبب الله إلى سلاطين المماليك حكام مصر في ذلك الوقت أن يميلوا إلى العلم، وأن يقربوا العلماء ويغدقوا عليهم.

في هذه الحقبة من الزمن، وبين الجلة من علماء هذا العهد وشيوخه، نشأ صاحبنا السيوطي، فتأثر بها، وأثر فيها بمؤلفاته الستمائة في شتى علوم المعرفة، فكان بحق درة عصره وقمراً مضيئاً لمن جاء بعده.

نسبه ونشأته:

هو عبد الرحمن جلال الدين بن الإمام كمال الدين خضير السيوطي. ولد سنة (٨٤٩هـ) وتوفي



أ. د. محمد السيد علي بلاسي
أكاديمي - خبير دولي - عضو اتحاد كتاب مصر

(٩١١هـ). وينتهي نسبه من جهة أبيه إلى أصل فارسي ومن جهة أمه إلى أصل تركي.

وقد ولد رضي الله عنه بمصر في مدينة أسيوط في الجانب الغربي من النيل من نواحي الصعيد وكانت تلك المدينة أعجوبة المتنزهات في جمال عمارتها، وحسن سورها، وبديع موقعها ، حتى إن الرشيد لما صورت له الدنيا لم يستحسن غير مدينة أسيوط، لكثرة ما بها من الخيرات والمتنزهات..!

ويضيف المؤرخون إلى ميلاد السيوطي حادثة طريفة لقب لأجلها بابن المكتب وهي: أن أباه كان من أهل العلم وقد احتاج يوماً إلى مطالعة كتاب، فأمر أم السيوطي بإحضاره من بين الكتب، فذهبت لتأتي به ، فجاءها المخاض، وهي بين الكتب فوضعته (١).

وقد نشأ السيوطي يتيماً، إذ توفي والده وهو دون السادسة من عمره فتكفله الشيخ كمال الدين بن الهمام، وشمله برعايته وعنايته.

حياته العملية ومكانته:

أتم السيوطي حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ الثامنة من عمره، ثم رحل إلى القاهرة، لطلب العلم، فدرس العلوم وحفظ متون الفقه والنحو على يد علماء عصره ، من أمثال العلم البلقيني، والشرف المناوي، ومحقق الديار المصرية سيف الدين بن محمد الحنفي. ولم يزل السيوطي يوالي القراءة والدرس حتى تزود بالثقافة التي تؤهله للتدريس، فاشتغل به حيناً وكانت دروسه محببة لطلابه لغزارة علمه ، وشُغِلَ منذ شبابه بالتأليف وسنه سبعة عشر عاماً، وقد حببت الرحلات إليه واستفاد منها علماً وثقافة (٢).

وقد ترجم السيوطي لنفسه في كتابه حسن المحاضرة فقال: وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، والتكرور.

ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور، منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر.

ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير ، والحديث، والفقه ، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، على طريقة العرب البلغاء، لا على طريقة

العجم، وأهل الفلسفة، والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها ، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي فضلاً عمن دونهم. وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخي فيه أوسع نظراً و أطول باعاً.

ودون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه، والجدل، والتصريف، ودونها الإنشاء والترسل، والفرائض، ودونها القراءات، ولم آخذها عن شيخ ودونها الطب.

وقد اخترعت علم أصول اللغة اختراعاً ولم أسبق إليه، وهو على نمط علم الحديث ، وعلم أصول الفقه، فسارت مصنفاتي وعلومي سير الشمس في سائر الأقطار، فوصلت إلى الشام والروم والعجم والحجاز واليمن والهند والحبشة والمغرب والتكرور وامتدت إلى البحر المحيط.

وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليَّ، وأبعده إلى ذهني وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلاً أحمله، وقد كملت عندي آلات الاجتهاد بحمد الله أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً أو أي شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيله في الفخر وقد أزف الرحيل، وبدا الشيب، وذهب أطيب العمر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً لها بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرت على ذلك من فضل الله، لا بحولي، ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله (٣).

ولو نظرنا إلى ما قاله السيوطي عن نفسه نظرة جادة بعيدة عن منطق الهوى، نظرة المتجرد، لقلنا: إن السيوطي قد بالغ بعض الشيء وبخاصة فيما قاله بأنه: " اخترع علم أصول اللغة اختراعاً لم يسبق إليه".

نقول مجيبين عنه : إن السيوطي قد سبق في هذا المجال، بدليل أن عمدة كتبه في أصول اللغة هو "المزهر" وهذا الكتاب قد استقى معظم أبوابه من كتب السابقين عليه، بل وبنى فصولاً منها، من أمثال كتب علامة اللغة " ابن جني"، الخصائص، وسر صناعة الإعراب وغيرهما.. ودراسات " ابن فارس" في كتابيه : مقاييس اللغة، والصاحبي.

ولكن الحق والحق يقال: إن السيوطي يعتبر رائد طور من أطوار التأليف في علم أصول اللغة، إذ إنه نوَّع في أبواب هذا الفن و وسع في أغراضه على غير ذي سابق.

مؤلفات السيوطي :

لقد زادت مصنفات السيوطي على الخمسمائة مؤلف، فلقد عد له العلامة فلوغل ٥٦٠ مصنفاً، كما ذكره ابن إياس فيمن توفي في عصر الغوري وقال عنه : بلغت مؤلفاته ستمائة مؤلف ما بين رسالة محددة الموضوع وبين كتاب كبير، في شتى مجالات المعرفة: في التفسير ، والقراءات، والحديث ، والفقه، والعربية، والآداب (٤).

هذا الرقم القياسي لمؤلفات فرد واحد من العلماء، حمل بعض الباحثين إلى الشك فيه، واستبعاد أن يكون ذلك الكم الهائل من المؤلفات له، بل إن منهم من زعم أن كثيراً من هذه الكتب إنما هي لشيوخ السيوطي نحلها لنفسه بعد أن غير فيها قليلاً، وربما أخذ من كتب المكتبة المحمودية وغيرها كثيرا من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من المعاصرين بها، فغير فيها يسيراً ، وقدم وأخر، ونسبها لنفسه وحوَّر في مقدماتها بما يتوهم منه الجاهل شيئاً مما لا يوفي بحقه (٥)..

وكلاهما دعوى من غير دليل، ومن باب الإنصاف للحق نرد عليها بما يلي:

١- إن صاحب هذا الزعم هو السخاوي صاحب كتاب الضوء اللامع، ذلك الرجل الذي حمل لواء الثورة على السيوطي، نظراً لما كان بينهما من المنافسة والخصومة ما بينهما ، " مقامة الكاوي على تاريخ السخاوي"(٦).

٢- لم يصلنا أن أحداً من العلماء المحققين ذكر أن هناك كتاباً نسبه السيوطي إلى نفسه وهو ليس من تأليفه.

□ السيوطي في كثير من مؤلفاته كان جامعاً ومرتباً ..

٣- إن الكثير من كتب السيوطي يقع في رسائل صغيرة قال عنها السخاوي نفسه : " رأيت منها ماهو في ورقة وأما ماهو فوق الكراسة فكثير"، مما لا يستبعد أن يكون هذا العدد الوافر من الكتب للسيوطي!.

٤- ليس غريباً أن يكون للسيوطي هذا الكم الهائل من المؤلفات ، حيث إنه كان آية كبرى في سرعة التأليف، حتى قال تلميذه الداودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة (٧).

ومهما يكن من شيء فإن للسيوطي مؤلفات لم يدخل الشك في صحة نسبتها إليه، وهي في ذاتها تعد مفخرة من مفاخر التأليف والتصنيف، منها الإتقان في علوم القرآن، والمزهر في علوم اللغة، وهمع الهوامع، والأشباه والنظائر في النحو، وبغية

□ يعد كتاب المزهر للسيوطي من أجل ما أُلِّف في فقه اللغة العربية

الوعاة في تراجم النحاة، وأسباب النزول، وغير ذلك مما يجعل السيوطي في مقدمة العلماء والمصنفين (٨).

مناصبه:

تنقل السيوطي في العديد من المناصب حيث تولى التدريس في المدرسة الشيخونية التي كان يشغلها أبوه، وفي سنة تسعمائة واثنتين عهد إليه الخليفة المتوكل بوظيفة لم يسمع بها قط، حيث جعله على القضاة قاضياً كبيراً يولي من يشاء ويعزل من يشاء مطلقاً في سائر ممالك الإسلام، كما ولي المشيخة في مواضع متعددة في القاهرة (٩).

زهده في الدنيا:

ومع أن السيوطي ترقى إلى أعلى المناصب، إلا أنه كان عفيف النفس كريماً صالحاً تقياً ورعاً، ظل طوال عمره مشتغلاً بالتدريس والفتيا متفرغاً للعلم والتأليف، ولما تقدمت به السن وبلغ الأربعين سنة من عمره هجر الإفتاء والتدريس، وألف في ذلك كتابه:" التنفيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس" واعتزل الناس في منزله في روضة المقياس متجرداً للعبادة والتصنيف، لم يتحول عنها حتى وافاه الأجل المحتوم، وكان الأمراء والأغنياء يأتون لزيارته ويعرضون عليه أعطياتهم وهباتهم النفيسة فيردها !

روي أن السلطان الغوري أرسل إليه مرة خصياً وألف دينار، فرد الدنانير وأخذ الخصي، وأعتقه وجعله خادماً في الحجرة النبوية، وقال لرسول السلطان : لاتعد تأتينا قط بهدية فإن الله أغنانا عن مثل ذلك !

يقول صاحب السنا الباهر : ولما مات السيوطي لم يتعرض أحد في تركته مع أن الزمن كان زمن جور، وقال السلطان الغوري: لم يقبل منا شيئاً في حياته فلا نتعرض في تركته (١٠).

وفاته (١١):

وكانت وفاة السيوطي سحر ليلة الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة، بعد أن مرض سبعة أيام بورم شديد في ذراعه الأيسر، وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وكان له مشهد عظيم، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة، وصلى عليه بجامع الأفاريقي تحت القلعة، كما صلى عليه صلاة الغائب بدمشق بالجامع الأموي يوم الجمعة ثامن رجب سنة إحدى عشرة وتسعمائة.

التعريف بكتاب " المزهر "

يعد كتاب المزهر في علوم اللغة وأنواعها " للعلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي" من أجل ما ألف في فقه اللغة العربية" (١٢) حيث جمع بين دفتيه بعض البحوث اللغوية القيمة ذات الحساسية الخاصة في وقت مبكر من مسيرة الفكر اللغوي، من بينها : البحث في نشأة اللغات، والمصنوع والفصيح، والحواشي والغرائب، والشوارد والنوادر، والمستعمل والمهمل، وتداخل اللغات، وتوافق اللغات، والمعرب، والمولد، وخصائص اللغة، والاشتقاق، والمشترك، والترادف، والتضاد ، والحقيقة والمجاز، والعام والخاص، والمطلق، والمقيد، والإبدال، والقلب، والنحت، وما اختلف في لغة الحجاز، ولغة تميم، والتصحيف، والتحريف، والأسماء والكنى والألقاب...الخ.

فالمزهر" يمثل طريقة مبتكرة لترتيب وعرض ماتوصل إليه علماء العرب المسلمون في ميدان علم اللغة، بحيث قدم خدمة للدارسين في عصره وفي العصور التي تلته ومعظم الباحثين البارزين في الوقت الحاضر يفضلون الرجوع إلى (المزهر في علوم اللغة) مثلاً على الرجوع إلى (الصاحبي) ، لأن الكتاب الأخير يقدم وجهة نظر مؤلفه ابن فارس فقط في حين أن كتاب السيوطي يعرض مختلف وجهات النظر في المسألة الواحدة مرتبة بطريقة ذكية تيسر مهمة الباحث وتساعده على الإلمام بالموضوع دون عناء الرجوع إلى عدد كبير من المؤلفات فُقِدَ بعضها. وهذه منهجية السيوطي، ولهذا حازت على الإقبال وحظيت بالانتشار " (١٣) ومن هنا تكمن قيمة مؤلفات السيوطي وعلى رأسها " المزهر في علوم اللغة وأنواعها".

يقول محققو الكتاب : " غير أن الذي تجب الإشارة إليه أن هذا الكتاب على ضخامته ليس للسيوطي فيه إلا الجمع والترتيب عدا بدوات قليلة، نجدها مبعثرة في ثنايا الكتاب وفقرات قد يقدم بها بين يدي الباب أو يختتمه، وليس أدل على طريق المؤلف هذه من مقدمة الكتاب؛ فقد ضمنها مقدمة كتاب (الصاحبي) لابن فارس، وبعد أن أوردها قال: (وبمثل قوله في هذا الكتاب ، وذلك حين الشروع في المقصود بعون الله المعبود) ! على

أن هذا لا يحملنا على جحود عمل المؤلف ونكران فضله، فلقد وعى كتابه كثيراً مما حوته كتب اللغة، وبذل مجهوداً مشكوراً في ترتيب مانقله ووضعه في محله، وذلك لا شك يدل على اطلاع واسع وإحاطة شاملة (١٤).

من هنا " نستطيع القول : إن السيوطي لم يكن على قدر كبير من الأصالة والإبداع والابتكار في التأليف العلمي وإنما كان يعتمد في معظم مؤلفاته على جمع أقوال المؤلفين وترتيبها بطريقة مناسبة. وهذا لاينفي أن له مؤلفات أنشأها بنفسه مثل كتبه التي وصف فيها بعض رحلاته مثل : (النحلة الزكية في الرحلة الملكية) و(الاغتباط في الرحلة الإسكندرية ودمياط)، بل أكثر من ذلك فإن له شعراً وأرجوزات ولكنه في مؤلفاته العلمية لا يعدو كونه جامعاً ومرتباً للمواد العلمية التي يحيط بها إحاطة تامة شاملة فهو جامع واع ومرتب عالم"(١٥).

□ السيوطي موسوعي المعرفة، وتميز بمنهجية الجمع في عرض الآراء..

مادة الكتاب :

أقام السيوطي مؤلفه " المزهر في علوم اللغة وأنواعها" على خمسين نوعاً : ثمانية في اللغة من حيث الإسناد، وثلاثة عشر من حيث الألفاظ، وثلاثة عشر من حيث المعنى، وخمسة من حيث لطائفها وملحها، وواحد راجع إلى حفظ اللغة وضبط مفاريدها، وثمانية راجعة إلى حال اللغة ورواتها، ونوع لمعرفة الشعر والشعراء، والأخير لمعرفة أغلاط العرب (١٦).

ومجمل القول: فإن الإمام جلال الدين السيوطي مؤلف اجتمعت له جميع أدوات التأليف من قدرة على الدرس واطلاع واسع على مختلف العلوم، وقابلية على العرض المنهجي لمختلف وجهات النظر، وأمانة ودقة في النقل، ولكنه اعتمد على منهجية الجمع في عرض الآراء حتى لو تطلب ذلك العرض نقل فصول مطولة برمتها من المؤلفين السابقين وتلك منهجية كانت شائعه في ذلك العصر الذي اعتمد فيه المؤلفون على شرح المؤلفات السابقة أو تلخيصها أو كتابة الحواشي عليها أو نقلها دون إبداع أو ابتكار (١٧).

وفي عصر النكبات تكثر الموسوعات: فمن رحمة الله ـ تعالى- وفضله أن هيأ في القرنين التاسع والعاشر جلة من العلماء والموسوعيين من

أمثال: العلامة السيوطي، وابن خلدون، وابن تيمية، وابن القيم..الخ.

جاء هذا بعد عصر المحن فقد وفقهم الله تعالى إلى جمع تراث السابقين في شتى مجالات المعرفة، ولعلهم أخذوا الدرس من ضياع ماضاع من تراث المسلمين في دجلة، في الوقت الذي لم تصل إليه أنظمة حديثة لجمع التراث كالكمبيوتر - مثلاً -، فكان العلماء الأجلاء، ولعله لحكمة عظيمة وهي حفظ تراث المسلمين المتعلق بكتاب الله - تعالى - .

رحم الله العلامة السيوطي فقد قدم للإنسانية وأفادها من منبع علمه، وفيض معرفته، وأسكنه فسيح جناته مع الخالدين ■

الهوامش:

(١) مجلة منبر الإسلام، القاهرة: عدد أكتوبر ١٩٦٨م، ص ٢٤٨ - بتصرف.

(٢)أنظر: الأدب العربي وتاريخه: د. محمد محمد خليفة، والأستاذ زكي علي سويلم، ص ٢٢ - بتصرف يسير - ط، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية سنة ١٤٠٠هـ.

(٣) أنظر: حسن المحاضرة: للسيوطي، ٢ / ١٤٠ وما بعدها، ط. المطبعة الشرفية.

(٤) لمزيد من التفصيل راجع: المزهر: السيوطي (التعريف بالمؤلف) ٢ / ٦٤٧ ، ٦٤٨ ط. دار التراث بالقاهرة. هذا، وفي دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها للأستاذين أحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني، ما يربو على (٩٨٠) مؤلفاً للسيوطي بين مخطوط ومطبوع.

(٥) راجع: الضوء اللامع: السخاوي ٤ / ٦٥ .

(٦) مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٥١٠ .

(٧) مجلة منبر الإسلام: عدد أكتوبر ١٩٦٨، ٢٤٩ .

(٨) المزهر: السيوطي (التعريف بالمؤلف) ٢٠ / ٦٥٠ .

(٩) مجلة منبر الإسلام: عدد أكتوبر ١٩٦٨م ، ص ٢٤٩ - بتصرف يسير.

(١٠) المزهر: للسيوطي (التعريف بالمؤلف) ٢ / ٦٥٠ ، ٦٥١ ، فراجعه تجد مزيداً من التفصيل.

(١١) أنظر: المصدر السابق ، ٢ / ٦٥١ .

(١٢) فقه اللغة: د. علي عبدالواحد وافي هامش ص ٧٨، هذا والكتاب يقع في مجلدين كبيرين، وقد طبع أربع مرات: إحداها بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٨٢هـ والثانية بمطبعة السعادة، والثالثة بمطبعة صبيح، والرابعة بدار التراث بالقاهرة، وقد قام بالتعليق عليها الأساتذة: محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، إلا أنني أرى أن هذا السفر اللغوي الزاهر لا زال يحتاج إلى تحقيق، وبخاصة نسبة الأقوال الواردة فيه إلى أصحابها!

(١٣) منهجية الإمام السيوطي في البحث اللغوي: للدكتور علي القاسمي، ص ٩٨، (بحث منشور في مجلة: اللسان العربي" العدد ٣٨ سنة ١٤١٤هـ).

(١٤) المزهر: للعلامة السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، الجزء الأول، مقدمة التحقيق، ص (أ، ب) الطبعة الثالثة، دار التراث، د.ت.

(١٥) منهجية الإمام السيوطي في البحث اللغوي: ص ٩٧.

(١٦) أنظر المزهر: مقدمة التحقيق، الجزء الأول، ص (أ)

(١٧) منهجية الإمام السيوطي في البحث اللغوي: ص ٩٩ - بتصرف يسير.

□ شاعت في دراساتنا البلاغية المعاصرة بعض المصطلحات التي تحاول أن تستمد من الجذر التراثي نسقها الصاعد. وفي الوقت نفسه تطمح إلى أن تشرئب بأغصانها باتجاه الجديد الحي في أفق الدراسات المعاصرة. فهل ينجح مصطلح مثل مصطلح الصورة الاستعارية في استيعاب الدلالات المضافة لمصطلح الاستعارة العريق؟ هذا ما ستنهض به هذه الدراسة عبر سطورها اللاحقة.

الاستعارة ومصطلح الصورة الاستعارية

د. وجدان عبدالإله الصائغ

دكتوراه في النقد البلاغي -العراق

وليست هناك ضرورة تدعو إلى استقصاء تعريفات الصورة(١) أو الاستعارة(٢) منفردتين، إذ أن المصطلحين كليهما وأعني بهما مصطلح الصورة ومصطلح الاستعارة مما تقصتهما دراسات كثيرة سواء أكان هذا التقصي في كتب علمائنا العرب الأقدمين أم المحدثين من عرب وأوربيين. إن كلا المصطلحين يرتبط بالآخر بأكثر من وشيجة. ويقف المصطلحان معا على أكثر من بقعة مشتركة. فالصور ترتبط بالحواس وبتخزين الذاكرة الإنسانية إذ أنها بطريقة أو بأخرى استحضار للعلاقات الطريفة ما بين الأشياء. وبقدر طرافة هذه العلاقات تتحقق فاعلية الصورة ولهذا قيل عن الصورة أنها "رسم قوامه الكلمات"(٣) وأنها "إدراك حسي ولكنه إدراك ينفذ إلى باطن الأشياء"(٤). ومثل ذلك يقال عمن نظر إلى الصورة على أنها "استرجاع ذهني لمحسوس"(٥). ويطول المقام لو استعرضنا كل الآراء بهذا الشأن(٦). ولسنا بصدد تقرير طبيعة العلاقة ما بين الصورة في الشعر والصورة في الواقع، وكما تدركها الحواس لأن ذلك من شأنه أن يبعدنا عن هذا المحور الذي تريد هذه الدراسة من خلاله أن تقرر بأن الصورة تلتقي مع الاستعارة على صعيد الإدراك الحسي القائم على إعادة تشكيل الواقع ونقله من الحياة إلى الشعر.

وما قيل عن الصورة ينطبق على الاستعارة من حيث صلتها القوية بالحواس، إذ أن النظر المدقق لأية استعارة لا يمكن أن يخفى عليه تأثير الحواس فيها بطريقة وبأخرى وبذلك يمكن القول بأن الصورة تحقق هويتها وغايتها في قيامها على الاستعارة، وقد تنبه عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) إلى هذا حين أشار إلى "انك لترى بها (الاستعارة) الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً، والأجسام مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية.. وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون"(٧)، وينطبق هذا على بعض تقسيمات علمائنا الأقدمين للاستعارة (٨) وليس أدل على صلة الاستعارة بالحواس من دعامتي الاستعارة بالتشخيص والتجسيم (٩). والاستعارة غالبا لا يمكن أن تنأى عن إحدى هاتين الدعامتين إذ أنهما يتوغلان إلى نسيج الاستعارة الحية.

وثمة مهاد آخر تقف عليه الصورة والاستعارة على حد سواء الا وهو الخيال، ذلك أن صلة الصورة بالخيال هي صلة مؤكدة ولذلك عرف الخيال على أنه تلك القوة التركيبية السحرية التي تخلق توفيقاً وتوازناً بين الصفات المتضادة أو المتعارضة (١٠) وينطبق هذا على الاستعارة التي يقول عنها ريتشاردز بأنها "الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بوساطتها في الشعر أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل وذلك لأجل التأثير في المواقف والدوافع" (١١)، ومن هنا فإن الصورة -ويصح هذا على الاستعارة- هي أداة الخيال ووسيلته ومادته المهمة التي يعبر من خلالها عن فاعليته ونشاطه (١٢). كما أنها "من أبرز طرق التعبير غير المباشر

□ الصورة تلتقي مع الاستعارة على صعيد الإدراك الحسي لإعادة تشكيل الواقع

□ الصورة تحقق هويتها في قيامها على الاستعارة

القائم على التخييل" (١٣). وتندمج العناصر الثلاثة: الاستعارة والصورة والخيال فيما أورده الدكتور أحمد الصاوي من أن الاستعارة "صورة شعرية ترتبط مع غيرها من الصور في إطار الخيال الذي صاغها لتجعل من العمل الفني قيمة جمالية كبرى" (١٤). ويتجلى عنصر الخيال في الاستعارة من خلال ذلك الدمج والقدرة على الانصهار حد التوحد بين طرفي الاستعارة (المستعار له) و(المستعار منه) فالعلاقة التي تقوم بين طرفي الاستعارة "ليست علاقة منطقية بقدر ما هي علاقة من صنع الخيال الذي يحاول أن يحدث التأثير في المواقف والدوافع عن طريق إذابة هذه العناصر وخلق الجديد" (١٥). وتتأكد هذه المسألة وأعني بها التوحد بين طرفي الاستعارة -لدى الأقدمين(١٦) من الباحثين والجدد (١٧) على حد سواء -لذلك عد البلاغيون القدامى الاستعارة المرشحة من أقوى الاستعارات تأثيراً قياسياً بالاستعارة المجردة والاستعارة المطلقة (١٨) لأن الاستعارة المرشحة تقرن بما يلائم المستعار منه (١٩) وتقويه فيبدو التوحد ما بين الطرفين أكثر قوة.

ولا يمكننا أن نتصور الصورة في إطار الشعر خاصة والفن عامة الا مقترنة بعواطف الإنسان واحساسه ومشاعره لأن "العاطفة بدون صورة عمياء، والصورة بدون عاطفة فارغة" (٢٠) ويرى كولردج أن نبوغ الصورة يتجلى في كونها ناقلة للعاطفة والخوف والرغبة والكراهية والأسى (٢١)، وما يقال عن صلة الصورة بالعاطفة ينطبق تماماً على الاستعارة التي لا يمكنها أن تكون خلواً من العواطف وأن تبدو آلية وشكلية إلا إذا كانت استعارة فاشلة (٢٢)، وغير مؤثرة، وقد أطلق عبدالقاهر الجرجاني اسم الاستعارة غير المفيدة على مثل هذه الاستعارة (٢٣) وهي ليست مما يدخل في إطار الاستعارة المصيبة كما أطلق عليها أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) (٢٤) أو الاستعارة الشعرية كما يسميها جان كوهين تميزاً عن الاستعارة غير الشعرية (٢٥)، ان الاستعارة "تستخدم.. استخداماً انفعالياً وجدانياً، فلغتها لغة الانفعال والوجدان وليست لغة الأفكار الخالصة"(٢٦)، ومن هنا تتنوع الصور والاستعارات على حد سواء بتنوع العواطف الإنسانية وتعدد سماتها، فإننا "حين نتحدث عن (حزن السماء الرمادية) فإن المسألة ليست مجرد صورة شكلية للسماء ولونها، وهي في الوقت ذاته ليست مجرد استعارة سمة من سمات الإنسان واستثمارها بتوضيح هيئة السماء وشكلها في لحظة معينة، وإنما يكمن هذا التركيب الجديد المعبر عن

اللون الخاص لحزن الشاعر" (٢٧) المنبثق من امتزاج طرفي الصورة الاستعارية (حزن الإنسان) و(لون السماء الرمادية) وتستدعي احساسات أخرى صوراً ذات طبيعة أخرى تتناسب وتلك الإحساسات إذ أن "كل نوع من أنواع الاحساس، إنما تطابقه صورة معينة" (٢٨) إن الصورة والاستعارة كلتيهما تعكسان بطريقة وبأخرى عواطف الشاعر واحساساته على أن يصوغهما بطريقة حية متجددة ولا يمكن أن تكون الصورة في إطار الشعر الا تشكيلاً لغوياً خاصاً من شأنه ان يخلق التآلف والانسجام بين ما تثيره أجزاء الصورة المتكونة من ألفاظ مفردة لا يبدو الجمع مألوفاً فيما بينها ولو بدا كذلك إذن لبدت الصورة مستهلكة ومكرورة، وفي هذه الحالة تفقد تأثيرها، إنها عملية خرق لقانون اللغة (٢٩) ويقوم الشعر بتحطيم اللغة العادية من أجل أن يخلق صوره الخاصة به وأن يعيد بناءها (٣٠). وينطبق هذا على الاستعارة من حيث أنها تشكيل لغوي خاص من شأنه أن ينقل اللفظة المفردة من بيئة لغوية معروفة إلى بيئة لغوية أخرى غير مألوفة، وهنا تتدخل موهبة الشاعر في ان تجعلنا أمام مفاجأة جديدة ومدهشة تكونت من خلال السياق الجديد الذي وضع فيه الشاعر ألفاظه المفردة فخلق لنا شيئاً جديداً مبتكراً "وبهذا تضيف وجوداً جديداً أي تزيد الوجود الذي نعرفه" (٣١) إن جوهر الاستعارة "أنها تصهر عنصرين متناقضين فتذيبهما في وعائها فيتلاشى تناقضهما" (٣٢). بل إن ذلك التناقض يبدو في كيان الاستعارة توافقاً يؤكد جدتها وطرافتها.

وهنا نقف عند مسألة مهمة التفت إليها علماؤنا البلاغيون القدامى وهي طبيعة الصلة ما بين طرفي الاستعارة من حيث أنها تشكيل لغوي يقوم على مستعار له ومستعار منه (٣٣) منذ أن قال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ان "الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه" (٣٤) ولو تتبعنا تعريفات الأقدمين للاستعارة لوجدنا أنها لم تخرج عن هذه الدائرة، وأعني بها استعارة اللفظ من سياق لغوي معروف ونقله إلى سياق لغوي آخر غير مألوف أو على حد تعبير ابن المعتز "استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها" (٣٥) وتتضح معالم الصلة ما بين المستعار له والمستعار منه في تعريف القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) إذ يقول: "الاستعارة ما اكتفي بها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت مكان غيرها" (٣٦)، وهذا يعني أن اللفظة المفردة ستحمل معها إيحاءاتها ودلالاتها، وستتفاعل هذه الإيحاءات والدلالات مع السياق اللغوي الجديد

□ الخيال قوة تركيبية سحرية تخلق توفيقاً وتوازناً بين المتضادات..

□ العاطفة بدون صورة عمياء والصورة بدون عاطفة فارغة..

□ الشعر يحطم اللغة العادية، ويُعيد بناءها لخلق صورة خاصة به..

□ الصورة في إطار الشعر تمثل تشكيلاً لغوياً خاصاً تحقق الانسجام والتآلف بين الواقع والمثال

فتنتج لنا الاستعارة المتجددة، ولعل ما قاله عبدالقاهر الجرجاني توضيح لهذه المسألة: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع. ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية"(٣٧) ولعل في نظرية النظم لعبدالقاهر الجرجاني ما يؤكد هذا المعنى ويكرسه حين يورد أن الاستعارة إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها (٣٨)، وقد قصد عبدالقاهر الجرجاني أن البناء الاستعاري ينبني من حيث فكرته الأساس على نظرية النظم إذ أن السياق الجديد الذي تكتسبه اللفظة المفردة هو ما يخترق وعينا ويدهشنا، ويتاكد لنا هذا النقل للكلمة المفردة في إطار لغوي إلى آخر في تعريف السكاكي (ت٦٢٦هـ) للاستعارة "فهي أن تذكر أحد طرفي الاستعارة وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك باثباتك للمشبه ما يخص المشبه به" (٣٩)، ويمضي القزويني (ت ٧٣٥هـ) (٤٠) والعلوي (٤١) على خطى السكاكي في تأكيد طبيعة البناء الاستعاري لدى علمائنا البلاغيين القدامى وهو القائم على استعارة اللفظ وتطويعه من خلال وضعه في إطار جديد ومن هنا كان المعنى اللغوي للاستعارة (٤٢) مقارباً لمعناها الاصطلاحي.

ويكتسب الشعر قوة تأثيره من خلال قوة تأثير الصورة فيه، فوظيفة الصورة إذن هي إحداث تأثير في أعماق المتلقي، بحيث يستحضر اللحظة التي مر بها الشاعر ولا يمكن للاستعارة ان تخرج عن هذا.. أنها تسعى إلى ما تسعى إليه الصورة من تأثير ووظيفة مما دعا ارسطو إلى أن يميزها من باقي الأساليب بالتشريف حين قال: "ولكن أعظم الأساليب حقاً هو أسلوب الاستعارة... هو آية الموهبة" (٤٣) وقد قرن الدارسون الأوربيون المعاصرون خاصة بين مصطلحي الصورة والاستعارة بحيث يستنتج من كثير من الدراسات الحديثة ان الاستعارة تأتي مكملة لكل أنواع الصور (٤٤) وربما بالغ بعضهم حينما عد الاستعارة غاية الصورة (٤٥) وان الصورة تطلق أحياناً "مرادفة للاستعمال الاستعاري" (٤٦)، أو "أن الشعر استعارة موسعة" (٤٧) ولكن الذي يمكن الاطمئنان إلى صحته ان الاستعارة نمط مهم من أنماط الصورة (٤٨) وانها أداة من أدوات بنائها (٤٩) وجاء الدارسون البلاغيون المعاصرون فاكدوا انتماء الاستعارة إلى الصورة بحيث إن كثيراً

منهم يتحدث عن الاستعارة على أنها صورة (٥٠)، بل أن بعض الدراسات البلاغية والنقدية الحديثة استثمرت مصطلح (الصورة الاستعارية في حديثها عن الاستعارة (٥١)، ولهذا كله تجد هذه المقالة بغيتها في هذا المصطلح (الصورة الاستعارية) الذي يجمع بين الرؤية البلاغية الأصيلة للاستعارة وما بين الرؤية المعاصرة للصورة تلك التي زودتنا بها كتب النقد الحديث سواء أكانت مستمدة من آراء الأوربيين وأفكارهم أم من كتب نقادنا المعاصرين ممن حاولوا الاستفادة من القديم والحديث معاً.

وبعد، فإن الاستعارة تلتقي مع الصورة في أن كلتيهما تشكيل لغوي قائم على هدم علاقات قديمة وإقامة بناء علاقات جديدة في إطار اللغة فضلاً عن ان كلتيهما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعنصر الخيال والعاطفة والحواس وما صلتهما ببعضهما إلا صلة الجزء بالكل وعلى هذا الأساس فإن الاقتران بينهما في إطار الصورة الاستعارية مما يغني المصطلحين كليهما (الصورة والاستعارة) ويمنح المصطلح الجديد (الصورة الاستعارية) إيحاءاتهما ودلالاتهما مجتمعين ■

التعليقات والحواشي

(١): أفاضت دراسات متعددة في تأصيل مصطلح الصورة ومنها: ينظر: روز غريب تمهيد في النقد الحديث، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص١٩٣ وما بعدها. وينظر: د. ساسين عساف، الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٢، ص٤٣ وما بعدها كما ينظر: د. عبدالإله الصائغ، الصورة الفنية معياراً نقدياً، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٧، ص١٠٧ وما بعدها.

(٢): ومن الدراسات التي تقصت مصطلح الاستعارة وتتبعت أصوله. ينظر: د. حفني شرف، التصوير البياني، مكتبة الشباب، ط٢، القاهرة ١٩٧٣، ص٢٤٠ وما بعدها، وينظر: د. رجاء عيد، فلسفة البلاغة، مركز الدلتا للطباعة، ط٢، الاسكندرية، (دون تاريخ). كما ينظر: د. أحمد مطلوب فنون بلاغية، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٥، ص١٢٢ وما بعدها وينظر كذلك: د. وجدان عبدالإله الصائغ، الصورة الاستعارية في شعر الأخطل الصغير، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الموصل ١٩٩٥، ص٤٥ وما بعدها.

(٣): سي. دي. لويس. الصورة الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي وآخرون دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢، ص٢١.

(٤): د. نصرت عبدالرحمن، في النقد الحديث، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٧٩، ص ١٩٧. والرأي لبرجسون.

(٥): نفسه، ص٦٨، والرأي لدودلي.

(٦): وللاستزادة ينظر: د. عبدالقادر الرباعي، الصورة الفنية في شعر أبي تمام، جامعة اليرموك، اربد ١٩٨٠، ص١٤٥. وينظر: د. عبدالفتاح صالح نافع، دار الفكر للنشر، عمان ١٩٨٣، ص٥١ وما بعدها. كما ينظر: د. عبدالإله الصائغ، ص٤٠٦ وما بعدها.

(٧): عبدالقاهر الجرجاني، كتاب أسرار البلاغة، تحقيق: هـ. ريتر مطبعة وزارة المعارف، استانبول ١٩٥٤، ص٤١.

(٨): قسمها القزويني أقساما متعددة منها: باعتبار الطرفين والجامع إلى ستة أقسام: استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي، أو بوجه عقلي أو بما بعضه حسي وبعضه عقلي، وباستعارة معقول لمعقول، واستعارة معقول لمحسوس كل ذلك بوجه عقلي، ينظر: القزويني كتاب الإيضاح، تحقيق: د. محمد

عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠، ص٤٢٦ وما بعدها. وقد وصفها العلوي في اطار تقسيم الاستعارة باعتبار كيفية الاستعمال للاستعارات ينظر: العلوي، كتاب الطراز، دار الكتب العلمية، (دون تاريخ) بيروت، (دون تاريخ) ج١/ ٢٤٣ وما بعدها.

(٩): ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٥ ص٦٣-٦٤، وللاستزادة ينظر: د. وجدان عبدالإله الصائغ، فصلي التشخيص والتجسيم، ص٢١ وما بعدها.

(١٠): ينظر: أ.أ.ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة: د. مصطفى بدوي، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٦٣، ص٣١٢، والرأي لكولردج.

(١١): نفسه، ص٣١٠.

(١٢): ينظر: د. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة القاهرة ١٩٧٤، ص١٨-١٩.

(١٣): د. مجيد عبدالحميد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص٢١٩.

(١٤): د. أحمد الصاوي، فن الاستعارة، دار بور سعيد للطباعة، الاسكندرية ١٩٧٩ ص٣١٩.

(١٥): نفسه، ص٣٠٦.

(١٦): وقد تأكد هذا من خلال تعريفاتهم للاستعارة. ينظر: عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤، ص٥٣. وينظر: فخر الدين الرازي، تحقيق: إبراهيم السامرائي، د. محمد بركات حمدي، دار الفكر للنشر، عمان ١٩٨٥، ص١١٦، كما ينظر: السكاكي. مفتاح العلوم، تحقيق: أكرم عثمان، دار الرسالة بغداد ١٩٨١، ص٥٩٩. وينظر: القزويني، ص٤١٥ وينظر كذلك: العلوي ج١/ ص٢٠٢.

(١٧): ينظر: د. جابر عصفور، ص٢٧٢، ص٢٨٥، وينظر: د. نصرت عبدالرحمن ص٧٠، وينظر: د. حفني شرف، ص٣٢٥. كما ينظر: د. مهدي السامرائي المجاز في البلاغة العربية، دار الدعوة، دمشق ١٩٧٤، ص٢١٣. وينظر كذلك: د. يوسف أبو العدوس، النظرية الاستبدالية للاستعارة، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشرة، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت ١٩٩٠، ص٤٩.

(١٨): يقسم القزويني الاستعارة باعتبار القرينة إلى ثلاثة أقسام: أحدها المطلقة: وهي التي لم تقترن بصفة توثق المستعار له والمستعار منه، وثانيها المجردة وهي التي قرنت بما يلائم المستعار له ويؤكده وثالثها: المرشحة وهي التي قرنت بما يلائم المستعار منه ويقويه. ينظر: القزويني، ص٤٣٢- ص٤٣٣.

(١٩): نفسه، ص٤٣٣.

(٢٠): ب.كروتشه، المجمل في فلسفة الفن، ترجمة: سامي الدروبي، دار الاوابد ط٢، دمشق ١٩٦٤، ص٦٤.

(٢١): ينظر: س.دي. لويس، ص٢٣.

(٢٢): ينظر: ايليا الحاوي، الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة بيروت ١٩٨٠، ص١٣٥.

(٢٣): قسم عبدالقاهر الجرجاني الاستعارة إلى قسمين أحدهما: أن يكون لنقل اللفظ فائدة، والثاني أن لا يكون له فائدة وتحت عنوان الاستعارة المفيدة والاستعارة غير المفيدة. ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٩ وما بعدها.

(٢٤): ينظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم،دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣، ص٩- ص٢٦٨.

(٢٥): ينظر: جان كوهين، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العربي دار توبقال للنشر، المغرب ١٩٨٦، ص ١١١ .

(٢٦): الدكتور أحمد الصاوي، ص٣٠٦.

(٢٧): جان كوهين، ص٩٨.

(٢٨): أ.أ. ريتشاردز، ص١٢٠.

(٢٩): ينظر: جان كوهين، ص١٠٩.

(٣٠): ينظر: نفسه، ص٦.

(٣١): الدكتور يوسف أبو العدوس، ص٤٩.

(٣٢): الدكتور أحمد الصاوي، ص٣٠٢.

(٣٣): ينظر: عبدالقاهر الجرجاني، دلائل...، ص٥٣. وينظر: فخر الدين الرازي، ص٨٢. كما ينظر: السكاكي، ص٥٩٩. وينظر: القزويني، ص٤٠٧ كما ينظر العلوي ج١/ص ٢٠٢.

(٣٤): الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٨٥، ج١/ ص١٥٣.

(٣٥): عبدالله بن المعتز، كتاب البديع، تحقيق: اغناطيوس كراتشفوفكي، اعادت طبعت بالأوفسيت مكتبة المثنى، بغداد ١٩٧٩، ص٢.

(٣٦): القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٦٦، ص٤١.

(٣٧): عبدالقاهر الجرجاني، أسرار...، ص٢٩.

(٣٨): ينظر: نفسه، ص٨٢.

(٣٩): السكاكي، ص٥٩٩.

(٤٠): ينظر: القزويني، ص٤١٥.

(٤١): ينظر: العلوي ج١/ص٢٠٢.

(٤٢): ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت (دون تاريخ)، مادة (ع و ر).

(٤٣): د. محمد الولي، تحديد الصورة وأهميتها في الخطاب الشعري، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد ٩، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، فاس ١٩٨٧، ص١٩٥.

(٤٤): ينظر: جان كوهين، ص١١٠.

(٤٥): ينظر: نفسه، ص٢٠٥.

(٤٦): الدكتور مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار مصر للطباعة، القاهرة ١٩٥٨ ص٣.

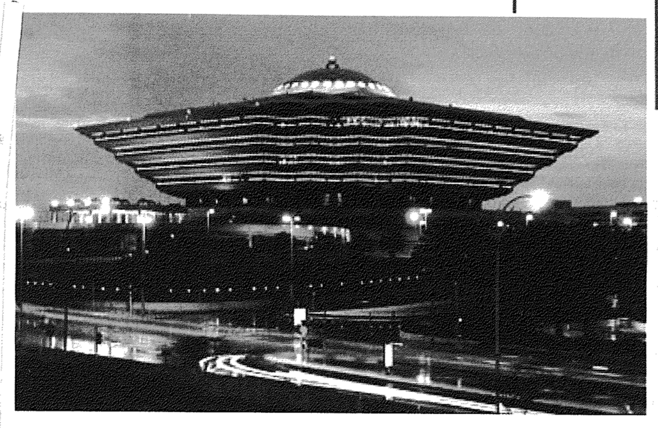
(٤٧): الدكتور مصطفى ناصف، ص٢١٤.

(٤٨): ينظر: د. نصرت عبدالرحمن، ص٦٩ والرأي لريتشاردز. كما ينظر: نورمان فريد مان، الصورة الفنية، ترجمة: د. جابر عصفور، مجلة الاديب المعاصر، السنة الرابعة، العدد ١٦، بغداد ١٩٧٦، ص٣٢. كما ينظر: يوسف أبو العدوس ص٢٠٠ والرأي لبرتون

(٤٩): ينظر: الدكتور أحمد الصاوي، ص٥٩٠.

(٥٠): ينظر: عبدالقادر الرباعي، ص١٦٨. وينظر: الدكتور عبدالفتاح نافع، ص٥١. كما ينظر، د. مصطفى ناصف، ص٣. كما ينظر: حمادي صمود. التفكير البلاغي عند العرب. المطبعة الرسمية، تونس ١٩٨١، ص١٢٧. وينظر: د. علي البطل الصورة الفنية في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، (بلا مكان الطبع) ١٩٨١، ص٢٥. كما ينظر: إبراهيم العريض، الشعر والفنون الجميلة، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢، ص٤٤. وينظر كذلك: فصول في البلاغة، محمد بركات أبو علي، دار الفكر، عمان ١٩٨٣، ص١٩٨، ص٢٠٣.

(٥١): ينظر: د. حفني شرف، ص٣٠١. وينظر: عباس محمود العقاد، مطبعة مخيمر، القاهرة ١٩٦٠، ص٣٧. كما ينظر: أمين الخولي، فن القول، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٤٧، ص٦١. وينظر: شفيع السيد، التعبير البياني، دار غريب للطباعة، القاهرة ١٩٧٧، ص١٥٣. وينظر: د. أحمد الصاوي، ص٥٩٠. وينظر: د. مجيد عبدالحميد ناجي، ٢١٩ وما بعدها. كما ينظر: د. عاطف جودة نصر، الخيال مفهوماته ووظائفه، الهيئة المصرية العامة القاهرة ١٩٨٤، ص١٩٤، ص٢٢٦. وينظر: د. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٨٣، ص٣١٧ وينظر: جاكوب كورك، اللغة في الأدب الحديث، ترجمة: ليون يوسف وعزيز عما نوئيل، مطابع دار الحرية، بغداد ١٩٨٩، ص٢٣٠. كما ينظر: د. وجدان عبدالإله الصائغ، الصورة البيانية في شعر عمر أبي ريشة، مؤسسة الخليل، بيروت ١٩٩٧، ص٥٣.



الوطنية في شعر الدكتور عبدالله باشراحيل

□ الوطنية سمة بارزة وجبلة تجري في عروق الإنسان مجرى الدم.. تظل ملازمة لمسيرته الحياتية تتقوى جذورها بالحب الصادق والانتماء الأصيل لا تشوبها شائبة أو يعتريها أدنى شك في مصداقيتها، تتجلى هذه الصفة في حميمية الإنسان وصلته بأمته ووطنه ومجتمعه.. وما يقدمه خلال ذلك من أعمال وجهود ذات صلة بحاضر أمته ومستقبلها.. ولكل إنسان نظرته وطريقته الخاصة في ترجمة هذه المشاعر.. وهذه الأحاسيس من خلال تعامله - تصديقاً وحباً وثقة -



علي خضران القرني

- الطائف -

وطني لو شــغلت بالخلد عنه

نازعـتني إليـه في الخلد نفـسي

والشاعر أي شاعر عندما يتغنى بحب وطنه وتراثه وأهله.. إنما يؤكد تلك الصفات والخصائص التي تكمن في نفسه تجاه وطنه – صدقاً وحباً وانتماءاً –

والشاعر المبدع د. عبدالله باشراحيل أحد الشعراء السعوديين الذين أحبوا وطنهم وتغنوا بأرضه وتراثه وأمجاده.. وظل هذا الحب صفة ملازمة له – قولاً وعملاً – وظاهرة بارزة في شعره لا تكاد تخلوا منها قصائد دواوينه الـ (٢١) التي صدرت له حتى الآن.. وتُرجم العديد منها إلى لغات عدة كالإنجليزية والألمانية.. وكُرّم كمبدع – على المستويين العربي والدولي.

وقد تغنى بحب وطنه وخاصة مكة المكرمة – حرسها الله – مسقط رأسه ومدارج صباه ومنطلق فتوته كغيره من شعراء مكة أمثال: طاهر زمخشري، حسين سرحان، حسين عرب، محمد حسن فقي، محمد عبدالقادر فقيه، إبراهيم فودة، حسين علاف، عبدالله جبر، فاروق بنجر، انصاف بخاري، وغيرهم من القدامى والمحدثين كثير.

ويؤكد لنا صدق وسمو هذا الحب.. في وطنيات نابضة بالحب وصدق المشاعر والأحاسيس التي تتفاعل معها النفس وتطرب لها المسامع:

يا سـعـوديتي وأنت مـلاذي
طول عـمري، وكعبة القصادِ

جـمع الودُّ أمـرناً فـغـدونا
أمـةً للهـدى تمدُّ الأيادي

واعـتـصـمنا بديننا، وهتـفنا
نحن بالله من خـيار العبـاد

شَبَّ في أرضك الفؤاد صغيراً
وشـمـخنا بعـزة واعـتدادِ

ونضـونا عن السـواعـد نبني
مـجدَك الحـر رغم كيدِ الأعادي

ويهزه الشوق والوفاء والحنان كلما نأى عنها وابتعد.. وتظل أطياف حبه ووفائه لها تداعب

مـخيلتـه أنى ارتحل وأقـام.. يحـركـهـا الشـجن ويحدوها الحب الصادق.

يا بلادَ النور يا فــجـرَ الهــدى

يا مناراً شـامـخـاً عـبـر الحـقبْ

كيف لا أغـدو بهـا مـبـتـهـجـاً

وجــلال البــشـــر يعلو.. ويثبْ

كـــيف لا أرسل تحناني لهـــا

وهي تدعـوني ببـسـمـات العـتب

نحن يـا أم القــــرى آمـــالنا

مـاشـدت إلا لتـحـقـيق الأرب

نرقب الأيام في أعـــيـــادها

كلمــا مــر خـيــال وانسـحبْ

وكما هام الشـاعر طاهر زمخشري (بروحه على الرابية وعند المطاف وفي المروتين) فالشاعر باشراحيل يظل مغرماً وملهما في عشقة لمكة المكرمـــة.. أم القـرى.. مــهـبط الوحي.. أرض الرسالات السماوية.. ومنطلق الهداية.. التي عمت أرجاء الدنيا نوراً وعدلا ورحمة.. وهو ديدنه ومحور ارتكازه في وصف الحب المتأصل في نفسه وحياته نحوها.

مــوطني يا بحـرَ أضــواءٍ تجلّى

ومناراً بالهــدى الســامي تعلّى

مكّة الحبّ وأعـــــلام تراءات

وهَمت وديانهـا شـمـسـاً وظلا

إنهـــا رَجع بَراءاتٍ نشـــاوى

وبهـا طين المنى قـد صـار فـلاً

كم ضَــحِكنا وعَــدَونا ولعِــبنا

وكـبـرنا والمدى مـازالَ طِفـلا

ولدى الكعـبــةِ طفنَا وابتــهَلنَا

وشَـرِبنَا الزمْـزمَ الشّـهْـدَ المُحلى

ذاكَ تــرْيَــاقُ يُــداوي كـل داء

وطعــــامٌ للذي صـــامَ وصلّى

مكةُ النور وصـوتُ الوحي نجـوى

وسـبـيلُ المصطفى طهـرا ونبـلا

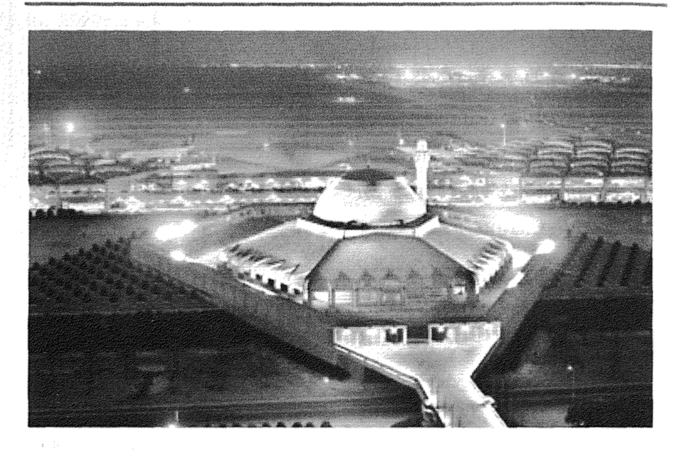
قـبلة الإسـلام تسـمـو بالبـرايا

أبد الأزمــان إحـســانـاً وعـدلا

مـوطني أم القـرى والنبل فـيـهـا

إنهـا من كل مـافي الكون أغلى

وأختم هذه القراءة العابرة الوجيزة في جانب مـضيء من جـوانب أشـعـاره العديدة في شتى مجالات الحياة والناس.. بهذه الأبيات التي يخاطب



الكعبة بيت الله الحرام قبلته.. وقبلة كل مسلم على وجه البسيطة.

عاشَ هذا البيتُ روضاً مورقا

يرفع الصوتَ نداءً مشرقا

روضة النورِ وما أكرمها

كعبة الدينِ وحلْو الملتقى

مهبط الوحي وأفياءُ المنى

وذرى الإسلامِ طالتْ عنقا

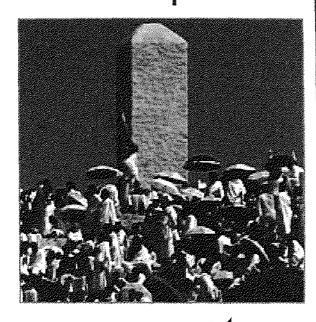
ياسنى القرآن في آياتهِ

شرعة الله تعالت خلقا

إنها أم القرى محبوبتي

إنها النورُ وطابت ألقا

ولو استرسلنا في تلمس صور الوطنية في شعر باشراحيل عبر قصائد دواوينه الـ (٢١) لما اتسع لها هذا المقام.. وظل ابحارنا عبر شواطئها الحالمة مستمراً لا يتوقف.. وحسبنا أن مالا يدرك كله لا يترك جله.. وأن الشاعر كان صادقاً في شعره مع نفسه.. مخلصاً لأمته ووطنه. سامياً في تطلعاته وإنسانيته ونظرته للحياة والناس ■



دور الأمير في خدمة حجاج بيت الله الحرام

تجربة التفويج السودانية (نموذجا)

مقدمة :

□ ***التأمير سنة متبعة لقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم.. والإمارة في الحج أكثر ضرورة لصالح الحجيج..***

وعملاً بهذه السنة الخالدة، وحرصاً على تنظيم وترتيب أمر الحجاج على الوجه الأمثل والأفضل، قامت إدارة الحج في السودان بتفويج الحجاج في مجموعات، ولكل مجموعة (أمير) عليه المسؤولية الكاملة: توعية دينية وإرشاداً وتوجيهاً وإدارة..

ويكون الأمير ممن تتوفر فيه هذه الكفاءة العملية والإدارية..

وبفضل الله تعالى قد نجحت هذه التجربة نجاحاً كبيراً..

أولاً: الحج ومكانته في الشرع الإسلامي:

الحج فريضة الله على عباده المسلمين، فهو فرض على كل مسلم ومسلمة استطاع إليه سبيلا، لقوله تعالى: (ولله على الناس حِجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) آل عمران الآية – ٩٧ والحج ركن من أركان الإسلام الخمسة لقوله صلى الله عليه وسلم:

"بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا" متفق عليه، وخطب النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: "إن الله كتب عليكم الحج، فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله أفي كل عام؟ فقال: لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم، الحج مرة، ومن زاد فهو تطوع) رواه الخمسة إلا الترمذي، كما رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في فعل شعيرة الحج فقال: "من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه". متفق عليه.

ثانياً: أول أمير للحج:

لقد تم في عام ثمانية من الهجرة فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي السنة التاسعة من الهجرة بعث رسول الله صلي الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أميراً على الحج ليقيم بالمسلمين المناسك، فكان سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه أول أمير للحج في الإسلام، وفي السنة العاشرة (١) حج النبي صلى الله عليه وسلم بجمهور المسلمين حجة الوداع وفيها بيّن للناس كيفية الحج وقال لهم: (خذوا عني مناسككم) ومنذ ذلك التاريخ استمر أمر تفويج الحجاج والتأمير

د: يوسف عبدالله مصطفى
جامعة الجزيرة - كلية التربية الحصاحيصا
شعبة الدراسات الإسلامية - السودان

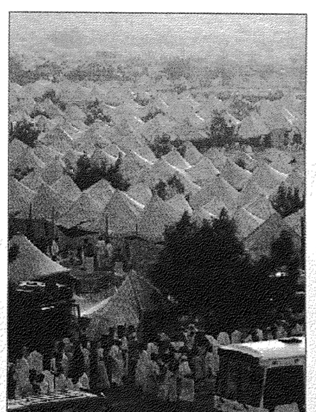
عليهم ولكن تقاصر هذا الأمر وتقلص بمرور الزمن كلما بعد الناس عن فجر النبوة حتى انعدم تماماً في بعض بلاد الإسلام.

وبحمد الله وعونه قد حدثت الآن في بلادنا صحوة إسلامية ورجع الناس إلى التأصيل ورد الأمور إلى أصلها فعاد أمر تفويج الحجاج والتأمير عليهم كما كان من قبل.. قال صلى الله عليه وسلم: "إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم" (٢) رواه الطبراني من حديث بن مسعود، وليأمروا أحسنهم أخلاقاً وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون هذا أميرُنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: الحاجة إلى الأمير:

إنما يُحتاج إلى الأمير لأن آراء الجماعة تختلف في تعيين المنازل والطريق ومصالح السفر، ولا نظام إلا في الوحدة ولابد لأية جماعة من أمير يقودهم ويدير شؤونهم، وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكون واحد، قال تعالى: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} (٣) فإن كان المدبر واحداً انتظم أمر التدبير وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في

الحضر والسفر، وإن مواطن الإقامة لا تخلو من أمير عام كأمير البلد مثلاً وأمير خاص كرب الدار، وأما السفر والحج فلا يتعين لهما أمير إلا بالتأمير فلهذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء ويتوحد الهدف، وعلى الأمير ألا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية للجماعة وخادماً لهم، كما نُقل (٤) عن عبدالله المروزي أنه صحبه أبو علي الرباطي فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا، فقال بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره، فأمطرت السماء ليلة فقام عبدالله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء يمنع عنه المطر، فكلما قال له عبدالله لا تفعل يقول ألم تقل إن الإمارة مسلَّمة لي فلا تتحكم عليّ ولا ترجع



عن قولك حتى قال أبو علي وددت أني مت ولم أقل له أنت الأمير. فهكذا ينبغي أن يكون الأمير.

رابعاً: دور الأمير في الحج وأهميته:

إن دور الأمير في عملية قيادة وإرشاد حجاج بيت الله الحرام دور كبير ومهم ولذلك فإن مهمة الأمير تحتاج إلى شخص مؤهل وملم بفقه الحج بالإضافة إلى تمتعه باللياقة التامة والصحة الجسمية والنفسية والقدرة على قيادة مجموعة الحجاج الذين يوكل أمر حجهم إليه.

فالأمير بمثابة المحور الذي تدور حوله جميع أعمال الحج سواء كان ذلك في الإطار الأفقي أو الرأسي، أي دوره في القيام بالأعمال التي تتعلق بشؤون الحجاج أو من جانب المسؤولية المناطة به من قبل إدارة بعثة الحج، إذ هو بمثابة حلقة الوصل بين الحجاج وبين إدارة البعثة، فبقدر جهده وعطائه وتفانيه في القيام بخدمة الحجاج وإخلاصه وسعيه في تذليل المشكلات والعقبات التي تواجههم يكن نجاحه ونجاح المهمة وهي تمام الحج، وبإخفاقه وتقصيره في خدمة الحجاج يكن فشل المهمة، ولذلك قالوا: (إن الحج أمير).

إن دور الأمير وقيامه بأداء واجباته تجاه حجاج بيت الله الحرام يتوقف على أمور كثيرة تترابط فيما بينها لتكون في النهاية (خارطة طريق

الحاج) لأداء حجه بسهولة ويسر وبذلك يتحقق الهدف المنشود وهو (الحج المبرور)، ويمكن بيان لك الأمور في الآتي:

١- عند بدء أعمال الحج:

ربط وتوطيد علاقة الأمير بأعضاء بعثة الحج وعقد دورة تدريبية يشرح من خلالها فقه الحج مناسكه باستفاضة ووضوح.

١- عمل الإجراءات:

وذلك كتجهيز أوراق سفر الحجاج واستلام لكشوفات والوثائق والشيكات وحفظها.

٢- قبل السفر إلى المملكة:

على الأمير أن يعقد لقاءات مع حجاج فوجه غرض التعارف والترابط والتفاكر في السفر متطلباته وأن تكون هذه اللقاءات فرصة لتوجيه لحجاج وإرشادهم في أمور دينهم ودنياهم وأن شرح لهم فقه الحج بصورة مبسطة خاصة للنساء كبار السن.

وعلى الأمير أن يوجه حجاج فوجه بحمل لأمتعة الشخصية الضرورية والدواء إذا كان لحاج يتعاطى علاجاً، وكيفية المحافظة عليها كما بصرهم بأحوال السفر والقيام بمناسك الحج وما يلاقيه الحاج من مشقة وتعب ويحثهم على التحمل والصبر والتحلي بالأخلاق الفاضلة لينالوا جميل الثواب وعظيم الأجر من الله تعالى.

□ أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - كان أول أمير للحج في السنة التاسعة للهجرة..

□ على الأمير يجتمع شتات الآراء ويتوحد الهدف

٤- عند الوصول إلى المملكة:

(أ) يجب على الأمير أن يحمل علامة مميزة (شارة مثلاً) وأن يلبسها في كل الأحوال حتى يصير معروفاً للجميع وبذلك يسهل الاتصال به والتواصل معه، وأن يكون مثالاً في المجاهدة والصبر وضبط النفس والسلوك حتى يكون قدوة لجميع الحجاج، وأن يكون الأمير أول من يضحي وآخر من يستفيد، وبهذا يحملهم على الصبر وقوة التحمل ويذكرهم بأن (الحج جهاد لا قتال فيه).

كما يقوم الأمير بتوجيه حجاج فوجه فيما يختص بالترحيل والسكن والإعاشة أثناء إقامتهم في جدة أو مكة المكرمة أو المدينة المنورة وينبههم

□ **أمير الجماعة في الحج عليه أن يجعل نفسه وقاية لهم وخادماً**

□ **الحج أمير .. والأمير مؤتمن..**

للمشكلات التي تواجههم خاصة فيما يتعلق بتشابه المباني وغرف السكن وبصات الترحيل وأدوات التعامل كما يوجههم بضرورة أخذ الحذر والانتباه عند التعامل بهذه الأشياء وفي داخل السكن يذكرهم بالمحافظة على النظافة واستعمال المياه والحمامات بالصورة المعقولة ويحثهم على التسامح وحسن المعاملة مع الرفاق وجميع المسلمين.

(ب) على الأمير تنبيه الحجاج بالسير في مجموعات ولبس سوار المعلومات وحمل الكرت الخاص بمكان السكن ومعرفة نوع ورقم سيارة الترحيل وحفظ الشارع ورقم الباب الذي يدخلون من خلاله في الحرم، وحفظ رقم تليفون الأمير وعنوان وتليفون أقرب شخص معروف لدى الحاج بالملكة، حتى لا يتعرض الحاج إلى التوهان أو يضل الطريق، وفي حال التوهان تنبيه الحجاج إلى عدم التحرك الكثير والأفضل الانتظار في مكان بارز.

(جـ) أن يعمل الأمير على تماسك فوجه وذلك بقربه منهم ومدارسته لهم المستمرة وأن يؤمهم في الصلاة في حال صلاتهم خارج المسجد، وأن يكون لصيقاً بهم في جميع الأحوال بالليل والنهار، وأن يعمل الأمير على تقسيم فوجه إلى مجموعات صغيرة على رأس كل مجموعة حاج من ذوي المقدرة والمؤهلات المناسبة ثم يربط ذلك برعايته ومتابعته المستمرة.

كما على الأمير أن يعمل على خلق علاقات صداقة مع حجاج فوجه وأن يوجه اهتمامه للجميع ولا يخص مجموعة دون أخرى بتعامل خاص أو محاباة وأن يتفقدهم بصورة متواصلة الأمر الذي يجعلهم يلتفون حوله ويتقبلون توجيهه وإرشاده من ناحية والتماس العذر فيما قصر فيه تجاههم من ناحية أخرى.

(هـ) على الأمير أن يتابع ويتأكد من أداء الحجاج لمناسكهم بدءاً بالإحرام وكونه من الميقات ويشرح لهم كيفية أنواع الحج الثلاثة: الإفراد، التمتع، والقران، وأرى أن يبصرهم بأعمال تلك المناسك بطريقة ممرحلة لأن شرح أعمال الحج جملة واحدة قد لا يتيسر فهمه لكثير من الناس، فمثلاً في حال الحج بالإفراد، وعند دخول مكة والوصول إلى البيت يبصرهم بأداء طواف القدوم ومكانته في الشرع ثم السعي بين الصفا والمروة وكيفيته وإذا جاء اليوم الثامن من ذي الحجة وهو يوم التروية يأمرهم بالذهاب إلى منى قبل الظهر وصلاة خمس أوقات والمبيت وصلاة الصبح فيها،

والخروج بعد طلوع شمس التاسع من ذي الحجة إلى عرفات والوصول بعد الزوال إلى مسجد نمرة بعرفات وصلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً مع الإمام (جمع تقديم) وبعد ذلك أن يتجهوا إلى جبل الرحمة بعرفات ليقفوا ويدعوا الله حتى مغيب شمس التاسع، ويذكرهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الحج عرفة" ثم بعد ذلك بقليل تكون النفرة إلى مزدلفة فإذا وصلوها صلوا المغرب والعشاء جمع تأخير، وقصروا العشاء، ثم المبيت بمزدلفة وصلاة الصبح فيها وإذا جاء الإسفار الأعلى من يوم العاشر وهو يوم النحر خرج الحاج إلى منى ورمى جمرة العقبة ثم ذبح إن كان معه هدي ثم حلق أو قصر وبذلك تحلل التحلل الأصغر، ثم يذهب إلى مكة المكرمة ليطوف طواف الإفاضة وهو أحد أركان الحج الأربعة، فإذا فرغ منه فقد تحلل التحلل الأكبر، ولم يبق محرماً، ثم يرجع إلى منى ليقيم فيها ثلاثة أيام أو يومين إن تعجل وذلك لرمي الجمرات الثلاث، فإذا عزم على الرجوع إلى أهله حضر إلى مكة المكرمة وطاف طواف الوداع، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا ينفرن أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت" رواه مسلم، وبذلك انتهى حجه. هكذا ينبغي للأمير أن يوجه حجاج فوجه.

لقد ذكرنا في هذا المثال مناسك الحج بصورة موجزة وعلى الأمير أن يبين لحجاجه أعمال كل منسك بالتفصيل، وأن يكون ذلك عند القدوم إلى المنسك المعين.

بعض آداب السفر:

إذا عزم المسلم على السفر عليه أولاً أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون ورد الودائع إلى أهلها، وإعداد النفقة له ولمن تلزمه نفقته، وأن يودع أهله وجيرانه وأصدقاءه وجميع من يعرفه من الناس ويطلب العفو منهم، وأن يختار رفيقاً صالحاً ممن يعينه على الدين يذكره إذا نسي ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ويُعرف الرجل برفيقه، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجل وحده وقال: "إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم" رواه الطبراني ومن هديه صلى الله عليه وسلم أنه كان يفضل الخروج إلى السفر يوم الخميس، وأن يأتي من طريق ويرجع من طريق آخر■

الهوامش:

(١) الشيخ محمد الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، حجة الوداع، ص ٥٢ وحياة الصحابة حجة الوداع ج ٣، ص ٣٩٨ وتهذيب سيرة ابن هشام، فتح مكة، ص ٢٧٦، ونيل الأوطار ج ٤، ص ٢٧٩، كتاب المناسك.

(٢) رواه الطبراني من حيث بن مسعود.

(٣) سورة الأنبياء الآية / ٢٢ .

(٤) الإمام الغزالي - إحياء علوم الدين - باب آداب السفر، ج ٢ / ٢٢٣ .



رحلة
في الذاكرة

هذه صفحة
من حياتي..
أدوِّنها تذكاراً
لماضٍ سعيد..
وليته يعود..

عذاب المستضعفين

□ سُئلت من أحد المحررين بإحدى الصحف. ما هي أسعد ليلة في حياتك؟ فلم أدر بماذا أجيب، لأن الليالي مرّت رتيبة في حياتي، فهي تتشابه تشابها متصلاً إلا ما ندر، وهذه الندرة إن وقعت ليست بشيء كبير يعتد به، وإنما هي لدى الناس جميعاً كما لديّ، فماذا عسى أن أقول، لقد أهملت السؤال إذ ليس لدي ما أجيب به مما يفيد القارئ، ولكن السائل واصل الإلحاح لأنه يريد أن يكتب سلسلة يلهي بها القراء عدداً بعد عدد، فراجعت فهرس أيامي بدقة، وبخاصة ما كان في عهد الطموح حين تتفتح الآمال، ويمتد الخيال بالناشيء الغرير إلى أقصى مناه، وقد وقفت عند ليلة سعيدة كانت هي في رأيي غرة الليالي الساطعة في عمري المديد، وسأمهد للحديث عنها بما يجلوه للقارئ دون افتعال.



أ.د. محمد رجب البيومي

عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

كنت طالباً بمعهد الزقازيق الثانوي في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي، وكانت المدينة الكبيرة تحفل بالندوات الأدبية في جمعية المحافظة على القرآن، وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الإخوان المسلمين، ونوادي الأحزاب السياسية كالوفد والأحرار الدستوريين والهيئة السعدية! ولكل منها حفلات أسبوعية تُلقى فيها المحاضرات، وتعقد الندوات، وكان طلاب المعهد الذي أنتمي إليه في طليعة المستمعين، ومنهم من كان يلقي القصائد في المواسم الدينية ومن كان يتحدث في الشؤون الاجتماعية وقد يعجب لذلك، من يرى طلاب اليوم في المدارس والمعاهد يكادون يكونو في مستوى العوام تماماً، لأن الرغبة الشديدة إذ ذاك في ارتقاء الفكر وتنوع المعارف كانت مسيطرة على الكثرة من الطلاب سيطرة تدفع بهم إلى الاجتهاد ومُسايرة الأحداث الثقافية والاجتماعية بهمة لا تعرف الكلال، كما كانت مجلات الرسالة والثقافة والهلال والأزهر متداولة بين الطلاب، يتبادلونها في شوق واهتمام، وفيهم شعراء ينظمون القصائد، وخطباء يعتلون المنابر، ويلاقون من التشجيع الحميد ما يشد أزرهم إذ يحرص شيخ المعهد ونخبة من الأساتذة على حضور هذه الأمسيات، ويوالون التشجيع، ويأخذون بيد المتعثر حتى ينهض، فأين نحن الآن من هذا الماضي السعيد أين نحن؟!

وقد كنتُ أنشر قصائدى في المجلات، فأحمد الله على ذيوعها بين الزملاء، وقد طالعت فيما طالعت نماذج شعرية للمسرح الدينى تنشر في الرسالة وغيرها. فجذبني هذا اللون المسرحي جذباً شديداً، حتى لقد حفظتُ شذورا مما راقني منه كما أحفظ قصائد الكبار من أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري، وقد وقع في يدي عددُ من الأعداد الممتازة التي كانت تصدرها مجلة الرسالة في مطلع كل عام هجري، فرأيت مسرحية في فصل واحد تحت عنوان "هو النبي المنتظر"، نظمها أستاذنا محمد عبدالغني حسن، وهو شاعر كاتب ناقد، هذه المسرحية تتخيل فريقاً من شعراء الجاهلية في الفترة القريبة جداً من الإسلام يجتمعون فيتحدثون عن شؤون الحياة وما يموج بها من شر لابد من تلافيه، وفيهم زهير بن أبي

سلمى والأعشى وحسان بن ثابت وقس بن ساعدة الأيادي، وقد جرى على لسان كل واحد من هؤلاء، ما يعقل أن يقول، فالأعشى عاشق للخمر، وزهير حكيم عاقل، وحسان متردد، وقس واعظ ينظر إلى الغيب فيعتقد أن تغيراً سيحدث على يد نبي كريم ينتظره العالم جميعه، هذه المسرحية ذات الفصل الواحد، جذبتني إليها جذباً عنيفاً، وكنت قرأت نظائر لها من الشعر المسرحي الإسلامي لشعراء الرسالة وغيرها مثل الأساتذة فريد شوكة ومحيي الدين درويش، وناجي الطنطاوي، وعبدالعزيز خليل فعنَّ لي أن أنظم مسرحية، وأنا طالب ناشئ لاتزال يداه ضعيفتين عن السبح في هذا الموج الزاخر ولكن روح الأمل في التوفيق، جعلتني أفكر في مسرحية أكتبها تحت عنوان (عذاب المستضعفين) حيث تتحدث عن فترة الإيذاء الشاق الذي كابده المستضعفون في فجر الرسالة، وقد اخترت منهم بلال بن رباح، وخباب بن الأرت، وصهيباً، وزُنيرة، وعمار بن ياسر، وكلهم لاقى من البلاء الكارب ما يعرفه قراء السيرة، فجعلتُ كلَّ صحابي من هؤلاء الكرام، يتحدث عن بلواه، ويرد عليه أخوه بحديث مشابه، ولم أخترع المعاني فهي مدونة في التاريخ، ولكنني جعلت الحوار شعرياً، وأنا أنظر له الآن نظرة الأب الحاني إلى ابنه المريض، حيث لم يسلم من النقد، ولكن جاء قدر المستطاع، وقد بدأت المسرحية بقول عمار

تمادتْ شقوتي واشتد مابي
وطال تأوّهي وَعلا انتحابى
بكيت من السياط تدقّ عظمي
وتسلخُ كلّ ثانيةٍ إهابى
فصِرت أدُبّ فوق الأرض عجزا
كأنّي لست في عهد الشباب
فليت الموت يلحقني سريعا
فأنجُو من تباريح العقاب

فيرد عليه صهيب بقوله:

أخي عمارُ قد فاضَت دموعي
عليك أسىً وعاودني اكتئابي
فلا يَحْزنْك تعذيب شديد
فإنا كلنا تحت العذابِ

ليقول عمار:

ومنَ مِثْلى أمضّته الرزايا
فكان مصابُه شرّ المصاب
أبي تحت العذاب قضى شهيداً

وواريناه في جــــوف التـــــراب

وأمـي مـــــــثلـه بـالأمـس ولّـت

مـــــــــبـكـرة إلـي دار المـآب

لبــئس العــيْش بعــد أبي وأمي

فــقـد ولى لفـقـدهمــا صــوابي

ويجئ دور بلال فيخاطب عماراً بقوله:

تصبّرْ أخي عمار فالصبر جُنّةٌ

لمن بات في جـمـر اللظى يتـقلبُ

فقد عشتُ دهراً في شقاءٍ مُبرّح

أهان بلا ذنبٍ جنيتُ وأضـــرب

فطورا على الرمل السخين ظهيرةً

أظـل عــلــى تَـنُّـوره أتـقـلـب

ومن فوق صدري صخرةٌ جبلية

تروح على جسمى مراراً وتذهب

ويتأسف السامعون فيسأله عمار:

ومَنْ ذا أخي نجاك من غمرة الردى

وباعـد عنك الموت وهو مُــقــرّبُ

فيأتي الرد شعراً بما لا أطيل في سرده، حيث يحكي بلال صنيع أبي بكر في خلاصه ثم عتقه،

ويتطلع القوم إلى خباب بن الأرت متسائلين عن ما أصابه، فيرد رداً أليما في أبيات أختار منها:

لقـيتُ من النوائب مـا كـفـاني

فـزلزل وقـعُـهـا القـاسي كـيـاني

بُليت بذات قلب من حـــــديد

تُـجــرّب فيّ أصناف الهــوان

فكمْ أحْمَت مسـاميـرا غـلاظا

لهـا في مُـهـجـتي وقعُ السّنان

وجـئتُ إلى رســول الله أشكو

ولـيـس لـهُ بمـا صَـنَـعْـت يـدانِ

فـقـال لسـوف تأخـذُ عن قـريب

بثــأرك ثم تصــبح في أمــانِ

ويدور حوار شعري يتحدث عما كابد خباب، وعن المعجزة التي تحققت، حيث صدق الرسول فيما قال وتنبأ به إذ مرضت هذه القاسية مرضاً شديداً. وأشار طبيبها بأن تُكوى بالنار الحامية، ونزلت على رأيه فكان خـبـاب هو الذي يحـمـى الحديد، ويلسعها به، يقول خباب

نعمْ صــدق الرســول وجـاء يوم

قــريب قــد شــفــيتُ به جنانى

وقــال طبــيــبــهــا تُكوى بنار

ليخلص جسمها مما تعاني

فقُمت بكيها ولها صراخ

يُزلزل صوته مُمَن الرعان

ويمتد الحوار إلى صهيب وزنيرة في نسقٍ شعرى مطرد، أذكر منه ما جاء على لسان زنيرة حيث قالت:

لقد كُنت عند أبي جهل الو

غد يُبْصر ضَعفى فما يعذر

فيسلخ جسمى تحت السياط

ويبهجه الدم إذ يقطر

ويقذف بالجمر في مقلتي

إلى أن عميت فما أبصر

ويتوالى الحديث على هذا الطراز، حيث تنتهي المسرحية بما جاء في ختام قول صهيب:

غداً يستبين الحق بعد خفائه

وينتقم الجبار للدين منهمو

وحين أتممت النظم، جعلت أراجع الأبيات، وأنا في شك من جودتها، وتحيرت فيمن أذهب إليه من الأساتذة ليبدى رأيه فيها، وخفت أن أجابه بما يثبط همتي، فأتأثر تأثراً يدفعني إلى الانقباض، ثم صح عزمي على أن أرسلها إلى مجلة (مصر الفتاة) التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسين، ويرأس تحريرها الكاتب المؤرخ الأستاذ محمد صبيح، وقلت في نفسي إذا نشرت المجلة المسرحية، فهي الشهادة التي لا تقبل النقض، وإذا لم تنشر فلن يعلم أحد بما كان، ولن أخسر شيئا، وكانت المفاجأة أن نشرت المسرحية في وضع مرموق، فسررت سروراً بهيجاً ثم جاءني خطاب من الأستاذ محمد صبيح يثني على ما قرأ، ويدعوني إلى مواصلة النشر بالمجلة، وقد تفضل فأوصاني بقراءة مسرحيات شوقي ليتسع خيالي، ولم تكن مسرحيات عزيز أباظة قد ظهرت بعد وبعد أيام من نشر المسرحية جاءني رسول من جمعية الشبان المسلمين يدعوني إلى لقاء المشرف الثقافي بالجمعية غداً لأنها ستحتفل بالمولد النبوي، فقلت في نفسي، إنه يريد قصيدة تلقى بالاحتفال كما فعلت في العام الماضي، ولم يرد بذهني شيء عن المسرحية وبدأت أنظم قبل لقائه قصيدة قلت في مطلعها

أضاء محمد فجلا الظلاما

وحيّا الكون فَأتْلقَ ابتساما

وكانت المفاجأة التي لم أتوقعها أن الأستاذ الفاضل قال لي: إنه قرأ المسرحية بمجلة مصر الفتاة، وأنها ستمثل على مسرح الجمعية في حفل المولد بعد انتهاء الكلمات والقصائد، وعَليَّ أن أحضر هذا الأسبوع إلى الجمعية يومياً بعد العصر، لأستمع إلى إلقاء الممثلين، فأصحح ما قد يعن من أخطاء النحو، وكدت لا أصدق. ولكن الكلام صريح لا لبس به، وقبل الحفل بيومين وضع البرنامج، حافلاً بأسماء المتكلمين، وهم من كبار الأساتذة في مدارس الزقازيق، وكان من بينهم الأستاذ عبدالعزيز كامل الذي صار نائباً لرئيس الوزراء فيما بعد، ثم خُتم البرنامج بتنويه عن مسرحية (عذاب المستضعفين) التي ستمثل، مع ذكر اسمى مقرونا بصيغة الشاعر الأديب، وحين حان الموعد. وجدت كبار المدعوين من علِية القوم يتقدمهم السيد مدير الشرقية وفضيلة الأستاذ الكبير محمد عبداللطيف دراز شيخ معهد الزقازيق الديني وجمعٌ من الشخصيات الهامة، وهذا ما يحدث فعلا في كل احتفال تقيمه جمعية الشبان خاصاً بالمناسبات الدينية. وكأن الله عز وجل شاء أن يجبر خاطري فكان التمثيل في غاية الروعة، وكانت الممثلة التي أدت دور (زنيرة) في غاية التوفيق، وقبل أن ينتهي الحفل قام الأستاذ علي منصور من كبار المحامين، فألقى كلمة الشكر، وخص المسرحية بثناء مستفيض، ودعاني فضيلة الشيخ محمد عبداللطيف دراز، وسلم عليّ بحرارة فائقة، وكانت الإعلانات عن الحفلة تملأ الفناء، وأكثرها مكتوب بالخط البارز، واسم المسرحية يلوح في عيني كالبدر المشرق في السماء!

لم أنم هذه الليلة، وعددتها أسعد الليالي التي مرت عليّ، وحين سئلت عن أسعد ليلة الآن بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما لم أجد غيرها، وأذكر أني حين أرسلت إلى والدي رحمه الله صورة من برنامج الاحتفال، كتب يقول لي، إنه سعيد جداً، وحزين جداً في وقت واحد، سعيد بتمثيل المسرحية وحزين جداً، لأنني لم أخبره عن موعد التمثيل ليحضر على جناح الطائر لمشاهدة الحفل البهيج!

هذه صفحة من حياتي، أدونها تذكاراً لماضٍ سعيد، وليته يعود ■

علاقة الأدب الفـارسي بالعربيـة

□ **التمـازج الثقـافي بين الشعـوب واقع لا مفـر منه ولا تحـول دونه السـدود والحواجز فقد حصل هذا التمـازج بين العـرب والفرس منذ أقدم العصور واستمر إلى العصر الحاضر متأثراً بعوامل عـديدة من أهمها ما يلي:**

١- المجـاورة في الأرض والتشـابه الجغـرافي والسكاني والاجتمـاعي ووجـود عـادات وتقـاليـد مشـتـركـة بين الشـعـبين.

٢- القوافل التجارية الفارسية التي كانت تعبر صحراء العرب إلى الحبشة واليمن فقد كان العرب أدلاء لهـذه القـوافل، يسـامـرون أصـحـابهـا ويستضيفونهم في خيامهم ويتعرفون على تجارتهم وبضائعهم ليجدوا فيها الكثير مما لا يعرفون له اسماً في اللغة العربية ولعل ذلك هو الشكل الأولى للاتصال المباشر بين الشعبين.

٣- قـيـام دولة المناذرة المحـالفـة سـيـاسـيـاً للإمبراطورية الفـارسـيـة وكان بين الدولتين سفراء ورسل بل كـان لكسرى رسـل إلى القـبـائل العربيـة الأخـرى تحـمـل الأعطيـات والأوامـر في بعض الأحيان.

٤- ولكن العـامل الرئيـسـي الذي أدى إلى تمازج فكري وحـضـاري إنما هو الإسـلام الذي صهر الشعبين في بوتقة واحدة جمعهما تحت لوائه فسعوا جميعاً لخدمة الإسلام، وحمل الفرس إلى

جانب إخوتهم العرب مسؤولية الدعوة وقاموا بعبئها أحسن ما يكون التحمل والأداء.

واستبدل الفرس بدخولهم الإسلام خط لغتهم البهلوية بالحرف العربي وكتبوا بالأبجدية العربية وذلك لندرة البهلوية وانعدام وجودها قبل الإسلام ولأن الإسلام جاء بلغة رأوا لزاماً عليهم أن يتعلموها كشرط لصحة عباداتهم الإسلامية.

وهكذا انخرط هذا الشعب في الإسلام وأخذت العربية بعض الكلمات من الفارسية مما لم يكن العرب يعرفونه في جاهليتهم ومما اقتضته الحاجة الحضارية الطارئة وصمدت العربية لهذا الامتحان ولغيره من الامتحانات عبر التاريخ.

وكأن أول كتاب رسمي وجه إلى دولة الفرس في ظل الإسلام وهو ذلك الكتاب الذي حمله الصحابي الجليل عبدالله بن حذافة السهمي وكان يتقن الفارسية إلى كسرى ابر ويز وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) ولكن كسرى مزق كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا عليه قائلاً مزق الله ملكه.. وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن يرسل رجلين جلدين من عنده لإحضار محمد صلى الله عليه وسلم.

محمد على حسين الحريري

- مكة المكرمة -

وذهب الرجلان إلى المدينة المنورة فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم إن كسرى قد قتل وكان الوحي أخبره بذلك وكان شيرويه ابن كسرى قام على أبيه وقتله وأمر الرجلين أن يقولا لباذان – إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر فإن أسلم باذان ملَّكته ما تحت يده وجعلته أميراً على قومه.. ووصل الرسولان إلى باذان والخبر بمقتل كسرى يصل بعد قليل وكتب شيرويه إلى باذان انظر الرجل الذي كتب لك أبي فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري وكان ذلك سببا في إسلام باذان ومن معه

□ الشعوب الأعجمية الذين دخلوا الإسلام جاءوا ومعهم لغاتهم وعاداتهم..

□ **تعلموا العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم.. وأفادوا من آدابها..**

□ بحكم تلاقح الحضارات دخلت العربية بعض الكلمات الفارسية..

من أهل فارس باليمن وبعد قتل شيرويه ولي العرش ابنه ازدشير ثم قائد جيشه شهريزار ثم وليت العرش بوران بنت كسرى ابرويز أخت شيرويه في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

كانت عاصمة الفرس في المدائن . على شاطئ دجلة الشرقي والغربي جنوب بغداد وفي منتصف الطريق بين بغداد وواسط.

تم فُتحت فارس كلها في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه الخليفة الثاني، وكان لابد لحركة الفتوح هذه من تنظيم ودقة، فأشار بعض مرازبة الفرس في المدينة على سيدنا عمر بتدوين الدواوين، ثم جعل الخلفاء ديوان كل صقع بلغة سكانه، وظل ديوان العراق بالفارسية حتى ولي الحجاج على العراق فكان ديوان فارس يُدْعى "زاذان فروخ" وانضم إليه صالح بن عبدالرحمن وكان يتقن الفارسية والعربية ولما قتل زاذان فروخ في فتنة ابن الأشعث بقى صالح بن عبدالرحمن وحده في الديوان فعربه للحجاج بأمر الخليفة.

لا شك أن الفرس أدوا دوراً كبيراً في كافة الأنشطة الإسلامية وقرَّبهم الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أكرمهم بقوله: (سلمان منا آل البيت) وشهد له بالعبقرية في قوله صلى الله عليه وسلم: (لو كان العلم في الثريا لبلغه رجل من فارس) ويحمل أكثر الفقهاء هذا الحديث على الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان.. وقد اشترك الكثير منهم في دراسة العربية ولمع منهم سيبويه وأبو علي الفارسي وغيرهم من النحاة وفي صدر تاريخ الإسلام الأول كانت فارس مقر الشيعة بوجه عام ومنها أيضاً كانت بوادر الحركة الصوفية.

ذلك أن فارس كانت ذات حضارة سابقة وثنية ومزدكية وزرادشتية وباطنية بالإضافة إلى مراكز إشعاع ثقافية في جنديسابور وحران، وكان يسود عالم الفكر مبدأ الأفلاطونية الحديثة، فإذا أضفنا إلى هذا الخليط العجيب من الثقافات التي أساءت إلى الإسلام عندما احتوت فارس الحركة الشعوبية التي بدأت في فارس بالفخر بالكسروية أحياناً أو بالتنكر للعرب أحيانا أخرى ودور الفرس في الأحداث المؤلة في صدر تاريخ الإسلام أدركنا بعد نظر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي قال: (وددت أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم).

قال هذا الكلام قبل مقتله بزمن، وليت أمنيته تحققت إذن لتغير وجه التاريخ العربي.. إن عمر

رضي الله عنه كان يرفض وجود غير العرب في المدينة المنورة قبل أن يتمكن الإسلام جيداً وهو يعلم أن العرب والعرب وحدهم المسؤولون أولاً وآخراً عن الدين الإسلامي، وعندما علم أن قاتله أبو لؤلؤة حمد الله أن لم تمتد إليه يد عربية ولو من نصارى العرب.

ولكن إردة الله لا ترد وحكمته ماضية في خلقه لقد قال سيدنا عمر لابن عباس رضي الله عنهما (قد كنت أنت وأبوك تحبون أن يكثر العلوج في المدينة) وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال له ابن عباس: (إن شئت فعلنا) فقال له: (بعدما تكلموا بلسانكم وصلّوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم).

ورغم هذا ظل الفرس والعرب أخوة في الدين وإلى اليوم تجمعهم هذه الرابطة المقدسة وكلاهما ينقم على مثيري الفتن في كل الأمكنة والأزمنة: ذلك أن الإسلام دين عالمي حمله العرب إلى البشرية وقد ساهم الفرس في حمل هذا الدين فكان لهم مؤلفاتهم في العربية والفقه والأصول والحديث وغيرها من فروع الشريعة.

لقد استمر التمازج الثقافي بين العرب والفرس في كل العصور ففي عصر العباسيين ترجم الكثير من كتبهم وظهر منهم الشعراء بشار بن برد ومهيار الديلمي.

وتوج ذلك كله في القرن السادس بترجمة كتاب كليلة ودمنة إلى العربية وترجمة هذا الكتاب تُعتبر أهم مرحلة من التداخل بين الأدبين فقد صار الفارسيون ينحون بعده منحى عربياً في كتابتهم، أدخل إليهم السجع والمترادفات والاستعارات والتشبيهات واستمر هذا التأثير والتبادل إلى يوم الناس هذا.

□ بعض شعراء العربية أحبوا بلاد فارس واستوطنوها. وتأثروا بآدابهم..

ولم يتخل الفرس عن ثقافتهم وربما دبت الحمية فيهم حتى قال إسماعيل بن يسار النسائي

واسألي إن جهلت عنًا وعنْكم
كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسون
سفاها بناتكم في التراب

وقد خالط كثير من الشعراء العرب بلاد فارس وأقاموا فيها كالطرِمّاح والكميت وجرير والفرزدق وتأثر شعرهم بالثقافة الفارسية.

ويبقى التبادل اللغوي أهم مظاهر التداخل بين العرب والفرس حيث أخذت العربية كثيراً من الألفاظ الفارسية ولكن لا يجوز لنا الإكثار في

□ **كثير من الأعمال الأدبية الفارسية ترجمت إلى العربية. وتأثر بها من تأثر من أدباء العربية.**

تعداد كلمات الفارسية في العربية لأن التأثير لا يتجاوز كلمات معدودة بعكس ما يزعم الشعوبيون أن العربية أخذت من الفارسية حتى كلمة اللجام ولهذا صرخ بديع الزمان الهمداني في مجلس الصاحب بن عباد فقال:

متى قرع المنابر فارسي
متى عرف الأغر من الحجول
متى عرفت وأنت بها زعيم
أكفّ الفرس أعراف الخيول

وأخيراً لابد من الإشارة إلى تأثير الحكمة الفارسية على الدراسات الأخلاقية في الإسلام ولا شك أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للأخلاق الإسلامية ولكن الأدب الفارسي يتضمن كثيراً من الحكم التي تسربت من خلال الأدباء إلى اللغة العربية.. كما نشأ الخط الفارسي في كتابة العربية وهو أمر أضفى كثيراً من الجمال على فن الخط العربي وقد كان عبدالملك بن مروان يمدح وزيره روح بن زنباع الجذامي بأنه شامي الطاعة فارسي الخط، ولا يقل السجاد الفارسي (العجمي) شهرة وأصالة عن ذلك الخط.

كما تأثر الغناء العربي بالغناء والأنغام الفارسية وأضاف العرب إلى ذخيرتهم السمعية مدخرات جديدة إلى جانب الحداء والنشيد.

وفي العصر الحديث تتجدد الصلة بين الأدب العربي والأدب الفارسي وقد بدأت هذه النهضة الثقافية بمصر حيث قام محمد السباعي بشراء كتب فارسية لإتقان هذه اللغة وترجمة أشعارها إلى العربية وكانت العائلة التيمورية من المشتغلين بالأدب الفارسي ثم برز أكثر من أديب في هذا المجال كان على رأسهم الدكتور/ عبدالوهاب عزام الذي تقدم برسالة حول (الشاهنامة) للفردوسي ثم راح يدرس أوجه التشابه بين الشعر الصوفي عند العرب والفرس ويدفع طلابه للاهتمام بهذه الدراسات الأدبية فتقدم الدكتور/ محمد موسى الهنداوي برسالته للدكتوراه (سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية) وقدم له الدكتور / عزام وطبع الكتاب عام ١٩٥١م.

وتقدم الدكتور/ إبراهيم أمين الشواربي بأطروحته (أغاني شيراز وغزليات حافظ الشيرازي) وقدم له الدكتور طه حسين الذي أشاد بالبحث والباحث دراسة ودارسا وهذا النشاط العلمي كان نتيجة إحداث قسم الأدب الفارسي في

جامعة فؤاد الأول (القاهرة) عام ١٩٢٥م.

وكان لكل دارس ممن سبق ذكرهم اهتماماته الفردية حيث أصدر الدكتور الشواربي سلسلة المكتبة الفارسية وقواعد دراسة اللغة الفارسية وعلومها البلاغية كما نشر ما كتبه الجاحظ حول الفرس والمعرب من الفارسية وترجم لجماعة الصوليين في العصر العباسي.

ولا ننسى شعراء الغناء في مصر الذين ترجموا عدة مقاطع من أدب فارس كما فعل أحمد رامي في رباعيات الخيام واهتمام صالح جودت بالترجمة عن الفارسية.

ولم تكن مصر وحدها فهناك أدباء النجف قرأنا رباعيات الخيام للصافي النجفي (وخمائل من الأدب الفارسي) للشاعر جعفر الخليلي وفي لبنان كانت تصدر مجلة الدراسات الأدبية التي اهتمت بالدراسات المعنية بالأدب الفارسي.

وقد أنشأت جامعة دمشق قسماً للأدب الفارسي ما لبث أن ألغي لقلة الدارسين والمهتمين ولكن لابد من الإشارة إلى أنه منذ عام ١٩٥٩م استدعى الدكتور أمجد الطرابلسي وزير تعليم عصر الوحدة الشاعر محمد الفراتي ليترك مكتبته في دير الزور ويمنحه تفرغاً في مجمع اللغة العربية بدمشق ليترجم بعض ما يرتاح له من الأدب الفارسي.. والفراتي أحد اللغويين المتضلعين بالفارسية والعربية وهو دقيق في ترجمته كما شهد بذلك أدباء فارس أنفسهم وقد ترجم الفراتي لأهم شعراء التصوف الفارسي وهم:

- فريد الدين العطار ٥٣٧ - ٦٢٧ م
- جمال الدين الرومي ٦٠٤ - ٦٧٢هـ
- سعدي الشيرازي ٦٠٦ - ٦٩٤هـ
- حافظ الشيرازي -- - ٧٩١ هـ

□ في العصر الحاضر قامت دراسات موسعة للأدب الفارسي..

وترجم الفراتي لعدد آخر من شعراء فارس فقد أصدرت له وزارة الثقافة السورية (روائع من الشعر الفارسي) وفيه عدة قصائد للشيرازيين ولجلال الدين الرومي وقد أخبرني رحمه الله قبل وفاته أنه يحتفظ بمكتبته بترجمات تنتظر النشر وهي - بند عطار - أو نصائح فريد الدين العطار - بهارستان - (رياض الربيع) لعبدالرحمن جامي وأنجز أكثر من نصف ديوان حافظ الشيرازي ترجمة شعرية منظومة إلى جانب متفرقات من أشعار عمر الخيام والفردوسي، تلك بعض الأفكار العجلى في العلاقة الثقافية بين العرب وفارس في زمن تفتتح في جامعة دمشق - كلية جامعية لدراسة الأدب الفارسي ■

صراع اللغات

الاستغراب الفكري واللغوي في اللغة العربية الحديثة

□ الإنسان هو الإنسان منذ خلق الله الأرض ومهدها له، وجعل كل ما في الكون ملكاً له يتحرك باختياره وبمشيئة خالقه، ووهبه الأداة التي تواصله مع الآخر من بني جنسه وهي اللغة، وبناء على لغة الحوار أو الخطاب يصل فكر الإنسان إلى الآخرين ويظهر اندماجه. من يستولي على اللغة ينتصر. ومن يتمتع بامتلاك القاموس المتداول يكون مقبولاً وقادراً على مخاطبة الناس واستمالتهم ويحتكر بواسطته القدرة على الاتصال بالناس وقد توالدت اللغة والعلامات الجديدة بديناميكية خلاقة. واللغة هنا ليست ألفاظاً فقط، بل تشمل علامات كثيرة، وتدل على تراث سياسة الكنايات والمجازات والاستعارات.

والقول الغريب الذي يتبناه كل من يرى انحرافاً في اللغة وتأخذه الحمية ويظن بأن التعبير العربي قد كفر فيقول: تعاني اللغة العربية الحديثة حالة من الاستغراب والاستلاب في الأنماط اللغوية والفكرية. ولا نبالغ إذا قلنا إن بعض العرب المحدثين ينطقون لغة أجنبية بحروف وأصوات عربية، وهذا يزكي في النفس الخوف من سيطرة الروح الانهزامية والإحساس بالدونية فنظهر لمن هم حولنا أننا على دراية بلغة أجنبية، وكأن هذا من إمارات الرقي الاجتماعي ومظاهر التقدم الثقافي فنلجأ إلى تفسير ما ننطق به بالعربية بكلمات أجنبية وكأن اللغة العربية أضحت لغة الغموض والجمود، أما القول بأن اللغة العربية آخذة في الانحسار والتراجع في الوطن العربي. والتشدق بلغة أجنبية هو السبيل الوحيد إلى الرقي الاجتماعي والوصول إلى مراكز مرموقة في مجالات شتى. فتجدهم ينصرفون عن اللغة العربية ويرسلون أبناءهم إلى مدارس أجنبية ويتحدثون معهم بلغة أجنبية فذلك كله نتيجة لما تقدم. وقد يؤدي فيما بعد إلى التبعية اللغوية. وأوافق القول الذي يقول أن المترجمين العرب وما تحتضنهم من وسائل إعلام مرئية أو مسموعة أو مطبوعة وفضائيات تتعمق في التقليد والنقل الحرفي لمصادر الأخبار والأنباء حتى في ما يتعلق بالأخبار المحلية، التي تردهم من وكالات عالمية مثل رويترز والأسوشيتد برس، بل يقلدون في طريقة التلفظ وتشديد أواخر الكلمات بشكل متصنع متكلف على طريقة المذيعين والمذيعات الأميركيين.. والمترجمون لهم ضلع كبير في نشر وتكريس تعابير ومصطلحات تعوزها الصحة والدقة،

د. عاطف إسماعيل أحمد

جامعة عمر المختار - ليبيا

وأنماط فكرية غريبة عن الطبع العربي والفطرة والسليقة اللغوية للناطقين بالضاد. ومن يتتبع البرامج الوثائقية المترجمة التي تبثها تلك الوسائل يصاب بصداع وتشنج. وذلك بسبب حرفية النقل لا على مستوى الكلمة فحسب بل على مستوى الجملة والفقرة. فتجد المترجم لا يتجاوز شكل وقالب النص الأصلي فتأتي جمله مفككة مرصوفة جملة جملة تفتقر إلى الحبكة والترابط والاتساق. وبالتالي فلا عجب أن يصيب الخلل الإطار الفكري للأجيال القادمة. حقاً إن لغتنا انعكاس لأنفسنا.

إن للمؤسسات الإعلامية والتربوية دوراً كبيراً في تعزيز مكانة اللغة العربية في بيئتها الطبيعية، فما غزي قوم في عقر دارهم إلا وذلوا وما غزيت لغة في بيئتها إلا ذُلَّتْ وذل أهلها وتشتت أمرهم. فلن يكتب للحضارة، أو الثقافة كما يحلو لبعضهم أن يسميها، أن تستمر وترقى إن سُلخت عن وعائها ووسيلة التعبير عنها. ولن يكتب للغة أن تستمر وتبقى إن استُبعدت عن حضارتها. فقوانين التفكير واحدة لدى جميع البشر؛ ولكن اللغات مختلفة.(١) وصدق من قال: «من لم ينشأ على أن يُحب لغة قومه، استخف بتراث أمته واستهان بخصائص قوميته».(٢).

اللغة وحقائق الهوية

إن الحضارة الإنسانية لا يمكن فهمها بعيداً عن

المجتمع الإنساني» (٣) وعندما نبحث عن الهوية ومعيتها باللغة نجد أن اللغة أداة تعبير خارجي لا تدخل في بنية الهوية، لأن الهوية هي مجموعة مضامين دينية وتراثية، وتاريخية وثقافية من الممكن التعبير عنها بأي أداة تعبير، ولكن الوسيلة الكبرى للتعبير اللغة ومن ناحية أخرى فإن فرضية ربط اللغة بالهوية يؤدي إلى عدم مشروعية الترجمة من لغة إلى أخرى ولكن إذا اعتبرنا اللغة جزءاً من الهوية، فإننا نستطيع أن ننقل مضامين الهوية من لغة إلى أخرى.. ولكن هناك من يقول أن فرضية ارتباط اللغة بالهوية فرض غير مقبول. لا يعطى إلا معنى واحداً وهو عدم القدرة على الخروج من اللغة القومية، وعدم القدرة على ممارسة لغة أخرى قد يكون في ممارستها ثراء للغة القومية ذاتها.. إن ثورة الاتصال وسرعة انتقال المعلومات جعلت من العالم إقليما كبيراً، أو كما يقولون قرية كبيرة، فإن ثورة الاتصالات لم تلغ حقيقة كون العالم مؤلفا من أقاليم جغرافية مختلفة، على الرغم من الاختلافات البيولوجية والأنثروبولوجية بين أفراد الشعوب.. ويمكن القول أن هذه الشخصية الثقافية هي وليدة الأيديولوجيات أو عالم الأفكار على اختلافها؛

□ الاستعمار الفرنسي عمل على ترسيخ لغته وثقافته، وإبعاد العربية والإسلام..

ومن هنا نجد الفكرة التي تطرح نفسها باستمرار، وهي مشكلة الأنا والآخر، ذلك الآخر الذي شغلنا به حبا وكرها، قربا وبعدا، على مر السنين، وفي الحالتين يغيب عنا اكتشاف إمكاناتنا الذاتية التي في مقدورها أن تختار جيدا. فإن الآخر أو المختلف ليس كله شرا، وليس دائماً يكون شرا، حتى وإن بدا أمامنا غير مقبول في تصرفاته وسلوكياته، فمازال أمامنا المستقبل؛ بل نجبره على احترامنا، وعلى الإنصات لنا، لأننا قوة فاعلة ومغيرة على أرض الواقع الحضاري، لا مجرد لسان مفوه، مبين فحسب. وأعتقد أن الفكر العالمي الذي يكتب بأيدي أدبائنا ومفكرينا، هو الأفق العالمي الذي يشارك في تحديد القضايا والاهتمامات المشتركة التي تخلق الشخصية الثقافية، وهذه بدورها نقطة الانطلاق للانفلات من التعصب الديني والعرقي والإقليمي الذي يعاني منه عالم اليوم ويهدد بكارثة حضارية.

ومن أمثلة الاعتزاز باللغة القومية في العصر الحديث:

في قمة المجموعة الأوروبية الأخيرة وقف رجل الأعمال الفرنسي ايرنست انطوان سيلييه يلقي كلمة باسم رجال الأعمال الأوروبيين، وفوجئ الرئيس الفرنسي شيراك أن مواطنه إيرنست بدأ بإلقاء الكلمة باللغة الإنجليزية، لغة شكسبير، فقاطعه قائلاً: لماذا لا تلقي كلمتك بلغتك الأم؟ فرد إيرنست «سألقي الكلمة باللغة الإنجليزية، لأنها لغة البزنس»، وغضب شيراك وغادر القاعة مع وزير ماليته تيري بريتون ووزير خارجيته فيليب دوست بلازي. وعندما سأله

الصحافيون عن سبب الغضب والانسحاب قال: «لقد صدمت لرؤية فرنسي يعبر عن نفسه بغير اللغة الفرنسية، وقد انسحبت لكي لا أستمع إلى كلمة شخص لا يحترم لغته». ولم يغادر شيراك مقعده، ولم ينسحب من الجلسة عندما ألقى جين كلود تريشيه، حاكم البنك المركزي الأوروبي، كلمته، فقد كان يتحدث بالفرنسية، رغم أن الحوار في اجتماعات البنك يجري باللغة الإنجليزية. وشيراك درس في الولايات المتحدة، وهو يجيد اللغة الإنجليزية كأحد أبنائها، ولكنه توقف عن استخدام هذه اللغة منذ انتهاء دراسته وعودته إلى فرنسا، وعندما التقى الرئيس بوش في السنة الماضية أصر على التحدث بالفرنسية معه، وكان يرافق الزعيمين، حتى على مائدة العشاء، مترجمان، الأول أمريكي ينقل كلام بوش إلى الفرنسية، والثاني فرنسي ينقل كلام شيراك إلى الإنجليزية. وفي الأمم المتحدة حيث الحوار باللغة الإنجليزية، تظاهر شيراك بأنه لم يفهم بعض الأسئلة التي وجهت إليه باللغة الإنجليزية، فقام توني بلير الذي يجيد الفرنسية كأحد أبنائها بالترجمة له.

وفي ألمانيا: قد تجد في الشارع من يحدثك بلغة غير ألمانية، ويرشدك إلى عنوان تبحث عنه، أو إلى مطعم لتناول وجبة غذائية، ولكنه قطعا سائح مثلك، إذ إن الألمان يرفضون بإباء التحدث بلغة غير لغتهم. والتمسك باللغة الأم مظهر أساسي من مظاهر احترام القومية والمواطنية، والتخلي عنه تفريط في ذلك، والله - جلت قدرته - خلق الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا، ولو كان العالم بأسره قبيلة تتكلم لغة واحدة لكان مثيراً للضجر، واحترام اللغة الأم ليس شوفينية ولا غروراً قومياً، وإنما هو في مصلحة الثقافة العالمية والحوار بين الحضارات، إذ لا يمكن بناء العالم على لغة واحدة، وبالتالي على ثقافة واحدة والذين يرون أن التحدث بلغة أجنبية مظهر حضاري، ويتباهون عندما يحيونك بكلمة «هاي» ويعربون عن اتفاقهم معك في الرأي بكلمة «أوكي» نقول لهم: إن الدول لا تترسخ وترتقي إلا بارتقاء لغتها.

□ بعد فشله في إبعاد العربية جاء المستعمر الفرنسي ببدعة (الفرنكفونية)

اللغة العربية وثقافة التكامل

«تركز اهتمام العلماء على محاولة الربط بين المجموعات اللغوية في العالم واكتشاف الأسر اللغوية الكبيرة، فقسمت هذه اللغات إلى تسع عشرة أسرة لغوية، غير أن البحث المعاصر أماط اللثام عن أسر أخرى جديدة فارتفع عددها إلى حوالي الأربعين.(٤) وأن هناك أسبابا متعددة لوصول لغتنا إلى هذه الحالة يرجع البعض منها إلى النظر للغة العربية باعتبارها من ميراث الماضي والشعور بأنها هي نفس ما قرأناه في المعلقات السبع، بناء على سوء

□ إحياء اللهجات والقوميات في المجتمعات العربية محاولات جادة للتفتيت والتفرقة..

اختيار بعض النصوص من العصر الجاهلي في سني تعليمنا المبكرة إلى جانب أن العاميات العربية أكثر مساسا بمتطلبات التعبير عن المسائل الروحية والعاطفية والوجدانية. وأن سبب إعراض الناس عن الفصحي، ميولهم في لغتهم إلى لغة الصحافة والإعلام المعاصرين وأنه لا تستطيع هيئة علمية مثل مجمع اللغة العربية أو جمعية حماة العربية أو أي ندوات متخصصة أن تمنع شيوع هذه الألفاظ، لأن اللغة قوة لا يستطيع أحد منعها.

كان نزول القرآن الكريم توحيداً للهجات العربية في لغة واحدة تستوعبها جميعاً؛ ونهضة للغة الأجداد، وعودة بها إلى الحياة العامة في أنشط ما تكون. «لم يحدث حدث في تاريخ اللغة العربية أبعد أثراً في تقرير مصيرها من ظهور الإسلام».(٥) لغة قريش إذن هي اللغة العربية الفصحى فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف؛ إنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب، كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش»(٦) والتفكير باللغة ومحاولة معرفة قوانينها تفكير قديم.

وتؤدي العوامل السياسية والدينية أيضاً إلى ظهور خصائص لهجية معينة، فالقبائل العربية قبل الإسلام بمثابة العامل السياسي الذي تضافر مع العامل الجغرافي المتمثل في الصحراء، وأفرزت لهجات متعددة كلهجة بكر وتغلب وهذيل وغيرها، كلها في محيط اللغة الواحدة. التي أضحت فيما بعد تلك اللغة المشتركة التي استخدمت في الأدب والعلوم والفنون، تلك اللغة التي امتد استعمالها آلاف السنين والآن تستطيع أن تقاوم التغير اللغوي الذي يصيبها، «ويساعدها في ذلك ظرف السياسة وقوة المدرسة والإدارة؛ ولكن لعل الكتابة خير حارس لها» (٧) وأعلن دي سوسير أن «موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها»(٨).

اللغة الرسمية: لكل أمة من الأمم لغة رسمية تعلن عنها في دستورها رغم اختلاف توجهاتها وتقسيماتها الإدارية فكان الاتحاد السوفيتي السابق يضم عدداً كبيراً من الجمهوريات التي تملك عدداً من اللغات المتعددة كالأوكرانية والأزبكية والأستونية واللتوانية تلك اللغات المتعددة كانت منصهرة في لغة واحدة تضم هذه التوجهات والتقسيمات وهي الروسية.

اللغة الدولية: حاول علماء اللغة وضع لغة من صنعهم تصلح على المستوى العالمي كالاسبرانتو، والانترلينجوا؛ لكن هذه المحاولات لم تنجح لأنها

لغات اصطناعية تفتقد إلى عنصر القبول؛ بل كثرت التحفظات عليها؛ ولذا لجأ العالم لنظام الترجمة الفورية الإلكترونية خاصة في دهاليز الاجتماعات الدولية المهمة والمؤتمرات عالية المستوى لما للكلمة من معنى دقيق، ورغم هذه الجهود التي سجلتها الترجمة الآلية الفورية السريعة إلا أنها تظهر لنا كاللغة المتحجرة لأنها تراعي النص كمادة صماء تخلو من الروح والانفعال والعاطفة التي يمكن أن تقلب الأمور فهي تخلو من عناصر النبر والتنغيم.

اللغة والإنترنت: إن العالم الذي نعيش فيه الآن كالقرية الواحدة، وأصبح يبحث عن التجمع لا التفرق، ويصارع الزمن، ويقرب المسافات، وهذه السرعة التكنولوجية المخيفة لابد أن يتطور معها الإنسان في ملبسه ومشربه وجميع حركاته وسكناته، وأن يتطور فكره مبتعداً عن الجمود، مع محاولته الحفاظ على هويته وكيانه الثقافي؛ لأنه أصبح ينصهر مع الآخرين كل هذا التغيير المفاجيء والمباشر وغير المباشر يحتم علينا البحث عن وسيلة للتواصل أكثر وأكثر مع الآخرين، ويبحث عن لغة تخاطب الجميع. فلغة الكمبيوتر في أغلب الاستعمال لوحظ فيها انتشار ألفبائية جديدة يتداولها زوار المواقع الإلكترونية بديلة عن العربية، وهي تسعى لكتابة اللغة العربية بحروف أجنبية وذلك بخلق رموز رقمية للأصوات التي تخلو منها اللغة الإنجليزية كالأصوات الأسنانية (ث/ ظ/ذ) والحروف الحلقية (الحاء/ الخاء).

صراع اللغة والهوية في الجزائر

تؤكد المواثيق الرسمية للجزائر أن اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية وعلى كل المؤسسات ان تعمل على ترقيتها وحمايتها والسهر على سلامتها وحسن استعمالها. والملاحظ للواقع يجد أن الاهتمام باللغة العربية ما يزال متواضعاً في ظل الفرانكفونية على الإدارة الجزائرية، السياسة اللغوية في الجزائر يراها المختصون قد نجحت في جزء منها وفشلت نسبياً بسبب تداخل العراقيل والمطالب وتعددية الفضاءات اللغوية، وما تزال جهات تعرقل ترقية هذه اللغة وان كانت فترة الاستعمار التي عاشها الوطن العربي لها مبرراتها في الإبقاء على محاربة اللغة العربية.. موضوع السياسة اللغوية إشكالية تدخل في الصراع الثقافي واللغوي والحضاري المعقد والمخيف الموجود داخل الجزائر. وأن اللغة العربية المستعملة في كثير من القطاعات والأجهزة محتاجة اليوم إلى ترقية في التعبير، وإلى بذل جهد أكبر في مراعاة قواعدها النحوية. وعمدت إلى تجسيد سياسة لغوية طبقا لمواثيق أول تشرين الثاني (نوفمبر) المجيدة، ويتجسد ذلك في أول دستور للدولة، حيث نص على رسمية اللغة العربية، وجعلها من المقومات والثوابت الوطنية وتبلورت في

> ☐ من غرائب المفارقات أن بعض مثقفي العربية يلوكون بعض الكلمات الأجنبية بدافع (التحضر)..

□ ما غزيت لغة في دارها إلاّ ذلّت وذلّ أهلها..

رأيه السياسة اللغوية خصوصاً في عهد الرئيس الراحل هواري بومدين الذي جعلها من الانشغالات الكبرى، وبذلت الجزائر من الجهود حول هذه المسألة ما لا يمكن لأي مؤرخ ان ينكره، سواء أكان ذلك على مستوى التوجيه والتخطيط والتسييس، أم على مستوى الإنفاق. فقد يكتشف المحلل للسياسة اللغوية في الجزائر ان لا أحد ينكر ان قراء اللغة العربية أكثر نسبة من القراء باللغة الفرنسية..

ان السياسة اللغوية في الجزائر انطلقت فيها سياسة السلطة إلى خلق التوازن بين اللغة العربية واللغة الفرنسية من مبدأ الحقائق والواقع، لا من الخطاب حول التعريب، ويصر على إننا مغاربة ولدينا تاريخ وتقاليد وهوية ولغات وطنية نوعية. ودعاة اللغة البربرية قاموا بإضراب شامل عن الدراسة لمدة سنة كاملة، وموضوع السياسة اللغوية إشكالية تعتبرها تدخلاً في الصراع الثقافي واللغوي والحضاري المعقد والمخيف الموجود داخل الجزائر.

إن اللغة العربية المكتوبة التي تدعى أدبية أو فصحى أو كلاسيكية ليست لغة التخاطب الشائع. ذلك أن استعمالها يقتصر على المثقفين الذين لا يملكون أداة أخرى للتواصل فيما بينهم غير هذه اللغة. وبالمقابل فهي تظل لغة دولية بمعنى الكلمة لأن الكيفية التي تستخدم بها كافة الأقطار العربية في تحرير الصحف أو عرض البرامج الإذاعية والتلفزة تبقى واحدة. لقد دخلت اللغة الفرنسية إلى المغرب العربي مع الاستعمار، لقد استهدفت السياسة الاستعمارية بوضوح استئصال اللغة والثقافة العربيتين في سبيل عملية مزدوجة تتمثل في إقصائهما بيداغوجيا والحط من شأنهما ثقافيا. وقد كانت تلك النتيجة تبدو محققة غداة الاستقلال. ورغم أن بلدان المغرب العربي الثلاثة قد فشلت في الجهود التي بذلتها منذ ذلك الوقت لإحلال اللغة العربية محل اللغة الفرنسية في جميع استعمالاتها، فإنها قد أفلحت مع ذلك في جعل العربية تستعيد مكانتها الواقعية.

والآن تشهد الساحة الجزائرية حاليا جدلا واسعا ونقاشا مستعرا بين الداعين إلى ضرورة اعطاء الأولوية للغة الفرنسية في شتى مجالات المعرفة داخل الجزائر وهم الذين يطلق عليهم أنصار (وى) وبين المتمسكين باللغة العربية وضرورة المحافظة عليها وعلى سيادتها باعتبارها اللغة الأصلية للجزائر وفقا لنص الدستور وباعتبار الجزائر بلداً عربياً مسلما، ويدلل أنصار اللغة العربية على ذلك بأن دولا في جنوب شرق آسيا حققت تقدما هائلاً في المجالات العلمية والتكنولوجية معتمدة في المقام الأول على لغتها الوطنية وليس لغات أخرى. إذن ،من الضروري أن تظل اللغة العربية هي اللغة الأولى للجزائر وأن تظل لها السيادة أيضاً على ما دونها من لغات ولكن في

الوقت نفسه لابد أن نضيف إليها ما تحتاجه من مصطلحات وتعبيرات من لغات أجنبية أخرى ليست لها مقابل في اللغة العربية حتى لا نتخلف عن اللحاق بركب الحداثة والتطوير. يركز دارسو القومية ممن يتبنون أهمية اللغة على أنها أهم أدوات العملية الاجتماعية وأدوات صناعة الإنسان.

وقد ظهر هذا الجدل في الجزائر عندما نادت القيادة الجزائرية بضرورة إصلاح وتحديث هياكل الدولة بأسرها من تعليم وقضاء وإدارة واقتصاد حتى تكون الجزائر مؤهلة للدخول في عصر العولمة والاقتصاد الحر والتقدم نحو تحقيق المزيد من الانفتاح على العالم الخارجي.

موريتانيا والاستعمار والفرانكفونية:

لأن موريتانيا تحتل موقعاً استراتيجياً فقد تحولت إلى محل أطماع الغربيين وتحديداً دول جنوب حوض المتوسط وكبقية الأقطار المغاربية فقد تعرضت موريتانيا للاحتلال والغزو الفينيقي والروماني، وقد أقام الفينيقيون على سواحل موريتانيا مراكز تجارية متعددة، وبدأ اهتمام البرتغاليين بموريتانيا منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر. على المستوى اللغوي نجد الفرنسيين ينتهجون منهجاً ذكيا في استقطاب النخبة من أبناء الموريتانيين وتعليمهم اللغة الفرنسية وتأسيسهم على ما يريدون كي يكونوا أيديهم وعيونهم وعقولهم ولسانهم فتكلموا الفرنسية وتمكنت من إيصال هذه النخبة الفرانكفونية إلى دوائر القرار وهؤلاء هم الذين جعلوا اللغة الفرنسية لغة رسمية في موريتانيا شأنها شأن اللغة العربية. «وأن اللغة قد تتدخل في تحديد وتركيب أنماط الفكر في المجتمع» (٩)، وظلت موريتانيا تتعرض للمد والجزر بين أنصار اللغة العربية وأنصار اللغة الفرنسية، وكان الاستعمار الفرنسي قد استثمر تعدد اللهجات في شمال إفريقيا وإفريقيا عموماً لصالحه، إلى أن أصبحت اللغة الفرنسية أو الإنجليزية لغات رسمية في العديد من الدول الإفريقية. وقد وقعت أول أزمة في هذا المجال سنة ١٩٦٦ بسبب تنامي الأقليات التي تتكلم اللهجات الإفريقية المختلفة والتي رأت في اللغة الفرنسية أداة لتأكيد ذاتها بتشجيع من بعض الحكام الأفارقة المتفرنسين ومن الدوائر الفرنسية نفسها. وقد شهدت المدارس الموريتانية اضطرابات وصدامات بين كل من أنصار اللغة العربية والفرنسية، وتعقدت الأزمة أكثر عام ١٩٦٨ عندما أصدرت الحكومة الموريتانية قراراً يجعل اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللغة الفرنسية، وأعلنت الحكومة عزمها على احترام اللغات المحلية المختلفة، وخصصت وقتا في الإذاعة المسموعة لتلك اللغات. وأخذت اللغة العربية تواجه صعوبات جمة في موريتانيا، وصعب عليها أن تقف في وجه فرنسة الإدارة والتعليم، وقد بذلت فرنسا كل الجهود لتشويه الأصالة الموريتانية حتى لا تنتشر اللغة العربية والإسلام في إفريقيا. لأن موريتانيا كانت على الدوام جسرا بين إفريقيا والحضارة العربية والإسلامية، ولم تتمكن هذه النخبة الفرانكفونية من فرض الثقافة الاستعمارية بالقوة، إذ أن الشعب الموريتاني الذي لعب أجداده دوراً كبيرا في إيصال الإسلام واللغة العربية إلى أفريقيا، ظل محافظاً على أصالته. ولأجل الدفاع عن الهوية المسلوبة تأسست العديد من الأحزاب والتيارات التي كانت تهدف إلى استرجاع الهوية المسلوبة، وقد قرعت الأحزاب الوطنية

والإسلامية جرس الإنذار باكرا وبدأت تدفع الشعب الموريتاني باتجاه العودة إلى أصالته، وهذا ما يجعل العسكر يصعدون حملاتهم ضد هذه التيارات التي كانت تحمل مشروعاً مغايراً لمشروع السلطات المتعاقبة على موريتانيا وأكد الدستور الجديد على أن الإسلام هو دين الدولة، وأنه المصدر الوحيد للقانون وأكد هذا الدستور على أن الشعب الموريتاني شعب مسلم عربي وإفريقي مصمم على السعي من أجل تحقيق وحدة المغرب العربي والأمة العربية وإفريقيا. وأقر الدستور الجديد على أن اللغة العربية هي لغة رسمية من دون شريك في رسميتها ومن دون ازدواجية في سيادتها، وبهذا الشكل أرضى الدستور القوميين الموريتانيين الذين يؤمنون بعروبة موريتانيا، وأكد الدستور على أن اللهجات الإفريقية السائدة في موريتانيا وهي: البولارية والولفية والونيكية هي لغات وطنية في موريتانيا، ونص الدستور أيضا على المساواة بين جميع المواطنين من دون تمييز في الأصل والجنس والعرق والمكانة الاجتماعية، «كما تشكو العربية من ازدواجية الفصحى والعامية، تشكو بعض البلدان العربية من ثنائية لغوية حيث تنافس العربية لغة أجنبية دخيلة خلقها الاستعمار الإنجليزي أو الفرنسي، وإن كانت الازدواجية اللغوية قد فرضت علينا محلياً فالثنائية اللغوية قد فرضت علينا عالمياً» (١٠).

الأمازيغية

ليس من السهولة تقديم توصيف دقيق، أو تعريف جامع مانع للتيار الأمازيغي في المغرب، فهو تيار معقد ومتشابك؛ لما داخله من ملابسات وتوجهات مختلفة: ثقافية، وإيديولوجية، وقومية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية... وهو ملف معقد؛ فهو يرجع إلى مجموعة من الجمعيات الثقافية والأحزاب السياسية المختلفة التوجهات والأغراض، وإشكالاته مركبة من قضايا شتى: فهو أولا من الناحية اللسانية متعدد ومختلف، وهو من الناحية التصورية متضارب إلى درجة التناقض أحياناً، وهم مجموعة متعددة، ومختلفة ولكنها غير متناقضة من المكونات العرقية، والثقافية، واللغوية، جمع شملها الدين الإسلامي الذي برهن تاريخياً -ولا يزال- في العديد من بقاع العالم المتعدد الأعراق واللغات على شموليته الاحتضانية، وقدرته الاستيعابية لكل اللغات والأعراق والثقافات. وهل بمقدور الأمازيغية من حيث هي جنس بشري، وبما هي (لغة طبيعية)- كما يقول علماء اللسانيات - أن تتحمل كل ذلك؟ فتسعف كل هذه التيارات، وكل هذه الأجنحة والتوجهات للوصول إلى مقاصدها الإيديولوجية والسياسية؟ أم لا؟ هل يتضمن معجم اللغة الأمازيغية مفاهيم إسلامية، أم أنه خال منها تماماً؟ باعتبار أن اللغة الأمازيغية ما كانت حاجزاً بين الناس والدين الإسلامي، لأن اللغة الأمازيغية لغة مرنة تقترض المفردات الأجنبية عنها بدلالاتها عند الاحتياج، وتضفي عليها من بنيتها التنظيمية ما يجعلها طيعة للسان الناطق بها. فبعض الكلمات تنطق دون تغيير يذكر، أو مع تغيير طفيف يتلاءم مع اللسان الأصلي نحو: (الله) جل جلاله هو (الله) بلا تغيير، و(جهنم) هي (جهنم)، والرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، لكن «الجنة تنطق» «أَدْجَنْثْ» أو «الجَنْثْ» حسب اختلاف اللهجات، و«الآخرة» هي «لُخْرى»،

والنبي (صلى الله عليه وسلم) هو «نبي» بسكون النون..

وهكذا. مع تغلغل المفاهيم الإسلامية في عمق الفكر الأمازيغي عبر القرون الطويلة التي مرت على الفتح الإسلامي للمغرب الأمازيغي فمازال الناس يتمسكون بأناشيدهم وأهازيجهم في كثير من نواحي الحياة. فلم تكن هذه اللغة حاجزاً بين الأمازيغ والإسلام لأن هذه اللغة قابلة بطبيعتها الصرفية والاشتقاقية لحمل المضامين الإسلامية، بل هي تحملها فعلاً، كما يظهر واضحاً في تراثها الأدبي الذي يزخر بقصائد شعرية رائعة في الإرشاد بتعاليم الإسلام والدعوة إلى التمسك بها، والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وما إلى ذلك من أغراض دينية. ومنذ دخل الإسلام المغرب اهتم به الأمازيغ وأولوه كامل عنايتهم، فاجتهدوا في حفظ القرآن والحديث وتعلم الفقه، ووُجد منهم علماء أعلام أتقنوا العربية وألّفوا بها، ونقلوا منها إلى لغتهم الأمازيغية ما شاء الله نقله من المضامين الإسلامية. ولتيسير الفهم والاستيعاب كانوا يدرسون ويعظون باللسانين العربي والأمازيغي. ولم تكن الأمازيغية أبداً حائلاً بينهم وبين معرفة أحكام دينهم، وما حالهم في ذلك إلا كحال الترك وغيرهم من الشعوب التي دخلت في الإسلام وأبلت فيه البلاء الحسن: بنصر دعوته ونشر تعاليمه باللغة العربية وبلغاتها الأصلية. والجانب الثقافي غني غنى حياة الإنسان الأمازيغي الذي تلاحقت ثقافته بثقافة الأجناس البشرية التي تعاقبت على أرض المغرب، وعلى الرغم من كون هذه الثقافة غير مدونة؛ فإن ثمة بقية بصمات منها على أرض المغرب لغوياً وجغرافياً وسلوكياً. فمن الناحية اللغوية نرى أن الدراسة العلمية النزيهة السليمة يمكن أن تكشف عن قواسم مشتركة في جوانب متعددة بين اللغة العربية والأمازيغية، وقد يكون ذلك ناتجاً عن تأثر الأمازيغية بالحضارة الإسلامية العربية. (١١)

> □ احترام اللغة الأم احترام للذات، وحرص على الهوية.

الهوية السواحلية

ما هو كنه الهوية السواحلية؟، وما هي المميزات التي تفرقها عن غيرها؟ وإذا أردنا الخوض في هذه النقطة سوف نجد أنفسنا أمام ثلاثة مفاهيم للهوية السواحلية، وهي:

المفهوم الإفريقي: الذي يربط الأصل الإفريقي بالمحددات الثقافية والاجتماعية للهوية.

والمفهوم العربي: الذي يقوم أساسا على اللغة العربية التي يصبح من اعتبرها لغته الأم عربياً دونما نظر إلى أصله العرقي أو لونه.

والمفهوم الأوروبي: الذي يربط الهوية باللون الأبيض الذي يعتبر حسب هذا المفهوم العلامة الفارقة التي تميز الأوروبي من غير الأوروبي. حيث ربط المستعمرون الأوروبيون الذين نظروا بدونية إلى

شعب المنطقة بين اللون الأسود للسكان وبين التخلف الحضاري. ورأى هؤلاء الأوروبيون أن لا أصالة للغة السواحلية، مدعين أنها الابنة غير الشرعية لعلاقة تمت بين العربية واللغات الإفريقية، غير أن الإفريقيين يقولون: إن السواحلية لغة إفريقية يمتد نسلها إلى لغة البانتو، وان تأثرها بالعربية ليس إلا في مجال المفردات، ولا يمتد إلى القواعد النحوية التي تظهر الأصل الإفريقي للغة السواحلية بجلاء لا يخفى على الأعين. تتبع تاريخ تطور السواحلية كلغة بدأت كلغة تفاهم بسيطة بين السكان الأفارقة والتجار العرب، ثم تطورت تدريجياً إلى أن أصبحت لغة مستقلة بذاتها، امتدت وانتشرت لتشمل كل ساحل إفريقيا الشرقي. وتطورت أيضاً من ناحية الوظيفة، فبعد أن كانت وظيفتها دينية اجتماعية أصبحت لها وظيفة ثقافية تنويرية إبداعية. (١٢)

□ الرئيس الفرنسي انسحب من اجتماع دولي عندما تكلم أحد الفرنسيين بالإنجليزية..

الفرانكفونية وسياسة التعريب

ما من متأمل في السياسات اللغوية الحديثة في المغرب العربي إلا ويجد نفسه حالاً أمام بَدَاهة التناقض المركزي لهذه السياسة بين مصطلحي التعريب والفرانكفونية اللذين يحيلان إلى التوتر القائم بين العربية والفرنسية.

فاللغة الفرنسية في المغرب العربي ترد إلى الاستعمار، تتأصل فيه وتتذكر بأثره ما لم تجدده، أما اللغة العربية فترجع إلى أصل سابق، إلى ثقافة الإسلام وإلى نبالة الأصل. ففي حين حمل كل بلد من بلدان المغرب العربي (تونس، والجزائر، والمغرب) لواء التعريب، يبقى الواقع العملي هو واقع ازدواجية لغوية (عربية– فرنسية)، وهذا في الوقت الذي يقال: إن التعريب هو الواجهة الثقافية للاستقلال، والحقيقة أن الفرانكفونية هي بمثابة محاولة مقنعة لغزو ثقافي جديد. فقد لعبت اللغة الفرنسية دوراً حاسما في التطور الثقافي بالمغرب العربي، إذ لم تتصل مجتمعات هذه المنطقة بما يصطلح على تسميته بالحداثة إلا عبر اللغة الفرنسية. تجريد كيفية استعمال اللغة الفرنسية في المغرب العربي من كل خصوصية، ونفي إدماجها في سياق ثقافي مغاير. ويمكن ملاحظة ذلك بصفة خاصة في مجال آخر، هو حقل الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية. يقول جاك بيرك: «إن اللغة العربية هي أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب، بل هي اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا. إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً في بقاء الشعوب العربية» (١٣). فقد نبه العديد من الأدباء والنقاد إلى ازدواجية تعامل النقد الفرنسي مع الأدب المغاربي إما بسجنه في علاقة ثنائية مع فرنسا أو محاولة إلحاقه بالأدب الفرنسي وبمحو معالمه الثقافية، وفي

كلتا الحالتين أدى (ذلك النقد) إلى رفض حقيقي لهذا الأدب المغاربي لأنه أبدى تجاهلا تجاه الجذور الثقافية الخاصة التي يعبر عنها هذا الأدب باللغة الفرنسية وبذلك يظل الواقع اللغوي في المغرب العربي اليوم بالتأكيد واقع عمل مشترك عميق يتم بين اللغات.

فاللغة الفرنسية تشتغل داخل اللغة العربية العصرية وداخل اللغات الأم، عربية كانت أم بربرية. وهذه الأخيرة تشتغل داخل اللغة الفرنسية المتكلمة في المغرب العربي. وبعيداً عن أسطورة اللغات المفصولة، يبقى الوضع اللغوي بالمغرب العربي وضع استحضار وتفاعل بين مختلف اللغات المتواجدة. يرى في الازدواجية اللغوية أمراً أساسياً لإعلاء اللغة العربية إلى مرتبة لغة عصرية: «علينا أن ننتقل من ازدواجية لغوية مفروضة إلى ازدواجية لغوية مقبولة ومثقفة، أظهرت دراسات عديدة التحولات التي أصابتها نتيجة تأثرها بعلاقة الجوار التي ربطتها باللغة الفرنسية باعتبارها لغة مكتوبة وشفهية، وهي تحولات تطال الصوت والصرف والتركيب والدلالة، درس ظاهرة الـ «سنن المختلط (code-mixing)» الذي يقود المتكلم المغربي إلى إدخال كلمات أو تعابير فرنسية في لهجته العربية. وواضح أن السبب في هذا الاستعمال يرجع إلى كون اللغة الأم لا تمنح للفرد في هذا السياق التعبير الملائم عن الفكرة المذكورة داخل لغته. فاللغة الفرنسية في المغرب العربي لغة متكلمين تختلف لغتهم الأم تماما عن الفرنسية وهذه اللغة الأم هي التي تمد فرنسية أولئك المتكلمين بحقل التصورات والاستعارات. تريد الأنظمة السياسية أن تنسى كون الاستعمار قد حصل، تريد محو آثاره لكي لا يبقى هناك سوى علامة قانونها الخاص. ذلك هو المعنى العميق لسياسة التعريب، ولكن تحقيقها لا يمكن أن يتم إلا داخل الاستحضار غير المعترف به للغة الفرنسية المستبدلة باللغة العربية (١٤).

الأمازيغية والفرانكفونية

قد نشأ الأمازيغي وترعرع في ظل الدعم الفرنكوفوني وخاصة أن الأهداف المعلنة للفرنكوفونية إنما هي دعم اللغة الفرنسية وثقافتها في مستعمراتها السابقة؟

والحقيقة أن المسألة تتجاوز دعم اللغة الفرنسية وثقافتها؛ إلى المحافظة ما أمكن على المكاسب التوسعية للاستعمار الاقتصادي والفكري في المنطقة، والتي تعد بوابة استراتيجية لإفريقيا، تلك المكاسب التي حاول المستعمر ترسيخها في المنطقة بعد كل ما بذله من جهود متواصلة خلال فترة قد لا تقل عن قرنين من الزمن، حينما أخفقت فرنسا في زرع التفرقة بين المغاربة حيث كان غرضها من ذلك تكوين مناطق متفرنسة مفصولة عن الإسلام ولغته العربية، وبالتالي تكون سندها في الاستعمار، ووسيلتها في السيطرة على البلاد، وتسخرها لأغراضها الاستعمارية؛ فلما لم تنجح في ذلك عمدت إلى الفرنكوفونية التي ظاهرها نشر اللغة الفرنسية ودعمها في مستعمراتها السابقة، وباطنها «الغزو الفكري» والتمكين للثقافة الفرنسية، والتصورات الفرنسية، ونمط الحياة الفرنسية الذي هو جزء من

□ اللغة العربية، حاملة الإسلام، وإضعافها هو إضعاف للدين الذي تحمله..

الحضارة الغربية المبنية على أسس مناقضة للإسلام، وتدفع بها في اتجاه يخدم أطماعها الاستعمارية، وتحقق لها ما أخفقت فيه من تفرقة وسيطرة. ولا مفارقة في دعم الفرنكوفونية للتيار الأمازيغي (الإيديولوجي)؛ فهما رضيعان من لبن واحد، وهي الحركة الاستشراقية ذات الأهداف العدوانية على الإسلام والمسلمين. والحركة التي تدعو إلى إحياء الأمازيغية هي ردة فعل طبيعية لحركة القومية العربية الحديثة: على غرار ما وقع في البلاد العربية الأخرى، من فرعونية وقبطية وفينيقية وبابلية...إلخ. وقد ساهم الاستعمار الأوروبي الغربي في تغذية هذا الشعور وتحميسه؛ لزيادة الفرقة بين أبناء العالم الإسلامي. وترمي إلى التفرقة العرقية، ومحاربة اللغة العربية، وفصل الأمازيغ عن الإسلام.

ويبقى سؤال مهم، وهو: هل نعد ما تطالب به الحركة الأمازيغية اليوم من تعليم اللغة الأمازيغية بالمدارس الحكومية والمعاهد الرسمية- والتي يبدو أن شيئاً من ذلك بدأ بالتحقق بالفعل على أرض الواقع مع الإصرار على المطالبة بالكتابة بالحرف الأمازيغي القديم دون الحرف العربي: هل نعد هذا ظاهرة سلبية أم إيجابية؟ والمدقق في الأمر يجد الظاهرة سيفاً ذا حدين: فهي ستؤدي إلى تقويض اللغة العربية في أذهان الأمازيغ، هذا التفسير السلبي لها، وهي من جهة أخرى قد تكون وسيلة ناجحة لتعميق الإسلام والهوية الإسلامية. لأن الإسلام رسالة، واللغة أداة تبليغ. اللغة هي الواسطة التي تجعل من الأمة «مجتمعاً متخيلاً»، وتربط الفرد في وقت وجيز برباط اجتماعي معين مع أبناء أمته ممن لم يرهم أو يقابلهم.

إن التعريب هو الواجهة الثقافية للاستقلال وإن الفرانكفونية هي بمثابة محاولة مقنعة لغزو ثقافي جديد. إن التعارض الوجداني تجاه اللغة الفرنسية إنما هو تعبير عن تعارض وجداني أكثر جذرية يهم التوجهات العميقة للثقافة المغربية. فلا يوجد من ينكر الدور الحاسم الذي لعبته اللغة الفرنسية في التطور الثقافي بالمغرب العربي، إذ لم يتصل المغرب العربي بالحداثة إلا عبر اللغة الفرنسية. لم تأت تلك الحداثة بمحض الاختيار وإنما فرضت في إطار الاستعمار وإذا كانت اللغة العربية تحظى بالتقدير لأنها ترد إلى أصل إسلامي، أما اللغة الفرنسية فلا تعتبر عنصراً من الأصل يمكن قبوله لغرض ما، ومما سبق يمكن الإيمان بأنه يظل الواقع اللغوي في المغرب العربي اليوم بالتأكيد واقع عمل مشترك عميق يتم بين اللغات. فاللغة الفرنسية تشتغل داخل اللغة العربية العصرية وداخل اللغات الأم، عربية كانت أم بربرية. في عملية التعريب كثيراً ما تضطر اللغة العربية العصرية إلى ترجمة اللغة الفرنسية بدلاً من الحلول محلها. وبوصفها لغة حداثة، فهي غالباً ما تضطر الاقتداء بالفرنسية ولو مجرد اتباع وظيفتها واستعمالاتها لا يمكن اعتبار اللغة الفرنسية

المستعملة في المغرب العربي مجرد امتداد أو اتساع اللغة المستعملة في فرنسا؛ فهي تتسم بخصوصيات صوتية وتركيبية. ويعتبر الغزو اللغوي بالنسبة للفرد مكان الفقدان التدريجي للجسد الأمومي.. ونظام اللغات في المغرب العربي جعله يعيش ازدواجية اللغة الكلاسيكية واللغة -الأم. غالباً ما تُدعى هذه الأخيرة التي تكون إما بربرية أو عربية لغة دارجة. فقد كانت اللهجة تختلف باختلاف الجهات أو المناطق، وأحياناً باختلاف القرى مما يبين أن اللغة الأم كانت تطابق تنوع الجماعات ومع تطور وسائل التواصل في العصر الحديث تحقق نوع من التوحيد داخل هذه اللهجات. وهو يتواصل الآن على الصعيد الوطني. لقد احتفظت اللغة الفرنسية التي كانت تعتبر لغة رسمية طيلة فترة الاحتلال بمكانة هامة في المغرب العربي بعد الاستقلال، وذلك بإرادة من دول المنطقة. وعن طريق انتشار المدارس وتأثير وسائل الإعلام أصبحت هذه اللغة معروفة لدى الجمهور بشكل أوسع مما كان عليه الأمر إبان المرحلة الاستعمارية. والخاصية الأساسية لهذه اللغة الأم هي إحالتها على القيم التقليدية. أن اللغة البربرية هي أساس الثقافة المغربية القديمة وتعتبر اللغة القرآنية في المغرب العربي أيضاً الرمز الأكثر ترسخاً للهوية الإسلامية. تأثير اللغة القرآنية إنما يعمل في ذات اتجاه اللغة الأم والدفاع عنها لقد جسدت بحضورها في المغرب العربي قانون المستعمر وهذا السبب أيضاً هو الذي يجعل التعبير باللغة العربية العصرية يبدو في أغلب الأحيان موسوما بامتثالية تولد الإحساس بالملل كما يحصل لدى تقديم النشرات الإخبارية المتلفزة. يحاول بعض كتاب اللغة العربية رفع هذا الثقل بتحرير اللغة من الداخل. غير أن ذلك لا يتم إلا بصعوبة في المغرب العربي لأن المؤلفين القادرين على تحقيقه يفضلون غالبا اللجوء إلى اللغة الفرنسية حيث يتطلعون إلى العثور على حرية أكثر في التعبير، علماً بأن هذه الحرية تتوفر في اللغة العربية على خلفية ثقافية متينة ضمن أدب ليس كله ورعاً ونسكا ■

الهوامش:

(١) فقه اللغة وتاريخ الكتابة، عماد حاتم ١٣.

(٢) السابق.

(٣) اللغة والحياة والطبيعة البشرية، داوود حلمي ١٧٩.

(٤) نظرات في اللغة، محمد مصطفى رضوان، ٩٦. تونس، دار التركي، ١٩٨٨.

(٥) العربية يوهان فك ١٣.

(٦) في الأدب الجاهلي، طه حسين ١٣٦.

(٧) اللغة، فندريس ٣٣٩.

(٨) De Saucier, Course In General Linguistics, 232.

(٩) اللغة الإعلامية، د/ عبدالعزيز شرف، ص١٣.

(١٠) الفجوة الرقمية ص٣٧٠.

(١١) انظر: اللغة العربية والهوية القومية، جلبير غرانغيوم، ترجمة: محمد سليم، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع. ٨٦-٨٧، مارس-أبريل ١٩٩١م.

(١٢) انظر: السواحلية «لسان شعب إفريقي وهويته»، المؤلفان: الأمين المزروعي، إبراهيم نور شريف مطبعة إفريقيا العالية، نيوجرسي- أمريكا سنة ١٩٩٤م.

(١٣) معلمة الإسلام، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١/٥٩٠، بيروت، ١٩٨٠م.

(١٤) Ennaji, Moha, 1988, "Language Planning in Morocco and Changes in Arabic", in International Journal of the Sociology Language 74, pp. 9-39.





الفرق بين الشكر والمكافأة

□ الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد ومن ولاه، ومن أراد لهذه الأمة التيقظ والانتباه، وبعد:
فالشكر هو المكافأة على النعمة، والمكافأة مقابلة النعمة بالنعمة، ومقابلة الشر بالشر، لكن مع هذا الاستعمال الشائع، فهناك فرق بين كلمتي الشكر والمكافأة، ذلك أن الشكر يكون على النعمة، وإن لم يكن يوازيها، كشكر العبد لنعم الله تعالى عليه، فنعم الله تعالى كثيرة، قال تعالى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (١)



أ.د. ياسين بن ناصر الخطيب
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

وقال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله} (٢).

فنحن نشكر الله تعالى على نعمه، وعملنا لا شيء بالنسبة لما اعطانا الله تعالى، وانظر إلى هذا الحديث الصحيح يبين لك قيمة عملك مع نعم الله تعالى عليك:

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «خرج من عندي خليلي جبريل آنفاً» فقال: يا محمد، والذي بعثك بالحق إن لله عبداً من عبيده، عبدالله تعالى خمس مائة سنة على رأس جبل في البحر، عرضه وطوله ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله تعالى له عيناً عذبة بعرض الإصبع، تنبض بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج له كل ليلة رمانة، فتغذيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته، فسأل ربه - عز وجل - فتمنى ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً، وأن لا يجعل للأرض، ولا لشيء يفسده عليه سبيلا حتى بعثه وهو ساجد، قال ففعل فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجد له في العلم أنه يبعث يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيقول له الرب:أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول رب بل بعملي، فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: يارب بل بعملي، فيقول الرب: أدخلو عبدي الجنة برحمتي، فيقول: رب بل بعملي، فيقول الله عز وجل للملائكة: قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فتوجد نعمة البصر قد احاطت بعبادة خمس مائة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه، فيقول: أدخلوا عبدي النار، قال: فيجر إلى النار، فينادي رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه، فيقول: ياعبدي من خلقك ولم تك شيئا؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: كان ذلك من قِبلك أو برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك؟ فيقول: من قوّاك

لعبادة خمس مائة عام؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول من أنزلك في جبل وسط اللجة، وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح، وأخرج لك كل ليلة رمانة، وإنما تخرج مرة في السنة؟ وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلت ذلك بك، فيقول: أنت يارب، فقال الله عز وجل - فذلك برحمتي وبرحمتي أدخلك الجنة، أدخلوا عبدي الجنة فنعم العبد كنت يا عبدي، فيدخله الله الجنة، قال جبريل - عليه السلام - إنما الأشياء برحمة الله تعالى يا محمد «قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين. (٣)

وإذا فالشكر قد يكون مثل النعمة، وقد يكون أقل من النعمة فلا يوازيها، ومثل قول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها

والشر بالشر عند الله مثلان (٤)

ولا تكون المكافأة على الشيء مكافأة به حتى تكون بمثله.

وأصل الكلمة ينبئ عن ذلك، وهو الكفء، يقال: هذا كفء هذا إذا كان مثله.

ولذلك لا يمكن أن يكون لله كفء، وانظر ما قاله عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى {الله الصمد} ففي تفسير ابن كثير، عن ابن عباس رضي الله عنه: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، وهذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء سبحانه الواحد القهار. (٥)

(قلت) ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم} (٦)

ولما كانت غزوة بدر، وخرج المشركون للمبارزة، وخرج إليهم من المهاجرين حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث، فقال: عتبة تكلموا نعرفكم -

وكان عليهم البيض – (٧) فقال حمزة: أنا حمزة بن عبدالمطلب، أسد الله وأسد رسوله، فقال عتبة: كفء كريم، وأنا أسد الحلفاء، من هذان معك؟ قال: علي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث قال: كفآن كريمان (٨)

وقول الشاعر:

فطلقها فلست لها بكفء

وإلاَّ يَعْلُ مفرقك الحسام (٩)

ذلك لأن العرب لا يزوجون بناتهم إلا من الأكفاء.

وهناك فرق آخر: فالشكر يكون على مقابلة النفع، أو ما يؤدي إلى النفع، ولا يكون بغير ذلك، فأنت تشكر الله تعالى على نعمه، وتشكر زيداً من الناس على إحسانه، ولا يكون الشكر على الضرر والإساءة والشر.

والمكافأة تكون على النفع وعلى الضر، لأنك تقابل عمله بمثله، فهو كالجزاء يقول الله تعالى {وجزاء سيئة سيئة مثلها} (١٠)

والشكر يكون بالقول فقط، والمكافأة تكون باللسان والفعل وما يجري مجرى ذلك (١١)

(قلت) نعم من لوازم الشكر أن يكون بالقلب واللسان والجوارح، كقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة

يدي ولساني والضمير المحجبا (١٢)

وهكذا تبين الفرق بين كلمتي الشكر والمكافأة والله أعلم ■

الهوامش:

(١) إبراهيم/ ٣٤ .
(٢) النحل/ ٥٣ .
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤ / ٢٧٨ . شعب الإيمان ٤ / ١٥٠ فيض القدير ٤ / ١٠٤ .
(٤) الخصائص لابن جني ٢ / ٢٨١ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٧١ .
(٦) المحلى لابن حزم ١٠ / ٣٥٤ : وتمامه: لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده.
(٧) ما يوضع على الرأس من الحديد أثناء الحرب.
(٨) الطبقات الكبرى ٢ / ١٧ .
(٩) شرح شذور الذهب ج: ١ص: ٤٤٥ وفي مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١ / ١٤١ : والثامن: المقابلة وهي الداخلة على الأعواض نحو: اشتريته بألف وكافأت إحسانه بضعف وقولهم هذا بذاك ومنه ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون.
(١٠) الشورى/ ٤٠ .
(١١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٣٦ – ٣٧ .
(١٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٣: والشكر لا يكون إلا على النعم المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كقول الشاعر: السابق ذكره.

شــعــر

يا صابراً عقدين إلا بضعة

"بعد نحو عقدين من السنين العجاف غربة وتشرداً، يطل على أمه وبقايا ملاعب طفولته"



يحيى السماوي

- استراليا -

ألقيْتُ بين أحِبَّتي مرساتي
فالآنَ تَبْدأ _يا حياةُ- حَياتي

الآن أبْتَديءُ الصِّبا ولو أنني
جاوَزْتُ ((خمسيناً)) من السَنَواتِ

الآن أخْتَتِمُ البكاءَ بضحكةٍ
تمتدُّ من قلبي إلى حَدَقاتي

الآن يَنْتَقِمُ الحبورُ من الأسى
ومن اصْطِباري ظامئا كاساتي

أنا في ((السَماوة)).. لنْ أكَذبَ مُقلتي
فالنهرُ و((الجسرُ الحديدُ)) هُداتي

وهنا _جوارَ الجسرِ- كانت قلعَة
حَجَريّة مكشوفة الحُجَراتِ

هذا هو ((السجنُ القديمُ)).. وَخلفَهُ
جِهَة ((الرُمَيْثة)) ساحُ إعْداماتِ

وهناكَ بيتُ أبي.. ولكن لمْ يَعُدْ
لأبي بهِ ظِلٌ على الشُرُفاتِ

لا يُخْطِئُ القلبُ الترابَ.. شَمَمْتُهُ
فتَعَطَّرتْ بطيوبِه نَبَضَاتي

وهناكَ بُستانُ ((الإمامي)) والذي
عَشِقتْ نعومة طينِهِ خَطَواتي

النخلُ نفسُ النخل... إلا أنه
مُستوْحَشُ الأعْذاق والسَعْفاتِ

لكانَّ سَعْفَ النخل حَبْلُ مشيمةٍ
شُدَّتْ به روحي لطين فراتِ

أنا في ((السماوةِ))... لا أشكُّ بما أرى
فلقد رأيتُ بأهلها قسَماتي

سأصيحُ بالقلبِ الذليل: كفى الضنى
فاغلقْ كتابَ الحزن والنَكَبات

وأنامُ مقروراً يُوَسِّدني الهوى
ريشَ الأماني بعد طولِ أناةِ

مَرَّتْ عليَّ من السنينَ عِجافُها
ومن الرياحِ الغاضباتِ عَواتي

ألَقتْ بأشرِعتي إلى حيثُ الندى
جمرٌ يُمَرِّغ باللظى زهراتي

يشكو لساني من جَفافِ بَيانِهِ
في الغُرْبَتَينِ فأصْحَرَتْ غاباتي

وَحْشِيَّة تلك الهمومُ... وديعُها
أقسى على قلبي من الطَعَناتِ

أنا يا عراقُ حكاية شرقيَّة
خُطَّت على رَمْلٍ يسَنُّ حَصاةِ

غَرَّبْتُ في أقصى الديارِ فشَرَّقتْ
روحي... وَحَسْبُك مُنْتهى غاياتي

مولايَ! كم عصف الزمانُ بمَرْكبي
فأغَظْتُ مُزْبدَ موجِهِ بِثباتي

ناطَحْتُهُ _ وأنا الكسيحُ _ فلم يَنَلْ
من حَزْمِ إيماني وَعَزْمِ قناتي

واسَيْتُ حرماني بكوني حَبَّة
عربية من بَيْدَرِ المأساةِ

والله مـا خلتُ الحيـاةَ جَـديرةً
بالعـيش إلا هذه اللحظاتِ
واستَيْقظَ الزمن الجميل بمقلتي
من بعدِ أجيـالٍ بكَهْفِ سُبـاتِ
الله! مـا أحلى العـراقَ وإنْ بدا
مُـتَـقـرِّحَ الأنهـارِ والواحـاتِ
سـامَحْتُ جـلادي وكنتُ ظَنَنْتُني
سـأنالُ منه بألفِ ألفِ أداةِ
وَطردْتُ من قلبي الضَغينَة مثلما
طردَ الضيـاءُ جَحافلَ الظُلماتِ
فـودَدْتُ لو أني غَـرسْتُ أضـالعي
شَـجَـراً أفيُ به دروبَ حُـفـاةِ
جَـهَّزْ ليومي في رحابكَ فُسْحَـةً
وَحُـفَـيْـرَةً لغدي تَضمُّ رُفـاتي
((أفـيِّشْ يا ريحَـة هليْ وطيبـة هليْ
وكَهـوة هلي وشـوفـة هلي لعـلاتي))
عـاتَبْتُـهُ ـ أعني الفؤادَ ـ فَضَحْتَني
فـاهْدأ... أخـافُ عليكَ من زَفـراتي
هَوِّنْ عليكَ... فـقـدْ تُعـابُ كـهـولة
تَرْفـو ثيـابَ الصَّبْـرِ بالعَـبَـراتِ
أمْ أنتَ أهْرَقتَ الوقـاَ جَـمـيـعَـهُ
فَـعَـدَوْتَ عَـدْوَ طريدةٍ بفـلاةِ؟
هَوِّنْ عليكَ فـإنَّ حَظَّكَ في الهـوى
حَظُّ ((ابن عَذْرَةَ)) في هُيامِ ((مَهاةِ))
يا صـابراً عِـقـدَينِ إلا بضعـة
عن خـبـزِ تنورٍ وكـأسِ فُـراتِ

ليـلاكَ في حُضْنِ الغـريبِ يَشِـدُّها
لسـريره حَـبلٌ من ((السُـرُفـاتِ))
تبكي وَتَسْـتَـبكي ولكن لا فـتىً
فـيَـفكُ أسْرَ سـبـيـئـةٍ مُدْمـاةِ
يا صـابراً عِـقـدَينِ إلا بضعـة
((ليلى)) مُكَبَّلة بقـيْـدِ ((غُـزاةِ))
ليـلاك مـا خـانَتْ هواكَ وإنما
((هُبَلُ الجـديدُ)) بزيٍّ ((دولاراتِ))
إنَّ ((المريضـة)) في العـراق عـراقـة
أمـا الطبيبُ فَـمِـبْـضَعُ الشَـهَـواتِ
وَطَرَقتُ باباً لم تُغـادِرْ خـاطري
فكأنَّهـا نُقِـشَتْ على حَـدَقـاتي
مَنْ؟ فـارْتَبكْتُ.. فـقلتُ: حَيٌّ مَـيِّتٌ
عـاشَ الجـحـيمَ فـتـاقَ للجناتِ
وَصَـرَخْتُ كـالملدوغِ أدْرَكَـهُ الرَّدى
مـتـوسِّـلاً من بلسمِ رَشَـفـاتِ:
أينَ العـجـوزُ؟ فـمـا انْتَبَـهْتُ إلى أخي
يبكي... ولا الشَـهَـقـاتِ من أخـواتي
عـانَقـتُـهـا... وَغَـسَلْتُ باطنَ كـفِّـهـا
وجـبـينَهـا بالدمعِ والقُـبُـلاتِ
وَحَضَنْتُـهـا حَضْنَ الغريق يَشـدُّهُ
رَمَقٌ من الدنيـا لطوق نجـاةِ
قَـبَّلتُ حـتى نَعْلهـا... وكـأنني
قَـبَّلتُ من وردِ المنى باقـاتِ
وَمَسَحْتُ بالأجـفـان منهـا أدْمعـاً
وأنـابَتِ الآهـاتُ عن كلمـاتي

وسـألتُـهـا عَـفـوَ الأمـومـةِ عن فـتىً
عَـبَـثتْ به الأيامُ بَعْـدَ شَـتـاتِ
واسْـتكْمِلَ الحـفلُ الفـقـيـرُ بزَخَّـةٍ
مـزحـومـةٍ بـ ((هَلاهِل)) الجـاراتِ
عَـتَـبَتْ عليَّ وقـد غَـفَـوْتُ سُـوَيْعـة
عَـيْني.. وخـاصَمَ جَـفْنُهـا خَطرَاتي:
قُمْ بيْ نَـطوفُ على الأزِقَّـةِ كلِّهـا
نَتَـبـادَلُ الآهـاتِ بـالآهـاتِ
طاوَعْـتُـهـا... ومَـشَـيْتُ يُثْـقِلُ خطوتي
صَـخْـرُ السنين ووحـشـةُ الطُرُقـاتِ
الله! مـا أحلى ((السـمـاوةَ))... ليلُهـا
باكي النَداوةِ ضـاحكُ النَجْـمـاتِ
الله! مـا أحلى السـمـاوة... صُبْحُـهـا
صـافٍ صـفـاءَ الضـوءِ في المرآةِ
فَـتَّـانَةٌ... حـتى نِبـاحُ كـلابهـا
خَلفَ القُـرى يُغـوي ثغـاءَ الشـاةِ
أتفَـحَّصُ الطُرُقـاتِ... أبْحَثُ بينهـا
عن خَـيْطِ ذكرى من قـميص حـيـاتي
فـزَّ الفـؤاد على هتـافٍ غـابرٍ
عن أصْـدَقِ الأوهامِ في صَـبَـواتي
هل كـان حُـبّـاً؟ لستُ أدري... إنما
قـد كـان درسـاً للطريق الآتي
كـانت تُمَـشِّطُ شَـعْـرَها في شُـرْفَـةٍ
خـضـراءَ... تَنْسلهُ إلى خُـصـلاتِ
رفـعَتْ يداً منهـا تشـدُّ سـتـارةً
لتـصـدَّ عن أحـداقـهـا نظراتي

فَظَنَنْتُـهـا رَدَّتْ عليَّ تَحِـيَّـتي
بإشـارةٍ خـجلى وباللفَـتـاتِ
كنتُ ابنَ عـشـرٍ واثنتين... فَلَمْلَمتْ
شـفـتـايَ مـا اسْتَـعْـذَبْتُ من كلمـاتِ
غـازَلتُـهـا... ثُمَّ انْتَـبَـهْتُ إلى أبي
خلفي يَكرُّ عليَّ بالصَـفَـعـاتِ
أتَخـونُ جـاري يا أثيمُ وَعِـرْضُـهُ
عِـرْضي وكلُّ المُحْـصِنات بَناتي؟
تُبْ للغـفـورِ إذا أرَدْتَ شـفـاعـة
واسْـتَـمْطِرِ الغـفـرانَ بالآياتِ
لا الدَمْعُ يَشْـفَعُ والنحـيبُ ولا أبي
سَـمَعَ اختناقَ الطفلِ في صَـرَخـاتي
واسْـتَكْمَلَتْ أُمي العـقـابَ... وراعَني
وَيْلٌ بإطْعـامي إلى ((السَّـعْـلاةِ))
فَـنَـدِمْـتُ _رغـم بـراءتـي- وأظنُّـهُ
كـان الطريق إلى جنان صـلاةِ

إيضاحات

١- رغم ان جميع جسور السماوة مصنوعة من الحديد، إلا أن أهالي المدينة يطلقون اسم ((الجسر الحديد)) على جسر واحد بعينه.

٢- أفيش: كلمة شعبية شائعة الاستعمال في لهجات الكثير من المناطق العراقية، يراد بها التعبير عن فرح القلب وابترادِه.

٣- السرفات: جنازير عجلات الدبابات.

٤- السعلاة: حيوان أسطوري اعتادت الأمهات على إخافة الأطفال به ■

شوارد ٢

شعر وعطر

الفصحى تمر بوعكة صحية!!..

□ ***إننا لا ننادي باستخدام اللغة العربية الفصحى بكامل جمالياتها التي وسمت بها في أبهى عصورها عندما كان اللسان العربي نقياً ولم تلوثه العولمة والتغريب بنكهاتها الدخيلة.***

فذلك شرف ليس لأحد أن يدعيه في عصر الإقليمية والإسفاف والانحدار والتردي الذي باتت تعاني منه اللغة العربية في زحمة الفضائيات وتباين اللهجات. مما سيبرز في المستقبل جيلاً ممن سيطلق عليهم لاحقاً اسم (أدباء) سيضطرون للتحلل من قيود لغتنا العربية. ويهبطوا بها إلى مستوى الشارع الذي يكون قد تخلى عنها من قبل، وحجة هذا الجيل من الأدباء أنهم مضطرون للتخلي عن الفصحى لأنها لم تعد مفهومة أو شائعة الاستخدام بين الناس وأنه ليس أمامهم سوى أن يخاطبوا الناس باللغة التي يفهمونها؟ وهل الشاعر الفلسطيني سميح القاسم كان محقاً حين قال: نحن آخر جيل الشعراء والأدباء العرب يعرف لغة عربية؟؟؟ وهل فعلاً كما يقول الشاعر المغربي محمد بنيس: إن كل الدلائل والمؤشرات تفيد بأن اللغة العربية في حالة موت سريري؟؟؟ في معرض إشارته إلى الدور الخطير الذي تلعبه بعض الفضائيات العربية في صياغة وجدان الأمة ومستقبل لغتها. وللقارئ والمثقف العربي وأدباء وشعراء الأمة الذين يتحصنون في خندق الدفاع عن لغة القرآن الكريم يعاضدهم ويشد من أزرهم الدعاة جزاهم الله خيراً، لكل هؤلاء وغيرهم من الغيورين على الفصحى وهم كثر ولله الحمد أن يسألوا ويتساءلوا: أين دور مجامع اللغة العربية؟ بل وأين دور جامعة الدول العربية ودور المنظمة العربية للثقافة والعلوم ودور وزارات التربية والتعليم في الدول العربية ووزارات الثقافة والإعلام التي تسمح بإفساد ذائقة الناشئة وتغريبهم عن لغتهم؟؟

فلا يكفي أن نردد ما قاله حافظ إبراهيم: أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي؟؟ مطلوب حد أدنى من جماليات اللغة حتى لو كان مبسطا المهم ألا نهجر الفصحى لأن التاريخ لن يرحم الجيل الذي فرط وتآمر على لغته ■



يوسف أبو عواد

- الرياض -

أمة اقرأ التي لا تقرأ !!

□ ***وغير بعيد عن هذا وربما وثيق الصلة والعلاقة به سؤال يطرح نفسه بقوة هذه الأيام: لماذا لا نقرأ بالمستوى الذي أمرنا وخوطبنا به معشر أمة (اقرأ؟؟) وهل فعلا ما يزال الكتاب خير جليس؟؟***

إحصائيات منظمة اليونسكو العالمية تشير إلى أن الإنتاج العام للكتب في العالم العربي أقل مما تنتجه منفردة أصغر دولة في أوروبا (وتحديداً بلجيكا) وأن إجمالي ما ترجمته الدول العربية مجتمعة من الكتب لعام واحد لا يعادل حتى خمس ما ترجمته دولة كاليونان لنفس العام؟؟ وتؤكد أرقام منظمة اليونسكو دوما أن صناعة الكتاب العربي تتراجع على مستوى النشر مثلما تتراجع على مستوى القراء. هناك من يعزو هذا الانحدار الثقافي إلى الانحدار السياسي وهناك من يحصر أزمة الكتاب فقط في الكتاب الثقافي لأنه موجه للنخبة، بينما الكتب التي تتحدث عن اعترافات الراقصات وزيجات الفنانات لا تعاني من أزمة قارئ ولا أزمة نشر. وهناك من يعزو السبب إلى عدم التربية على القراءة أساساً، لأن التعليم في المدارس قائم على التلقين الذي يفرض على الطالب ما يقرأ وبالتالي ارتبطت القراءة عنده بالكتاب المقرر وما عداه هو غير معني بقراءته.. وحال الأسرة لا يختلف كثيراً عن المدرسة، فقد يكون البحث عن إبرة في كوم من القش أهون من البحث عن أسرة أهدت لابنها كتاباً بمناسبة نجاحه أو في أحد الأعياد مثلا؟؟ آخرون يعزون الأمر إلى وجود الحاسوب والإنترنت لكن هذا التبرير لا يبدو مقبولاً عند الكثيرين فالحاسوب والتقنية عموماً عرفها قبلنا الغرب بعشرات السنين ولم تصرفه عن القراءة التي لا يتوانى عنها حتى أثناء انتظاره الحافلة وخلال الرحلة، لا بل إن عدم انشغاله بالقراءة في هذه الأثناء قد يثير دهشة واستغراب من هم حوله!!! بعض المفكرين والكتاب العرب أدرك ذلك فعمد إلى تصدير مؤلفاته وأبحاثه بلغة أجنبية وبيع منها أضعاف ما تم بيعه من النسخة العربية رغم الفارق الكبير في سعر النسخة الأجنبية؟!!

ألا يبدو مخجلاً حين نشكل ٥٪ من سكان المعمورة ولا تزيد مساهمتنا أو حصتنا في صناعة الكتاب عالمياً عن ١٪ ؟؟؟ ولماذا نذهب بعيداً فالحال نفسه حتى في الغذاء فمساحة الوطن العربي تشكل ١٠٪ من مساحة العالم فيما لا تتعدى حصته من حجم الزراعة العالمية ١,٣٪ وعلى رأي أحدهم هل أنصفنا البطون حتى ننصف العقول؟؟؟■

أبيات ذات مغزى

غيرة من نوع آخر:

تفــار من الكتــاب إذا رأتني
أطالعـــه وأترك وجنتـــيـــهـــا
أطالعـــه فـــأفـــهـم مــا لديه
ولم أفــهـم بجــهــدي مـــا لديهـــا
(محمود عماد)

أمة تلهو:

وإذا ســألت عن (العــروبة) قل لهم
هي أمـــة تلهـــو وشـــعب يلعب
(حافظ إبراهيم)

في حب الأولاد:

وإنمـــا أولادنـــا بـــيـــنـــنـــا
أكـــبـــادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعـــضـــهـــم
لامــتنعت عــيني عن الغــمـض
(أبو تمام)

ثقة واعتزاز بالثياب لو كانت بالية:

فـــإن تك أثوابي تمزق عن بلى
فإني كمثل السيف في خلق الغمد
(أبو هلال العسكري)

يرحم أيام زمان:

نهق الحــمـــار فــقلت أيمن طائر
إن الحــمـــار من التــجـــار قـــريب
(اللص الفاتك)

أبيات وقصة:

ومـــا هند إلا مـــهـــرة عـــربيـــة
سليلة أفـــراس تحللهـــا بغل
فـــإن ولدت فـــحـــلا فلله درها
وإن ولدت بغــلا فــجــاء به البــغل

هذه الأبيات (على ذمة الراوي) قالتها زوجة الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في العهد الأموي وهي هند بنت النعمان بن بشير الأنصارية، وعلى إثرها طلقها الحجاج ثم طلب يدها الخليفة عبدالملك بن مروان، ويقال أنها اشترطت أن يقود هودجها يوم زفافها الحجاج نفسه وفي الطريق وهو يقود هودجها رمت ديناراً على الأرض وطلبت منه أن يناولها الدرهم، فناولها قائلاً: هذا دينار وليس درهما فقالت الحمد لله الذي أبدل درهمنا دينارا.

كثير في قليل:

- إذا عمل المرء في حدود حريته نال حريته كاملة.
- العاري من الفضيلة لا تستره الثياب.
- من جهلنا نخطئْ ومن أخطائنا نتعلم.
- كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل والعقلاء.
- العقول كمظلات الطيارين لا تعمل حتى تنفتح ■

شي من الصراحة

(عيد ميلاد مهضوم)!!

من يتكرم مشكوراً بعلاجي؟

من يساعدني لأتجاوز صدمتي النفسية؟

من يخلصني من انفصام الشخصية

من يؤازرني ويخـــــرجني من يأسي وإحباطي

الذي أرخى عليَّ سدوله كليل طويل

من يساعدني كي اجتاز مأساتي

واطمئنوا أيها المحسنون

مشكلتي ليست مادية

فأنا أعرف كيف أتسوّل بعيداً عن الأضواء

ومشكلتي ليست زوجية

فـأنا ككل الأزواج الشـرفـاء ألقيت لهـا عصا الطاعة من سنة أولى زواج

مـشكلتي أنني شـاهدت عـيـد مـيـلاد مهضوم

لفنانه مهضومة

على فضائية مهضومة

لفيف من الشباب والصبايا

ذكّروا (الأمورة) بعيد ميلادها

عزفت الموسيقى..

غنوا لها على أنوار الشموع

قدموا لها الهدايا.. والدروع..

حقيقة لو كنت معهم

لأهديتها شالاً تستر به صدرها العاري

لو كنت معـهم لأهديتـهـا فـسـتـانـاً "اللي اختشوا ماتوا".

ولوزعت على جـمـهـورها الكريم سكر البنات!!!

ولأطفـأت الأنوار حـتى لا أرى هكذا سخافات

وهكذا جنون أو إن شئت مجون..

وانتقلت من الطرب

إلى الجنازات

كانت فلسطين تشيع الأطفال والنساء..

سقطوا بغدر الصهاينة

ورأيت الدمار والدموع والأسى

وفجأة تذكرت الفنانة المهضومة

ومن تلك الليلة مازلت أعاني

من مرض الاكتئاب

أليس من حقي بعد الذي رأيت لو أتمنى

أن يبتلع الفضاء بعض الفضائيات

حتى لو كانت مهضومة.. ■





شذرات الذهب ٩٣

أساطير الجن

□ تُروىَ عن الجن وصلتها بالإنس - وبخاصة شعراء الجاهلية- أساطيرُ كثيرة، يكتفي بعض المؤرخين بتكذيبها والقول بأنها ملفقة مخترعة، وهذا بدهيّ. ولكن وراءها أشياء هامة تجعلها ميداناً للدراسة المتأنية، إذ أنها تُصور عقلية مخترعها، وأوهام المجتمع الذي ترددت فيه، كما تعرض نموذجا من التفكير الخيالي لقوم سمحوا لظنونهم أن تّمتد إلى مدى واسع، ولم يفت السابقين من الباحثين أن يقفوا طويلا عند ما توحيه هذه الأساطير، فجاء الباحثون بما فتح الله به عليهم من التأويل، ولعل الجاحظ في القديم كان أول من رصد هذه الظاهرة، ونقل عن شيخه أبي إسحاق النظام ما يُفسر مدلولها الواقعي، قال الجاحظ عن أستاذه: " وأصلُ هذه الفكرة أنّ القوم تأثروا بوحشة بلادهم، ومن أقام بالصحراء منفردا استوحش وابتلى بالوسوسة وتمثّل له الشئ الصغير كبيرا، فإذا اشتملت عليه الغيطان وسمعَ صياح بُومةٍ أو مُجاوبة صدى، تصورفي نفسه كل شئ باطلٍ، وربّما كان أحدُهم كذاباً، فيأتي بشعر يزعم فيه أنه رأى الغيلان وكلمّها، ثم يتجاوز ذلك فيقول قتلتها، ثم يتجاوز ذلك فيقول رافقتها وتزوجتها " .

وأذكر أني قرأت في رحلة المستشرق السياسي عبدالله فيلبي إلى منطقة الربع الخالي بالجزيرة العربية تعليلاً مقبولاً لما يُسمع في الصحراء من أصوات متجاوبة يقول عنها الأقدمون إنها عزيف الجن، إذ قال فيلبّي إنه رأى هضاباً من الرمال تتراكم وتتجمع بعضها فوق بعض فإذا هبت العاصفة الشديدة حركتها من أسفل وأعلى فيسمع لتضارب الرّمل وتناثره صوتُ -سمعه فيلبي مرات عديدة- هذا الصوت يتجاوب مستمراً لبعض فترات حتى تهدأ الريح، وقد سمعه الأعراب من قبل، فظنوا أنه عزيف الجن! مع أنه صوت الريح الثائرة بتراكم الرمال.. وهذا احتمال

من الأكاذيب

قول النظّام فيما روى الجاحظ ربما كان أحدهم كذاباً فيزعم أنه رأى الجن وحادثها وتزوجها، له شواهد كثيرة منها ما حكاه من يسمى عمرو بن يربوع بن حنظلة، من أنه قابل (السعلاة) إحدى مخلوقات الجن فعشقها وأراد أن يتزوجها، فقال له أهلها: إنك ستجدها خير امرأة، مالم تر برقا، كأنهم حذروه من حنينها إلى وطنها إذا رأت البرق، فكان زوجها عمرو بن يربوع يستر البرق عنها إذا لاح في الأفق كيلا تفر، وقد ولدت له أولاداً فغفل عنها ليلة ولاح البرق، فقعدت على جمل كبير وفرت واربة وقالت:

أمْسِكْ بنيك عمرو إنّي آبق
برق على أرض السعالى آلق!

ولا أدري كيف يستر البرق في السماء!! وكأن كذابا آخر أعجبتْه فرية عمرو بن يربوع، فنسج على

أ. د. أبو حسام

المنصورة - مصر

منوالها، فقد حدّث الخوارزمي في شرحه بيت أبي العلاء المعري :

إذا لاح إيماض سترتُ وجوهها
كأنّي عَمْروٌ والمطيّ سعالى

فذكر قصة ابن يربوع، ثم قال: ومن ذلك ما حكى بعض العلماء (البناكتيه) نسبة إلى مدينة مما وراء النّهر، تُدعى (بناكت) أن أميراً من أمراء هذه البلاد اصطاد من البحر جاريةً جنّية جميلة وجدها في مياه (سَيحون) فوكل بها من يحفظها ويرقبها ويتعهدها، بإدخالها في الماء حتى بقيت عنده مدّة، وولدت له أولاداً فأمنوا فرارها، وتغافلوا عنها، فانتهزت الفرصة ورَمت بنفسها إلى بَحْر سيحون فغابت عن الأنظار.

يقول الخوارزمي: وهذه الحكاية إن كانت صدقاً فذاك، والا فقد عارضت كذبا بكذب.. وهو الواقع

تأبط شراً

قال عمرو بن أبي الشيباني: إن تأبط شرا كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين، وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى بعض الظباء بأسفل الوادي فيقع نظره على أسمنها، ثم يجري خلفها فلا يفوته الظبي حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ويشويه ويأكله، وإنما سُمي تأبط شرا، لأنه فيما حُكي لنا، لقي الغول في ليلة ظلماء، وفي موضع يقال له رُحى بطان في بلاد هذيل، فأخذت عليه الطريق،

فلم يزل بها حتى قتلها، وبات عليها، فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه فقالوا له (لقد تأبط شرا) فصار اسمه، واسمه الأصلي ثابت بن جابر، وقد نسبوا له أنه قال شعرا في قتيلته، ومنه

وإني قد رأيتُ الغُول تهْوى
بَسهبٍ كالصحيفة صحصحان
فقلتُ لها كلانا نضو أيْن
أخُو سفر فخلِّي لي مكاني
فشدتْ شدَّةً نحوى فأهْوَى
لها سيفي بمصقول يماني
فأضْربها بَلا دَهش فخرّتْ
صريعا لليدين وللجران
فلم أنفكّ متكئاً عليها
لأنظر مصبحا ماذا أتاني

عن الأعشى

يُروى حديثٌ عن الأعشى، لا ندرى من ذا لَفّقه، وقد يكون هو الذي لفّقه بنفسه، ليثبت أنه يوحى إليه من أرض عبقر وهي وادي الجن في بلاد العرب، وبذلك يعظُم ما يقول، ويتردد شعره في الآفاق قال الأعشى (خرجتُ أريدَ قيس بن معد يكرب بحضرموت، فضللتُ في أوائل أرض اليمن، لأني لم أكن سلكت هذا الطريق من قبل، فأصابني مطر، فرَميْتُ ببصري أطلبَ مكاناً ألجأ إليه، فوقعت عيني على خباءٍ من شعر، فقصدت نحوه وإذا أنا بشيخ على باب الخباء فقال بعد أن سلّمتُ عليه: هلم، وأدخل ناقتي خباء آخر كان بجانب البيت، فحططت رحلي وجلست، فقال من أنت؟ قلت أنا الأعشى؛ أقصد قيس بن معد يكرب، فقال: حياك الله، أظنّك امتدحْته الشعر، قلت: نعم، قال فأنشدنيه فابتدأت مطلع القصيدة

رَحلت سمَيّة غدوة أجمالها
غَضْبى عليك فما تقول بدالها؟

فلما أنشدته هذا المطلع قال حسبك: أهذه القصيدة لك؟ قلت نعم قال مَنَ سميَّة التي تنسب بها قلت لا أعرفها. وإنما هو اسم أُلقي في روعي، فنادى يا سمية: اخرجي، وإذا بجارية جميلة خرجت فوقفت وقالت: ما تريد يا أبت؟ قال: أنشدي عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معد يكرب فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها بيتا، فلما أتمتها، قال: انصرفي، ثم قال: هل قلت شيئاً غير ذلك! قلت نعم: كان بيني وبين ابن عم لي يقال له يزيد بن مسهر ما يكون بين بنى العم، فهجاني وهجوته فأفحمته، قال، وماذا قلت فيه؟ قلت

ودِّعْ هريرة إن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

فلما أنشدته البيت الأول، قال حسبك، من هريرة هذه التي نسبت بها؟ قلت لا أعرفها، وسبيلها سبيل التي قبلها، فنادى يا هريرة: فإذا جارية قريبة السن من الأولى خرجت، فقال: أنشدي عمك قصيدتي التي هجوت بها يزيد بن مسهر، فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفاً، فسقط في يدي، وتحيَّرت وتغشتني رعدة، فلما رأى ما نزل بي، قال، ليفرخ روعك، يا أبا بصير، أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذي ألقى على لسانك هذا الشعر.

قال الأعشى فسكنت نفسي ورجعت إليّ، وسكن المطر، فدلني على الطريق، وأراني سمت قصدي وقال: لا تعج يميناً ولا شمالاً حتى تقع ببلاد قيس.

عبيد بن الأبرص

وهذه قصة تنسب إلى راويها يحيى بن أكثم، حيث حدّث بها أمير المؤمنين هارون الرشيد وما أظن القاضي يفرغ لرواية هذه الأفاكيه، ولكن أصمعياً جريئاً اخترع القصة ونسبها إلى يحيى ليكون لها مكانها من الاعتبار قال الراوي، قال الرشيد(١) ليحيى بن أكثم أتعرف قائل هذا البيت:

الخير أبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبثُ ما أوْعيتَ من زاد!

فقال يحيى: حدّث عبيد بن الأبرص قال: كنت في بعض السنين حاجاً، فلما توسطت البادية في شدة الحر، سمعت ضجةعظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها، فسألت عن القصة، فقيل لي: انظر، فنظرت فإذا أنا بشجاع أسود فاغرٍ كالجذع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرغاء البعير، فهالني أمره، وبقيت لا أعرف ماذا أصنع، فعدلنا عن الطريق إلى أخرى فإذا الشجاع أمامنا، ولم يجرأ أحد على الاقتراب منه، فقلت أفدي هذا العالم بنفسي، وأتقرب إلى الله بالخلاص منه، فأخذت قربة من الماء فتقلدتها، وسللت سيفي فلما رأى القربة سكن. ثم فتح فاه، فحملت فم القربة إلى فمه، وصببت به الماء كما يصب في الإناء، فلما فرغت مضى نازحاً، فتعجبت من تعرضه لنا، وسرعة انصرافه دون أن يمس أحدنا بسوء.

ثم عدنا في طريقنا ذلك، وحططنا رحالنا في ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية من الطريق فنمت بعض الوقت، وانتبهت فلم أجد للقافلة حساً فقد ارتحلوا، وبقيت وحدي، فأخذتني الحيرة ولم أدر ما أصنع، وجعلت اضطرب، فسمعت هاتفا يناديني بالرجز ويقول فيما يقول

يا أيها الشخص المضل مركبه
دونك هذا البكر منا فاركبه

فنظرت فإذا ببكر قائم عندي، وبكري إلى جانبي، فأنخته وركبته، ومعي إلى جانبي بكرى، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولي، فتحولت إلى بكرى وجعلت أسأل عن صاحب هذا الفعل الطيب، فالتفت إليّ البكر وهو يقول:

أنا الشجاع الذي ألفيتني ربضا
والله يكشف ضر الحائر الصادى
فجُدت بالماء لما ضن حامله
نصف النهار على الرمضاء بالوادي
الخيرُ أبْقى وإن طال الزمان به
والشر أخبثُ ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منا لا نَمنّ به
لك الجميل علينا إنك البادي

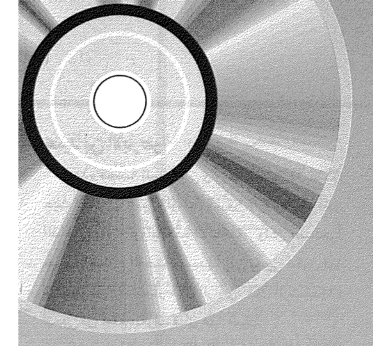
قال الراوى: فعجب الرشيد، وأمر بالقصة فكتبت، والأبيات فرُويت، وقال لا يضيع المعروف أينما وضع؟

من شعر الحطيئة

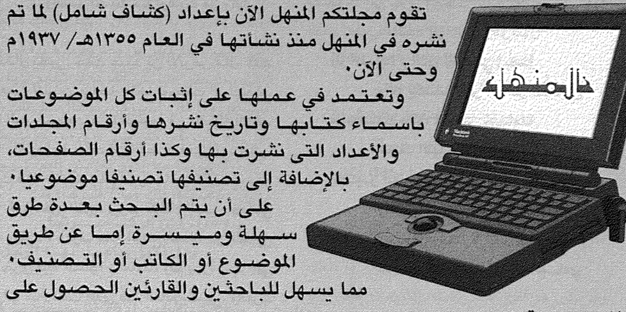
من يفعل الخير لا يعدمْ جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

الهوامش:

(١) لم يصحب يحيى الرشيد فلعله المأمون كما كان ينبغي أن يلاحظ واضع الطرفة.



كشاف المنهل الشامل



تقوم مجلتكم المنهل الآن بإعداد (كشاف شامل) لما تم نشره في المنهل منذ نشأتها في العام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م وحتى الآن.

وتعتمد في عملها على إثبات كل الموضوعات باسماء كتابها وتاريخ نشرها وأرقام المجلدات والأعداد التى نشرت بها وكذا أرقام الصفحات، بالإضافة إلى تصنيفها تصنيفا موضوعيا.

على أن يتم البحث بعدة طرق سهلة وميسرة إما عن طريق الموضوع أو الكاتب أو التصنيف. مما يسهل للباحثين والقارئين الحصول على مبتغاهم بسرعة ويسر.

وسيتم وضع الكشاف على (CD) مما يسهل حمله والرجوع إليه في أي وقت وحين.

وسيكون متوفرا لمن يرغب في اقتنائه من الباحثين والقراء عامة في مطلع العام الهجرى الجديد ١٤٢٨هـ بإذن الله تعالى.

والله أسأل التوفيق والسداد لخدمة العلم والعلماء،،،

المنهل

مجلة للآداب والعلوم والثقافة

مع تحيات .. دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

المركز الرئيسي (جدة) رمز بريدي ٢١٤٦١ - ص. ب ٢٩٢٥ - هاتف : ٦٤٣٢١٢٤ - فاكس : ٦٤٢٨٨٥٣

البريد الإلكتروني : E-mail: info@al-manhalmagazine.com عنوان الموقع : WWW. al-manhalmagazine.com







للقديم روعته

أسطر في الفن والإبداع والكلمة المنتقاه.. نستخرجها من صفحات (المنهل) عبر عقوده الماضية.. نعيد قراءتها معاً.. نستعيد بها إبداع السالفين ممن مضوا.. والباقين ممن احتضنت المنهل أقلامهم.. ما أروع وأبدع وأجمل أن يقلب المرء صفحات ظنها طويت، وكم تكون القراءة الثانية أعمق دهشة من الأولى.

منهل الطلبة

يصدر مرة في كل شهر عربي

السنة الثانية
ذو القعدة ١٣٧٤هـ/يوليو ١٩٥٥م



الخير يد فعالة في حياة الأفراد والأمم

لعبدالله الجفري

□ النفس الإنسانية لا حدود لها بل هي آفاق واسعة لا يدرك مداها النظر والتأمل، وقد خلق الله سبحانه لها تجدداً مطرداً في ميادين الأخيلة والمدارك والتفكير لا ينفك عن تفاعله فابقيت الحياة سائرة في طريقها الوجودي على نظام منسق جميل لا اضطراب فيه، فخلق الله الشقاء ومعه السعادة.. والشر ومعه الخير وهكذا جعل كل عام في كفة يساويه آخر ضده في كفة أخرى حتى يتسامى ويستقيم هذا النظام الكوني ليجعل أسلوب سيره لا اعوجاج فيه..

إن العنصر الذي سنتحدث عنه هو عنصر الخير وما فيه من سمو في الحياة والفكر والمدارك حتى إذا ما تكلمنا عنه يمكننا أن نفقه شيئاً كثيراً وندرك مقابله من الشر وما فيه من انحطاط الحياة وتدهورها وما في الخير من تقدم وحضارة وازدهار، إن الخير مخلوق في نفوس البشر والمخلوقات وكذلك الشر فقد قال الله تعالى {ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها}

والخير تتباين منازعه تباينا عظيماً باختلاف النفوس التي يحتلها والنفوس مولودة على حب الخير بالفطرة.. فكأن الخير من طبعها الأصلي والخير أصل من سجية المرء شيء من نفسيته.. ولكن الحياة وقوتها الهائلة وسلطانها العظيم تغلب على هذا المولود وما تزال معه في مد وجزر فإذا كانت النفوس طاهرة نقية سمت في الخير إلى درة عالية من المكانة والرفعة في الشأن وإلا هبطت إلى دركات الحياة.. قال الله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين} صدق الله العظيم.

وللخير طرق شتى متشعبة نحن في غنى عن ذكرها إذ أصبحت واضحة وإنما الأجدر بالذكر أن نقول كلمة نتلمس فيها الجوهر وندع كل ما له من علاقة وإحساس بالمظهر.. ومما لا يختلف فيه اثنان أن الخير هو واحدفي ذاته وإنما تتعدد فيه الآراء وتختلف الأفكار حتى إن الإنسان قد يحب أمراً على أنه خير مع أنه في الواقع شر، وقد يكره أمراً على أنه شر مع أنه في الواقع خير وعلم ذلك عند الله في قوله تعالى: {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم} وهكذا قد تتغير الأعمال الخيرية الحسنة في نظر الإنسان لأنه قاصر وليس هنا مقياس يقاس عليه الخير غير الشرع الإسلامي الذي كفل للبشر سعادتهم إذا اتبعوه ويضمن لهم حياة سامية إذا ساروا على سننه ولم يخرجوا على قوانينه ولن تكون الإنسانية سعيدة إلا إذا كان الخير هدفها وغايتها.

فنرجو أن يكون الخير عنصر انسانيتنا ■



الأخلاق قبل الاتحاد

لعبد الله الداري

□ ينادي نفر من الطلاب إلى (اتحاد الندوات) لما في ذلك من جمع الشمل وتوحيد المبدأ وغرس روح التعاون والتآلف بين الطلبة.. والندوات في ذاتها تستحق الدرس والتمحيص.. تمهيداً لاخراجها إلى حيز الوجود إلا أن هناك عقبات ومصاعب تقف حائلاً دون تحقيق هذه الأمنية الغالية وحين أقول الاتحاد لا أعني به إصلاح ذات البين وتحسين حالة الندوات وإزالة بعض الخلافات الناشئ أغلبها لأسباب تافهة فكل هذه الأمور فروع وما كنت لأطالب إلا بالاصول، فما الفائدة في الإصلاح والتنظيم ما دامت كل ندوة تجرى وراء مصلحتها الذاتية وأغراضها الشخصية مهما فدح الثمن.. إن ندواتنا للأسف الشديد غرقى في بحر خضم من الانانية والطائفية.. تصطخب أمواجه ويعب عبابه، وكل ندوة تستهين بالأمر ولا تتنازل أن تمد يدها لمساعدة الأخرى.. وتقديم المعونة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وكان مفروضا علينا كناشئة هذه البلاد أن نبني أعظم صرح للبطولات والأمجاد.. وبهذا فقط نستطيع أن نقف رافعي الرؤوس حرمة وكرامة ونحن نعيش في وطن واحد وعلينا أن نكون قلبا واحداً في اعتناق مبدأ واحد لا أن نكون فئات وفرقاً لا يوحدها مبدأ ولا يجمعها هدف إذن لا فائدة من الاتحاد ما دامت نفوسنا في زيغ وزيف فهذا أمر لا نجني من ورائه إلى التقهقر إلى الوراء ولبئس المصير.. فلنوحد العناصر الصالحة لنكون منا فئات فنحن في أمس الحاجة إليها ولندع العناصر الفاسدة تئد نفسها فدولة الأقوال قد دالت ■



أخي لا تعبث بالحياة

لعمر الطيب الساسي

□ أخي إن هذه الحياة ملك يديك فلا تعبث بها، وانظر إليها نظرة الإنسان المقدر لها فالحياة كفاح ونضال وقد خلقت لكي تجتاز كل عقبة تتصدى لك وتسير قدماً حتى تبلغ غايتك المنشودة فتحيا حياة سعيدة.. والواجب عليك أن تعمل فقد قال الله تعالى: {إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا} فاعمل وثابر لرفع سمعة وطنك الذي عشت تحت سمائه وبين أحضانه فله عليك حق يجب أن تؤديه وافيا.. لك مجد غابر حافل بالأعمال الجليلة خلّفه لك أجدادك وتركوك تحمل هذا العبء فاعمل لكي تسترد هذا المجد الذي استطاعوا به أن يكونوا سادة للعالم أجمع.

ولا تظن أن ذلك تحقق لهم باللهو واللعب، وإنما اتحدوا وتكاتفوا وأصبحوا رابطة إسلامية قوية موحدة وعملوا بكتاب الله الذي يقول: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا} وهكذا حققوا ما يسعون إليه من من أهداف حتى وصلوا إلى قمة المجد والعلا.

ويجب علينا نحن معشر الطلبة أن نؤدي أعمالنا كما ينبغي.. وأن نقدر قيمة الحياة وقيمة الوقت، كما قيل: "الوقت من ذهب" وكذلك ينبغي لنا أن نعمل ونحاول أن نصل إلى طريق النجاح ولو فشلنا مرة فإننا سوف ننجح مرات..

فالفشل أساس النجاح (والصبر مفتاح الفرج)■

دور الأسرة في تكوين الأجيال وتعزيز المواطنة

□ ***إن التربية بمفهومها الشامل تعنى بتربية الإنسان تربية متكاملة في أخلاقه وجسمه وسلوكه وروحه وضميره، والأسرة هي المؤسسة الأولى الاجتماعية والتربوية التي تستقبل الطفل وتحتضنه وتعمل على تنشئته ونموه.. ولكل من الأب والأم دوره الذي يؤديه في هذه الحياة، وكلما نال كل منهما نصيبه الذي يؤهله للقيام بهذا الواجب تحققت لهما الحياة الهانئة السعيدة لذا فإن إعداد المرأة إعداداً طيباً يؤهلها للقيام بواجبها تجاه أسرتها على أكمل وجه.. ولقد قيل:***

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق

فلا بد من تنشئتها تنشئة سليمة حتى تصبح زوجاً صالحة وأما رؤوما تدرك العناية بشؤون بيتها وتحسن تربية أبنائها تربية إسلامية كريمة.

ولقد نظم الإسلام الحياة الزوجية والأسرية ووضع لها ضوابط وحدودا ووزع أعباء المسؤولية بين الرجل والمرأة بحيث يكمل أحدهما الآخر.. والأسرة بطبيعة الحال مسؤولة عن تربية أبنائها تربية قويمة متكاملة، ولقد قال الشاعر العربي:

عود بنيك على الآداب في الصغر
كيما تقر عيناك بهما في الكبر

وتعد الأسرة البيئة الأولى لتنشئة الطفل والمحطة الأولى التي يتزود خلالها بأهم أسس التربية والنواة التي ينبثق فيها صلاح أو اعوجاج سلوكه وشخصيته لكونها مصدراً لتكوين الشخصية والانتماء والهوية والوطنية من خلال الدور الذي تقوم به في تربية الناشئة - ومن واجب الأسرة غرس مقومات المواطنة الصالحة في المواطن وحب الوطن والانتماء له والعمل من أجل رقيه وتقدمه والدفاع عنه والحفاظ على منجزاته والمشاركة الايجابية الفاعلة وحب الوحدة الوطنية.

ولقد اهتم الإسلام اهتماماً عظيماً ببناء الأسرة المسلمة وحمايتها ويجلى ذلك في الاهتمام والرعاية بثمرة الحياة الزوجية في قول الله تعالى: "يوصيكم الله في أولادكم" ومن حق الأبناء على آبائهم أن يحسنوا تربيتهم واختيار أسمائهم وتربيتهم على



عبدالله بن حمد الحقيل

- الرياض -

الفضائل والآداب ومكارم الأخلاق ومراعاة العدل بين الأولاد والتنشئة الكريمة كما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه

فدور الأسرة كبير في تكوين الأجيال لكونها الدعامة القوية التي يرتكز عليها بناء البيت المسلم، وأن تكون قدوة صالحة وأسوة فاضلة ومثلاً كريماً في حسن التعامل والأخلاق والتربية والسلوك، فهي قدوة للأبناء ومتى انحرفت الأسرة وضعف الوازع الديني عندها فسوف ينحرف الأبناء ولقد أوضح الشاعر العربي ذلك بقوله:

إني أرى أسوأ الآباء تربية
للابن أحرى بأن يدعى أعق أب

وإن واجب رب الأسرة أن يعرف واجباته التربوية والدينية، فيتعرف على أحوال أبنائه وميولهم مواضع القوة ومواطن الضعف فيهم، فيعمل على تقوية الضعيف وتصحيح خطأ المنحرف وتهذيب من يحتاج إلى التهذيب وتشجيع من يستحق التشجيع ويحسن الصلة والتعاون وغرس العادات الحسنة في نفوسهم، وألا يكون في عزلة عنهم وأن يبثث في نفوسهم أحسن العادات من الجد والمثابرة على الدراسة والعمل وأداء الواجب وضبط النفس وإجلال الآباء والآمهات والأقارب والمعلمين، مع الحرص على الاستقامة، فالتعاون بين الأسرة والمدرسة يمكن أن يربي أبناء صالحين وأعضاء عاملين في المجتمع يفخر بهم آباؤهم ووطنهم، فالتعاون بين الأسرة والمدرسة يتعرف كل منهما على ما يعترض الأبناء من صعوبات في تربيتهم، ومتى تعاون الجميع كانت النتائج حميدة ومحققة للغايات المنشودة.

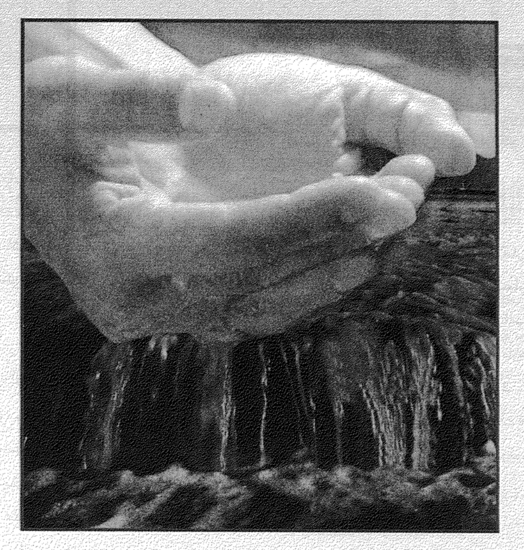
إن وعي الأسرة بمسؤولياتها يؤدي إلى ترقية الحياة الاجتماعية والخلقية والصحية والتعليمية والروحية في الأمة وبتعاون الجميع ينهض المجتمع، ولقد قيل:

خير ما ورث الرجال نبيهم
أدب صالح وحسن ثناء

وفي الختام ننشد قول الشاعر الآخر:

نعم الإله على العباد كثيرة
وأجلهن نجابة الأولاد

حقق الله الآمال في تحقيق تربية الأبناء تربية صالحة تعدهم للحياة التي تنتظرهم ويكونون أعضاء عاملين نافعين في الحياة وفق منهج التربية الإسلامية الرشيدة ■



« ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين »

الماء عصب الحياه

فحافظوا عليه ولاتهدروه

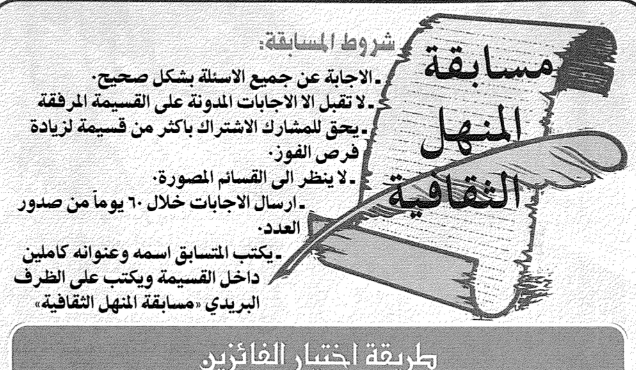
المنهل

مجلة للآداب والعلوم والثقافة

مع تحيات .. دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

المركز الرئيسي (جدة) رمز بريدي ٢١٤٦١ - ص. ب ٢٩٢٥ - هاتف : ٦٤٣٢١٢٤ - فاكس : ٦٤٢٨٨٥٣

البريد الإلكتروني : E-mail: info@al-manhalmagazine.com عنوان الموقع : WWW. al-manhalmagazine.com



شروط المسابقة:

- الاجابة عن جميع الاسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل الا الاجابات المدونة على القسيمة المرفقة
- يحق للمشارك الاشتراك باكثر من قسيمة لزيادة فرص الفوز.
- لا ينظر الى القسائم المصورة.
- ارسال الاجابات خلال ٦٠ يوماً من صدور العدد.
- يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملين داخل القسيمة ويكتب على الظرف البريدي «مسابقة المنهل الثقافية»

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التى ترد من المشاركين.
- يتم استبعاد القسائم ناقصة الاجابة.
- تجمع القسائم الصحيحة الاجابات ويعمل لها قرعة لاختيار الفائزين.
- ترسل الجوائز الى اصحابها فور الوصول الى النتيجة وتدفع بالريال السعودي او ما يعادله.

جوائز المسابقة

الجائزة الاولى :	١٠٠٠ ريال	الجائزة السادسة:	٣٠٠ ريال
الجائزة الثانية:	٧٠٠ ريال	الجائزة السابعة:	٢٥٠ ريال
الجائزة الثالثة:	٥٠٠ ريال	الجائزة الثامنة:	٢٠٠ ريال
الجائزة الرابعة:	٤٠٠ ريال	الجائزة التاسعة:	٢٠٠ ريال
الجائزة الخامسة:	٣٥٠ ريال	الجائزة العاشرة:	١٥٠ ريال

الاسم : .... السن: ....

العنوان : ....

المنهل

نتيجة سحب جوائز مسابقة المنهل الثقافية

نتائج العدد ٦٠٣

لطفاً: رجاء كتابة رقم المسابقة على الظرف

الفائــزون :

الجائزة الأولى : حسن أحمد عمر ـ السعودية.

الجائزة الثانية : سناء بكر يوسف ـ الاردن.

الجائزة الثالثة : ماجد أحمد المحمود ـ السعودية.

الجائزة الرابعة : مصطفى نصر ـ السعودية .

الجائزة الخامسة : هناء سعيد الملا ـ الكويت.

الجائزة السادسة : وفاء عمران خصمة ـ سوريا .

الجائزة السابعة : بلال عمر التونسي ـ تونس.

الجائزة الثامنة : مروان عبدالرحمن خطاب ـ المغرب.

الجائزة التاسعة : سرور زايد الوعد ـ الامارات.

الجائزة العاشرة : صفاء السيد محمود ـ مصر.

ترسل الاجابات خلال ٦٠ يوماً من صدور العدد

ستنشر نتائج مسابقة المنهل الثقافية العدد (٦٠٤) في العدد (٦٠٦) .. وذلك لاتاحة اكبر فرصة للمشاركين.

قسيمة مسابقة العدد (٦٠٥)

ضع علامة ✓ امام الاجابات الصحيحة..

١ـ الامام «السيوطي» ولد عام :

☐ ٨٤٩ هـ ☐ ٨٦٠ هـ

٢ـ نشر كتاب (عبدالقدوس الأنصارى .. شاعراً) تأليف د. عبدالله باقازى في عام :

☐ ١٤٠٩ هـ ☐ ١٤١١هـ

ابحث عن الإجابات داخل هذا العدد..

إجازة رائعة لكل الفصول.

هل تتوق إلى الراحة؟ أتريد أن تحظى بأوقات سعيدة داخل أو خارج المملكة؟ نحن نضع بين يديك مجموعة كبيرة من برامج عالم السياحة والتي صممت بأسعار منافسة لتناسب إمكانياتك. نهتم بالتفاصيل ونحقق رغباتك سواءً كانت فنادق، رحلات، تأجير سيارات أو عروض فريدة مثل سفاري أفريقيا، جزر الكاريبي، منتجعات سياحية. حدّد اختيارك نحققه لك! لمعرفة المزيد تفضل بزيارة موقعنا على الإنترنت www.saudiairlines.com أو اتصل على الرقم ٨٠٠٢٤٤٠٠٩١.

عالم جديد من الاختيارات



SAUDI ARABIAN AIRLINES الخطوط الجوية العربية السعودية

عالم السياحة WORLD HOLIDAYS

الآن بالأسواق والمكتبات

إصلاحات في لغة الكتابة والأدب
عبدالقدوس الأنصاري
الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م
إصدارات دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أحدث إصدارات دراة المنهل
للصحافة والنشر المحدودة

كتاب

«إصلاحات في لغة الكتابة والأدب»

مرجع هام لكل المهتمين بدراسة اللغة

المنهل
مجلة للآداب والعلوم والثقافة

من إصدارات .. دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة
المركز الرئيسي (جدة) رمز بريدي ٢١٤٦١ - ص. ب ٢٩٢٥ - هاتف : ٦٤٣٢١٢٤ - فاكس : ٦٤٢٨٨٥٣
البريد الإلكتروني : E-mail: info@al-manhalmagazine.com عنوان الموقع : WWW. al-manhalmagazine.com